OLIN
PS
3531
O752
P312
1954

CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY

GIFT OF

Mr. Victor Reynolds

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 115 445 227

فوق جواد أغبر

أبناء الفناء - حمرة الظهيرة

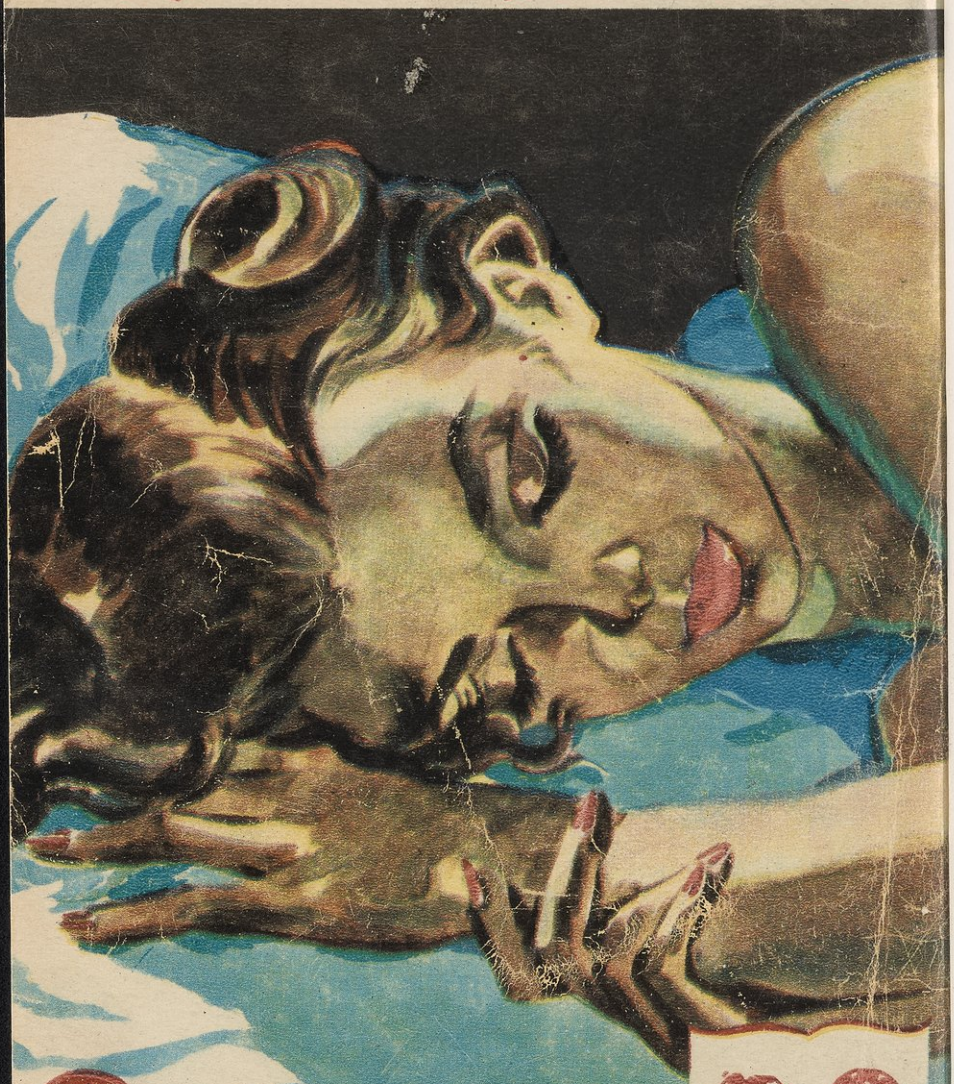

قصة اليوم

٨ قروش

فوق جواد أغبر

للكاتبة الأمريكية المعاصرة

كاتراين آن بورتر

نقلتها إلى العربية

الكاتبة الكبيرة

السيدة صوفي عبد الله

Mr. Victor Reynolds
4/17/61

PS
3531
O772

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY ITHACA N.Y.

نشر بالاشـتراك
مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بالقـاهرة ونيويورك

هذه الترجمة مرخص بها
وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطبـاعة والنشر
بشراء حقـوق الترجمـة من أصحاب هذه الحقوق
ونزلت عنها لدار « أخبار اليوم »

This is a translation of "Pale Horse, Pale Rider" by Katherine Anne Porter. Published by Harcourt, Brace & Company. Copyright 1936, 1937, 1939, by the Author.

351623B
G
DG

فوق جواد أغبر

درت وهى نائمة أنهـــا فى فراشها ، ولكن لا الفراش فراشها الذى توسدته منـذ سويعات ،ولا الحجرة حجرتها ، ولكنهـا حجرة سلفت لها بها صـلة على وجـه من الوجوه . وكان قلبهـا كأنه صخرة رسخت فوق صدرها من خارج ، وقـد أبطأ وجيب قلبها ثم كف عن الخفقان ، فعلمت أن أمـرا خارقا قـد أوشـك ن يقـع . ولريح النهار الباكر من وصاوص النافذة نسمة رطبة ، وسلسال الضوء أزرق أدكن ،وكل من فى الدار يغط فى نومه .

الآن يجب أن أنهض فأمضى وهم رقود . وأين حوائجى ؟ ان للاشياء فى هذا المكان ارادة ،فهى تختفى حيثما تشـــتهى . وسوف يدق ضوء النهـار سقف الدار دقة فاجئة ، فاذا هم على أقدامهم وقوف ، وقد فاضت على وجوههم أسئلتهـم : الى أين أنت ذاهبـة ؟ وماذا أنت صانعـة ؟ وفيم تفكرين ؟ وبماذا تشعرين ؟ ولماذا تقولين هذا الذى تقولين ؟ وماذا تعنين ؟

نضب النـوم . فأين حـــذاء ركوبى . وأى جـواد أركب ؟ أأركب « فيدلر » ، أم «جرابلى» ،أم « الآنسة لوسى » ذات الانف الطويل والنظرة الخبيثة ؟

لكم أحببت هـــذه الدار فى الصباح قبل أن نهب جميعا من رقادنا فنتخالط تخالط خيـوط عنكبوت أسىء مرماها .

فى هذا المكان ولد كثيرون ،وبكوا فأكثروا البكاء ، وضحكوا فأكثروا الضحك ، وتغاضـــبوا وتناحروا فأسرفوا . وما أكثر من ماتوا من قبل فى هذا الفراش ،ومن قبلهم تنـ ثرت عظـام آباء وجدود حول مدافئه .

وعلا صـوتها وهى تقـول :ما أكثر ما بلى فى هذا البيت من

أكسية المقاعد والارائك اجيالا بعد اجيال ، وما أكثر ما كان حريا أن يتراكم فيه من الغبار طبقة فوق طبقة ، لولا أيدلم تدع له مُستقرا .

والغريب ؟ أين هذا الغريب الهزيل الضارب لونه الى الخضرة ... الذى أذكر حومانه حول الدار ، وما كان يلقاه به جدى وتلقاه به عمتى الكبيرة من ترحيب ، يتلقاه بمثله أبناء عمومتى الابعدون ، وكلب صيدى المقعد وهريرتى الفضية اللون ؟

وانى لأعجب ماذا كان يحببهم فيه ؟ وأين هم الآن ؟ فانى قد بصرت به يمر بالنافذة عند الاصيل .

ومن لى فى الدنيا عدا هؤلاء ؟ لا شيء . ما لى شيء ، ولكن ذلك اللاشيء الذى لى ، فيه كفاية ، فهو جميل ، وهو كله لى ، فهل ترانى أمشى الآن فى جلدى ، أم عساه جلدا استعرته لأستتر به من حياء ؟

والآن ، أى جواد أستعير لتلك السفرة التى لا أنتويها ؟ أأستعير جرايلى ، أم الآنسة لوسى ، أم فيدلر الذى يقفز فوق الخنادق فى الظلام ، ويحسن التقام اللجام !!

أوفق أوان لرحيلى بكرة الصباح ، فالشجر حينئذ هو الشجر ولا خفاء ، والصخر هو الصخر فى ظلال نعرف أنها أعشاب ، فلا مجال للتخبط أو الحدس ، والطريق بعد وسنان لم تنحسر عنه طلاوة الندى ، وسأركب جرايلى لانه لا يجفل أمام القناطر والمعابر ..

وقالت بعد ذلك .... وقد أخذت بعنانه : هيا الآن ياجرايلى ، فلابد لنا أن نستبق الموت والشيطان فنسبقهما .

وقالت للجوادين الباقيين : لستما أهلا لذلك .

وكانا مسرجين أمام باب الاسطبل ، ومعهما جواد الغريب ، وكان أغبر اللون مرقش الانف والاذنين .

وتأرجح الغريب فوق سرج جواده الى جوارها ، ثم انحنى بقامته نحوها انحناء شديدا ، ونظر اليها نظرة خلوا من

المعنى ، نظرة فارغة ساكنة تنبىء عن خباثة غير مقصودة ، لا تحمل وعيدا ولا تستعجل أمرا . فجذبت عنان جرايلى جذبة شديدة ، واستحثته على الانطلاق ، فوثب فوق السور المنخفض الوردى وما وراءه من خندق ضيق ، ثم ارتفع فى الشارع بعد ذلك تحت سنابكه سحاب الغبار الثقيل .

وأنطلق الغريب الى جوارها فى يسر وخفة ، وقد انفرجت أصابعه عن العنان المرخى فى كفه ، وقد انتصبت قامته أنيقة فى أثوابه القاتمة البالية ، التى كانت تخفق فوق عظامه ، وقد افتر وجهه الاغبر عن ابتسامة تنبىء عن شرود خبيث . ولم يكن نظره اليها .

آه . لقد رأيت هذا المخلوق من قبل ، ولو أسعفتنى الذاكرة بموضعه منها لعرفته . فما هو بالغريب عنى !

وجذبت عنان جرايلى ، وهمت قائمة فى ركابها ، وصاحت :

لست على طريقك هذه المرة ، فأنطلق أنت !

وأنطلق الغريب غير متلبث أو ملتفت صوبها . وكانت أضلاع جرايلى تعلو من تحتها وتهبط ، وكذلك أضلاعها كانت فى ارتفاع وهبوط . وى ! كيف أصابنى كل هذا الكلال . ينبغى الآن أن أصحو .

وقالت وهى تفتح عينيها وتتمطى :

ـ ولكن ينبغى أن أتثاءب وسع فمى أولا . من أين لى ضربة ماء بارد تصافح وجهى ، فأحسبنى عدت الى الكلام فى منامى ، وقد سمعت صوتى .. ! ولكن ترى ماذا كنت أقول ؟

وفى ابطاء ، وعلى غير هواها ، راحت ميراندا ترفع نفسها من وهدة النعاس اصبعا اصبعا ، ثم لبثت وهى فى بهرة الوسن تستأدى الحياة مأثور سيرتها .

وأفزع خاطرها لفظ واحد ، كأنه صوت النذير ، يذكرها طيلة يومها ما أسعدها نسيانه فى نومها ، وما كان لها فى غير نومها أن تنساه . وكانت صيحة ذلك النذير كلمة « الحرب » ... وهزت رأسها ، فقد تذكرت وهى تهز قدميها ، وقد علق بهما

خفاها : كيف يجلس شتى صنوف الناس فوق مكتبها بادارة الجريدة ! ففى كل يوم تجد من يجلس فوق مكتبها لا يحول عنه الى المقعد المبذول هناك ، ويطوح فى جلسته ساقيه ، ويحوم فيما حوله بناظريه ، وقد شغله مهم أمره ، وراح يترقب سانحة للكلام فيه !! فلماذا لا يجلسون على الكرسى ؟ هل ينبغى أن أعلق عليه لافتة مكتوبا فيها : (نشدتك الله أن تقعد هنا !)

وما علقت لافتة ، بل انها ما كانت لتقطب فى وجوه زائريها ، ويغلب عليها ألا تلقى اليهم بالا على الاطلاق الا اذا رجحت كفة اصرارهم على استلفاتها اليهم كفة اصرارها الا تلتفت الى وجودهم .

وجال بفكرها وهى تستلقى على راحتها فى ماء ماعون استحمامها الساخن « أن يوم السبت هو يوم صرف الاجور كالمعتاد ، أو هو على الاقل ما نرجو أن يدوم عليه الحال . » ثم راحت خواطرها تحوم متخبطة فى دأب متصل لتجمع أطراف النقائص فى حياتها اليومية وتسلكها فى نظام واحد متين ، وانها لحياة يتراءى لها كفاح البقاء فيها وقد أضحى سلسلة متصلة من ضروب الشعوذة والاحتيال .

اننى مدينة .. بماذا على وجه التحديد ؟ ليت فى يدى الساعة قلما وقرطاسا ..! لا بأس ، لنفرض أننى دفعت فعلا خمسة دولارات فورا من ثمن « سند الحرية » ، فما أظننى مستطيعة أن أثابر على الوفاء بتلك الدفعات ، أو لعلنى أقدر ! ان أجرى ثمانية عشر دولارا فى الاسبوع . منها « كذا » لأجرة السكن ، وكذا للطعام ، ولا بد لى أيضا من بضعة أشياء أخرى ، يقرب ثمنها من خمسة دولارات . فتتبقى لى سبعة وعشرون سنتا ، على ما أظن . وأحسب هذا مما يقلق البال . بل لقد أقلق بالى فعلا . وماذا وراء ذلك ؟ الباقى سبعة وعشرون سنتا ، كلها كسب خالص ، أو « صافى أرباح » . ولو أنهم رفعوا مرتبى الى عشرين دولارا لكان ما يتبقى معى ريالين وسبعة وعشرين سنتا . ولكنهم لن يرفعوا مرتبى الى عشرين دولارا ، بل انهم سيلقون بى الى عرض الطريق ان لم أشتر « سند الحرية » . وأكاد لا أصدق هذا ، وسوف أسأل « بيل » فى ذلك ، (بيل هو محرر شئون

المال) فانه يخيل الى أن وعيدا من هذا القبيل انما هو ابتزاز للمال بالتهديد . وما أظن من يقدم عليه ينجو من وزره ، مهما كان مركزه أو نفوذه .

وبالامس كانت تتدلى من فوق مائدة آلتها الكاتبة أربع أرجل ، كل رجلين منها فى ناحية ، وقد التفت تلك الارجل فى أردية كأنها المداخن ، قاتمة اللون ، يبدو أنها غالية الثمن . وأدركت عن بعد أن أحد الجالسين أقرب الى الكهولة ، والآخر أقرب الى الصبا . وفى كليهما عنجهية مبتذلة منحولة ، يبدو أنهما أستقياها من معين واحد ، وعليهما معا أمارات تغذية موفورة . وكان لأصغرهما شارب مقطوط مربع . ودلها مرآهما على أن مرادهما ـ كائنا ما كان ـ لا بد أن يكون غير جميل .

وأومأت ميراندا اليهما برأسها محيية ، ثم جذبت مقعدها ومدت يدها ، قبل أن تخلع قفازها وقبعتها ، الى كومة من الخطابات ، ثم أخرجت ورق النسخ من درجه ، كمن لا يتسع وقتها لضياع لحظة ، فلم يتحرك الرجلان ، ولم يخلعا قبعتيهما !! فقالت لهما : « طاب يومكما » ، ثم سألتهما : ألعلهما كانا فى انتظار مقدمها ؟

وانحدر الرجلان عن موضعهما فوق المكتب ، وقد خلفا فيه أوراقا لها كسرها جلوسهما فوقها ، ثم سألها الرجل المسن منهما : لم لم تشتر سندا من سندات الحرية ؟ فنظرت اليه ميراندا عندئذ ، فلم يحسن وقعه لديها ، فقد كان ذا وجه أشبه بصرة النقود ، ضخم الفم ، ذا عينين صغيرتين خابيتين ! وعجبت ميراندا فى سريرتها : لماذا يكاد جميع من يختارون لأعمال الحرب فى أرض الوطن أن يكونوا على غراره . فانه يحتمل أن يكون أيما شىء على الاطلاق : رائد الطليعة لمسرح متنقل ، أو مروج بضاعة لشركة مفلسة من شركات الزيت ، أو مديرا سابقا لأحد الملاهى الرخيصة يدعو لملهى جديد اعتزم أن يفتتحه قريبا ، أو بائع سيارات ، أو مرتزقا بأى مهنة كانت حيثما اتفقت له اللقمة ! بيد أنه الآن رجل الوطنية المتأصلة ، الذى يعمل للدولة .

وسألها الرجل قائلا : اسمعى ! أتعلمين أننا فى وقت حرب أو لا تعلمين ؟

.. أتراه ينتظر حقا جوابا عن هذا السؤال ؟ ولكن صبرا يا ميراندا ، فذلك أمر لم يكن منه بد ، ان عاجلا أو آجلا . فتماسكى .

وهز الرجل اصبعه فى وجهها ، ملحا عليها فى سؤاله ذاك ، كأنه يستحث طفلا عنيدا . فقالت ميراندا كأنها تردد صدى كلامه : « أجل ، انها الحرب ! » وارتفع صوتها طبقة وهى تقولها ، وأوشكت أن تبتسم له . فقد أصبح الابتسام بتلك الصورة الغامضة الجامدة لازمة آلية حينما يسمع الانسان كلمة الحرب ، أو حين يتفوه بها .

فقال أصغر الرجلين سنا بلهجة مستهجنة : « أجل ، انها الحرب . » فأجفلت ميراندا لصوته ، والتقت بعينه عيناها ، فاذا نظرته جامدة جمود الصخر ، باردة فى خباثة ولؤم ، فهى من قبيل تلك النظرة التى تتوقع أن ترتطم بها من وراء فوهة مسدس مصوب عند منعطف منعزل .. ! وقد ألقت نظرته ضوءا موقوتا على معارف وجهه التى تبدو غفلا لولا هذه النظرة ! شأن وجوه هؤلاء الذين لم يخلقوا لأمر من الامور أو مشغلة خاصة بهم .

واستطرد الرجل قائلا : « اننا فى حالة حرب . ومن الناس من يقبلون على شراء سندات الحرية ، ولكن فريقا منهم لا يبدو أنهم يهفون اليها . وذلك هو ما نريد أن نقول . »

وقطبت ميراندا جبينها فى عصبية هى بداية أمارات الخوف ، وسألتهما وهى ترفع عن آلتها الكاتبة غطاءها ثم ترده الى موضعه : « وهل تبيعان هذه السندات ؟ »

فقال أسن الرجلين ، وفى صوته وعد ووعيد : « كلا ، نحن لا نبيعها ، ولكننا نسألك لماذا لم تشترى سندا منها ؟ »

وشرعت ميراندا تبين لهما أنها لا تملك مالا ، ولا تدرى أين تجد المال ، واذا بالرجل المسن يقاطعها قائلا : « ليس هذا عذرا ناهضا على الاطلاق ، وقد علمت هذا ، وهذه جيوش الهون تجتاح بلجيكا الشهيدة »

وقال أصغر الرجلين : « وهؤلاء شباب أمريكا يقاتلون ويقتلون

فى غابة بللو ، وانه لمما يسع أى انسان أن يدبر خمسين دولارا يعين بها على هزيمة الالمان »

فبادرت ميراندا تحيب قائلة : « كل ما لى فى الحياة ثمانية عشر دولارا فى الأسبوع ، لا تزيد سنتا واحدا ، فليس فى مقدورى قطعا أن أشترى شيئا » !

فقال أسن الرجلين ، وكانا قد وقفا فوق رأسها عن يمين وعن شمال ، يتبادلان النغيب جيئة وذهابا : « بل تستطيعين شراء السند مقسطا ، خمسة دولارات كل أسبوع ، كما فعل كثيرون غيرك فى هذه الادارة وفى ادارات أخرى كثيرة » !

وأخرست ميراندا خرس القنوط ، وان جال فى سريرتها : ماذا لو لم أكن جبانة ، فصارحتهما بحقيقة اعتقادى ورأيى ؟ ماذا لو قلت لهما : الى سقر بهذه الحرب النكراء ؟ ماذا لو قلت لهذا الصعلوك الصغير : وماخطبك أنت حتى لا تمضى الى القتال ويأكلك الدود فى غابة بللو ؟ لوددت لو أكلك !

وراحت ترتب خطاباتها ومذكراتها بأنامل مستعصية ، لاتكاد تمسك شيئا حتى تفلته ، واندفع الرجل المسن يلقى خطبته المحفوظة : « ان الوقت عصيب طبعا ، وكل امرىء يعانى من غيرشك ، ولكن ينبغى أن ينهض كل بنصيبه من الاعباء . وأما سندات الحرية فهى أضمن وسيلة من وسائل استغلال الاموال ، والمال مضمون كأنه فى المصرف . فالحكومة ضامنة بطبيعة الحال هذه السندات . وأين عساك أن تجدى غلة خيرا من هذه ؟ »

فقالت ميراندا : انى أوافقك فى هذا ، ولكن ليس لى مال اطلاقا حتى أستثمره »

فانطلق الرجل يقول ان دولاراتها الخمسين ليست هى التى ستقيم الميزان بطبيعة الحال ، وانما هى آية تبديها على حسن نيتها وصدق سريرتها ، بوصفها امريكية صادقة الولاء قائمة بواجبها والضمانات بعد لا زيادة فوقها المستزيد . ولو كان عنده مليون دولار لسره أن يستثمر آخر سنت منها فى هذه السندات

وأوشك أن يهش لها وهو يقول : « لا محل للخسارة ، بل انك لخاسرة ان لم تفعلى ، ففكرى فى الامر مليا ، فأنت وحدك

فى ادارة هذه الصحيفة كلها التى تفردت بالنكوص عن الشراء ، مع أن كل مؤسسة فى هذه المدينة قد أسهمت اسهاما كاملا لم يتخلف فيه أحد من موظفها ، ولم نحتج الى تكرار الطلب على أحد فى صحيفة الديلى كلاريون »

فقالت ميراندا : « المرتبات هناك أحسن ، ولكنى سأدفع فى الاسبوع القادم ، ان استطعت ، أما الآن فلا أستطيع »

فقال أصغر الرجلين : « احرصى أن تفعلى ، فليس هذا الامر هزلا ! »

وتبختر الرجلان منصرفين ، فمرا بمكتب محررة المجتمع ، ثم بمكتب بيل محرر شئون المال ، ثم بمكتب النسخ المستطيل الذى يجلس اليه الشيخ جيبونز صائحا طوال الليل بين الفينة والفينة : يا جورج ! فيسرع اليه كاتب النسخ ليسمعه يصيح به مصححا له نمطا من الاخطاء طالما نبه اليه ميراندا من قبل .

وعند رأس الدرج الهابط ، وقف الرجلان فى زهوهما وخيلائهما فأشعلا سيجارتين ، ثم ثبتا قبعتيهما فوق عيونهما .

***

وتقلبت ميراندا فى المياه المرفهة ، وودت لو استطاعت نوما حيث هى ، فلا تصحو الا وقد آن لها أن تستأنف الرقاد . وكانت تحس صداعا بطيئا حارقا ، لم تتنبه اليه الا حينئذ ، ذاكرة أنها استيقظت به ، بل انه بدأ لديها الليلة البارحة

واجتهدت وهى ترتدى ثيابها أن تقتفى أثر صداعها هذا المخاتل ، فعن لها أن الاحجى أن تقول انه بدأ مع الحرب ، ولكنه لم يكن على صورته الراهنة ، فبعد أن انصرف مندوبا اللجنة بالأمس ، نزلت الى قاعة الملابس حيث ألفت مارى تاونزند ، محررة المجتمع ، ثائرة الاعصاب لسبب من الاسباب . وكانت جاثمة على طرف أريكة عتيقة من الخيزران المجدول تهدل أوسطها ، وفى يدها صوف وردى اللون تشتغل بحبكه . فكانت تلقيه من يدها بين الحين والحين لتمسك رأسها بيديها ، وتتأرجح قائلة فى دهشة وتساؤل : « سبحان الله ! » ، وكان العمود الذى تكتبه عنوانه « أخبار المدينة » ،

ولهذا أطلق عليهـا الجميع اسم «مدن» وكانت بينها وبين ميراندا سمات كثيرة مشتركة ، وبينهما مودة . فقد سلف لهما حين من الدهر كانتا فيه مخبرتين بمعنى الكلمة ، ثم أوفدتا معا لاستقصاء حادث هرب فاضح ، أقدم عليه فتى وفتاة ، ولم يسفر الهرب عن زواج ، فقرت الفتاة المرتدة وارمة المحيا بجانب أمهـا التى كانت تعول متـأوهة تأوها رتيبا تحت تل من الأغطية . وبكت الفتاة ووالدتها بكاء أليما وهما تتوسلان الى المخبرتين الشابتين أن تتكتما أسوأ ما فى القصة . وقد تكتمتا وخرجت الصحيفة المنـافسة على الناس فى اليوم التالى بالقصـة كاملة غير منقوصـة ، فعوقبت ميراندا « ومدن » معا ، وأنزلتا جهرة الى درك الاعمـال النسوية المألوفة . فتولت احداهما المسارح وتولت الاخرى حديث المجتمع . وكانت السمة المشتركة بينهمـا أن كلتيهما لم تريا فيما فعلتـا حرجا ولا منه مناصا ، فما كان بوسعهما أن تفعلا غيره . وكانتا تعلمان أن سائر زملائهما يرون فيهما غفلة على ما فيهما من رقة ولطافة . فما أن رأت « مدن » مـيراندا حتى انفجرت قائلة : « لا أستطيع ، ولن يتسنى لى تدبير المبلغ ، وقد قلت لهما وأعدت عليهما أننى لا أستطيع ، ولكن ما من سميع » !!

فقالت ميراندا : « كنت واثقة اننى لسـت وحدى المتفـردة فى هـذه الادارة بالعجز عن تدبير خمسة دولارات . وقد قلت لهما أيضا اننى لم أسـتطع ، ولا أستطيع » !!

فقالت : مدن « سبحان الله ! لقد قالا لى اننى قد أفقد عملى » !

فقالت ميراندا : « سأسأل فى ذلك بيل . فلست أعتقد أنه يقدم على هذا الصنيع » !

فقالت مدن : « ليس الامر بيـده ، فسيكره عليه اذا ألحوا عليه ، أو ترينهم مستطيعين أن يزجوا بنا فى السجن ؟ »

فقالت ميراندا وهى تجلس الى جوار مدن ، ثم تمسك رأسهـا بيديها : « لست أدرى . ولئن فعلوا فلن نسـتوحش هنـاك ! ولأى قبيل من الجند تحبكين هذ الصـوف ؟ انه للـون بهيـج ما أحراه ان ينعش روحه » !

فقالت مدن ، وهى تحرك ابرتيها بعد سكون : « أيما انعاش! انى أحبكه لنفسى »

فأجابتها ميراندا : « أجل سوف لا نستوحش ، وسننام متعانقين » .

وغسلت وجهها ، ثم أعادت زينته ، وأخرجت من جيبها قفازا رماديا نظيفا ، ثم خرجت لتنضم الى مجموعة من الشابات المتقلبات فى أندية الرقص الحلوية ، أو فى لعب البريدج فترة الصبح ، أو فى السوق الخيرية ، ومشاغل الصليب الأحمر ، فكلهن من المنغمسات فى أعمال البر ، ومن دأبهن اقامة حفلات الشاى الراقصة وجمع الاموال ليشترين بها أكداسا من الحلوى والفاكهة والسجائر والمجلات يوزعنها على المرضى فى مستشفيات الاقليم ، وهن الآن فى طريقهن حاملات هذه الغنيمة فى موكب صاخب ، قوامه السيارات الفارهة ، والوجوه المتوهجة ، كى ينعشن قلوب هؤلاء الفتيان الشجعان الذين يجوزلك جدا أن تقول انهم قد سقطوا دفاعا عن وطنهم ...

ولاشك أنه عزيز على هؤلاء الأعزاء أن ينطرحوا على هذا النحو وهم أحرق ما يكونون شوقا الى عبور البحار وخوض غمار الخنادق! أجل ، ومنهم نفر من أبهى من وقعت عليهم العين حسنا وجمالا! وما كنت أدرى أن فى هذا البلد كل هذا العدد من الرجال ذوى الملاحة . ولكم عجبت من أين طلعوا علينا بحق السماء ؟! ولك يا عزيزتى أن تتساءلى هذا التساؤل ، فمنذا الذى يدرى من أين أتوا ؟ وانك فى هذا على حق ولامراء ، فانه يخيل الى أننا ينبغى أن نبذل كل ما فى وسعنا لارضائهم ، ولكننى آبى كل الاباء أن يكون بينى وبينهم حديث أو كلام . وقد أنذرت المشرفات على حفلات الرقص التى تقام للمجندين أننى مراقصة كل من يطلب منهم مراقصتى أياكان خبره ، ولكننى لن أكلم منهم أحدا وان تذرعوا بالحرب سببا . وكذلك رقصت مئات من الاميال طولا ، دون أن أفتح فمى الا لأقول : « نح ركبتيك » ! وانى لسعيدة بالكف عن اقامة هذه المراقص ، وان كان الجنود قد امتنعوا عن حضورها من تلقاء أنفسهم . ولكننى سمعت أن كثيرين جدا من هؤلاء المجندين ينتمون الى كرائم الأسر ، وأنالا أحذق حفظ الاسماء ، ومن

وعيت أسماءهم لم أكن قدسمعت بها من قبل ، ولهذا لست أدرى ... وان كان يخيل الى أنه لوكان منهم ربيب أسرة طيبة لبدا عليه ماينم عنه . أليس كذلك ؟فالرجل الطيب النشأة لا يطأ قدميك . أليس كذلك ؟ فذلك ما لا يبدر منه على كل حال . وقد كنت أتلف نعلا جديدا فى كل مرقص يقام من هذه المراقص! وعلى كل حال ، مبلغ اعتقادى أنه من فساد الذوق ، فى الوقت الحاضر قيامنا بأى نشاط اجتماعى! فأولى بنا أن نرتدى جميعا عصائب الصليب الأحمر ما بقيت هذه الحرب ...

ودرجت ميراندا حاملة سلتها وأزهارها ، متنقلة بين هاتيك الشابات اللواتى تقاطرن مقتحمات العنبر، مطلقات ضحكات صبيانية، أردن بها أن تكون آيات مرح منعش ، لولا صليل صارم يرن فى نبراتها فتوشك أن تجمد له الدماء .

واستشعرت الحرج المبرح لبلاهة مهمتها ، فأنشأت تسير عجلى بين صفوف الاسرة العالية ، تلك الصفوف الطويلة التى تتدانى فيها الأسرة فلا تدع فيما بينها سوى ممرات بالغة الضيق .

وكان الرجال فى ذلك العنبر صفوة حسنى المظهر ، بسطت الاغطية عليهم الى الاذقان ، ومافيهم من علته ذات خطر ، وقد استولى عليهم القلق والملل ، حتى بات أكثرهم متعطشا الى السلوى والتلهية بأى سبب ، ومعظمهم قد نسقت الضمادات فى أناقة فوق رأسه أو ذراعه . أما من لا يظهر عليه أثر جرح ، فاذا سألته فتاة ذات فضول ، مخالفة بسؤالها عن مرضه ماحذرت منه قبل حضورها تحذيرا حاسما ، كان جوابه بغير اختلاف: روماتزم ! . واذا ماضحك بعضهم عن طيبة قلب ولهفة على التسلية ، وصاحوا مبتهجين فى أسرتهم الصلبة الضيقة تكاثرت الفتيات محدقات بهم .

وفيما كانت ميراندا تتطلع ، وهى تمر بباقة الزهر وسلة الحلوى والسجائر بين السرر ، التقت عيناها بعينين حاقدتين لفتى مستلق على ظهره ، وقد شدت ساقه اليمنى الى جبيرة مرفوعة ، فوقفت عند مؤخرة سريره ، ولبثت تنظر اليه فبادلها النظر بوجه لم يزايله الحرد . وكانت عيناه تنطلقان بأجلى بيان قائلتين لها : « ما أنا بمصيب مما تحملين شيئا ، فلك الشكر ، وانفضى عن فراشى هذه

الاقذار » . ذلك أن ميراندا كانت قد وضعت حملها وانحنت كى تجعله فى متناول يده ان شاء ، ولم تستطع استرداد ماوضعت ، فأسرعت مبتعدة وقد تلهب وجهها فعبرت الممر الطويل الى ان خرجت الى شمس اكتوبر الهادئة حيث كانت الثكنات الكئيبة زاخرة بالحشرات الهائمة الشهباء ، وتوجهت الى أقرب نافذة الى سريره فأطلت تتجسس عليه . فاذا به راقد وقد أغمض عينيه ، وزوى ما بين حاجبيه فى صرامة حزينة ولم تستطع أن تحدس هويته . ولم يتسن لها أن تتصور من أين أتى ، ولا الى أى طراز من الناس كان ينتمى فى الحياة المدنية . فقد كان وجهه يافعا ، وملامحه حادة واضحة ، ويداه لم تكونا يدى عامل ولا هما تحملان آثار عناية ورعاية . وانما هما بحيث تدلان على النفع وحسن التكوين ، وهما فى موضعهما ذاك حيث استقرتا على الغطاء .

وخطر لها أنها وفقت اذ عثرت به ، فذلك خير من العثور بجرو لطيف جائع يسعده أن يجد لقمة يتبلغ بها ، وطرف حديثه يتجاذبه واياها . فما أشبه ذلك بالتقائك عند منعطف الطريق ، وأنت غارق فى خواطرك الاليمة ، بصورة مجسمة لافكارك وجها لوجه .

وقالت تصارح نفسها : « انه صورة مجسمة لاحساسى نحو هذا الامر كله . ولن أعود الى هذا المكان أبدا . فذلك مسعى لا خير فيه . وانى لأشعر بالتقزز » .

حتى اذا عادت الى السيارة التى جاءت فيها ، واستقرت فى مجلسها بالمقعد الخلفى ، حدثت نفسها قائلة : « سأصطفيه ولاشك ، وليكونن لى من ذلك درس أعيه . »

وخرجت فتاة أخرى عليها متعبة غاية التعب ، فجلست الى جوارها ، ثم حدثتها قائلة بعد صمت يسير : « لست أدرى ما جدوى كل هذا العناء . ان بعضهم لا يتقبل منا شيئا على الاطلاق . ولست أحب ذلك . وأنت ؟ »

فقالت ميراندا : « أكرهه » .

فقالت الفتاة فى تحوط : « وانى مع هذا أرى أنه ربما لم يخل من خير » .

فاجابتها ميراندا وقد لجأت الى التحوط كذلك : « ربما » .

كان هذا بالامس . فلما بلغت من تذكاره هـذا المبلغ . بدا لميراندا أنه لا خير فى تعلق ذهنها بالامس ، اللهم الا تلك الساعة التى أعقبت منتصف الليل ، فقد سلختها راقصة مع آدم . وكان آدم كثير الخطور ببالها ، حتى ما كانت لتدرى متى كانت تفكر فيه تفكيرا سافرا ، ومتى لا تفكر فيه الا من وراء حجاب . وكانت صورته حاضرة على الدوام فى مخيلتها بوجه من الوجوه ، فتطفو أحيانا على سطح ذهنها ، حين تختله الخواطر المستعذبة ، بل ان صورته هى كل ما رزقت فى دنياها من خاطر مستعذب .

وتفحصت وجهها فى المرآة التى بين النافذتين ، فتبين لها أن احساسها بالوعكة لم يكن محض خيال . فقد غبرت عليها ثلاثة أيام على الاقل وهى تشعر بالاعتلال ، وكان محياها على غير ما ألفت .

ان عليها أن تدبر هذه الدولارات الخمسين بوجه من الوجوه ، أو فمن يدرى أى شى عساه أن يحدث ؟ لقد تمرست بالكوارث الشخصية والتهم المتجنية والعقوبات الشاذة الصارمة التى ترتبت على أمور لا تعدو أهميتها كثيرا ما لفشلها أو ابائها شراء سند الحرية من أهمية .

كلا . انها لا ترى محياها اليوم يروق الناظرين : فهو متوهج لامع ، وشعرها عصى المنحى فقالت تحدث نفسها : «ينبغى أن أصنع شيئا ، فما كنت لادع آدم يرانى على هذا النحو .» وكانت تعلم انه الآن فى الردهة ، يتسقط صوت دوران مقبض بابها ... كما أنه يكون دائما عند الباب حين تعود : وكأن وجوده هنا أو هناك من قبيل المصادفة الخالصة .

وكانت أضواء الظهر تلقى فى حجرتها ظلالا باهتة مائلة ، فحدثتها نفسها أن يومها قد ساءت فاتحته ... ولكن هذا شأن سائر الايام فى هذه الفترة لسبب ما .

وفيما يشبه الوسن ألقت فى شعرها شيئا من العطر ، ثم ارتدت قبعتها وسترتها المصنوعتين من الجلد المرقط .. وكان هذا ثانى شتاء لهما ، ولكن فيهما جدة ورونق . وسرها انها دفعت فيهما ثمنا باهظا ، فقد تمتعت بهما هذا الزمن الطويل . ولو

أنها لم تشترهما لما بقى معها اليوم ثمنهما ، ولكن ربما تيسر لها تدبير ثمن هذا السند .

ولم تعثر بقفل الباب الا باحناء هامتها كى تلتمسه ، ثم انتصبت مترددة برهة ، وقد وقع فى روعها أنها نسيت شيئا توشك أن تفتقده بعد حين أيما افتقاد .

وكان آدم فى الردهة ، على قيد خطوة من باب حجرته ، فدار على عقبيه كمن فوجىء ، وقال : « مرحى ! فلست مقيدا بالاوبة الى المعسكر اليوم . أليس هذا من سوانح الحظ ؟ »

وبشت له ميراندا باسمة ، فقد كان يسعدها دواما أن تراه . وكان مرتديا حلته العسكرية الجديدة ، فبدا كل شىء فيه زيتونيا وزاهيا ، ونحاسيا ، فهو من قمة رأسه الى أخمص قدميه حنطى اللون أورمليه . ولاحظت أنه كان يبدأ دواما بالابتسام لمرآها ، ثم تغيض ابتسامته رويدا ، ويشخص بصره وكأنه يقرأ فى نور خافت .

وخرجا معا الى ضوء النهار البديع ، وأوراق الاشجار المتساقطة تتحطم تحت أقدامهما ، فرفعا ناظريهما الى سماء صادقة الزرقة لاتشوبها شائبة . ووقفا عند أول منعطف ريثما يمر موكب جنازة ، وكان أهل الميت يجلسون فى عرباتهم وكأنهم يستشعرون الزهو بهذا الحداد !!

وقالت ميراندا : « أحسبنى قد تأخرت كعادتى . كم الساعة ؟ »

فأجابها بعد أن شمر عن معصمه بحركة من ذراعه أوسع مدى مما يلزم لذلك : « منتصف الثانية تقريبا » .

ولم يكن الجنود الجدد قد ألفوا بعد ساعات المعاصم ، فمعظمهم ممن تعرف ميراندا أنهم من أبناء الجنوب والجنوب الغربى ، وما أبعد ذلك عن ساحل الاطلنطيق . فقد نشأوا على أن ساعات المعاصم لا يلبسها الا المخنثون .

وقالت ميراندا : « فيم تضرجت وجنتاك ؟ ليس فى حمل الساعات ما يعاب ، وانه لشىء جميل » .

وكان آدم من تكساس ، فأجابها قائلا : « لقد أوشكت أن آلفها ،

وطالما كرروا على أسماعنا أن أهل الرجولة فى الجيش النظامى يحملونها . وذلك من فظاعات الحروب .»

وكان آدم طويل القامة ، متين عضلات الكتفين ، نحيف الخاصرة والفخذين . وكانت أزرار حلته العسكرية كلها محبوكة ، فبدا فى هذه الحلة الخشنة العصبية التفصيل وكأنه فى قميص الكتاف مع أن نسيجها جيد . وقد أفضى الى ميراندا أنه يعهد فى تفصيل حلله العسكرية لخير من يتيسر له من الخياطين . وذلك ردا عليها حين لفتت نظره الى سوء مظهره فى حلته العسكرية الجديدة ، «وماذا نصنع فيما لاصلاح له ؟ » .

ويبلغ آدم من العمر أربعة وعشرين سنة ، وهو ملازم ثان فى سلاح من أسلحة المهندسين . وقد منح أجازة فى الوقت الحاضر لان كتيبته على وشك الرحيل الى الميدان ، فهو ـ كما قال لميراندا ـ قد جاء لكتابة وصيته ، والتزود بفرش الاسنان وأمواس الحلاقة : « فما أضخم حظى بلقائك اذا كتريت فى هذا البيت حجرة .. فكيف بالله عرفت سلفا أنك هناك ؟»

وكانا يسيران جنبا الى جنب وقد انتظمت خطوات حذائه الكبير اللامع بوقعها الحازم مع خطوات حذائها الاسود الرقيق النعل ، وكان مشيهما الهوينى ، فأجلا بذلك نهاية نزهتهما معا جهد التأجيل ، وأبقيا ما وسعهما الابقاء على ما كان بينهما من حديث هين كان يتراوح قافزا فوق الاخاديد الصغيرة العتيقة التى تنتشر فوق الاديم الهزيل الذى يحيط بتلافيف المخ ، فقد كان حديثهما مما يقال أو يسمع بغير استغراق يشيع الاضطراب فى ذلك الاشراق الذى غمرهما بفضل تلك المعجزة المحببة ، معجزة كونهما انسانين يقال لهما آدم وميراندا ، ولكليهما من العمر أربع وعشرون سنة ، وانهما يعيشان على وجه البسيطة فى أوان واحد .

ـ ألك فى الرقص رغبة يا ميراندا ؟

ـ اننى دائما ولى فى الرقص رغبة يا آدم .

ولكن ما أبعد ما بينهما وبين الرقص الآن ، فدون ذلك نهار طويل لم ينقض منه الا القليل .

وقالت ميراندا في ذات نفسها: انه ليبدو هذا الصباح كالتفاح، نضرة وعافية . ولكم تفاخر في ثنايا الحديث بأنه لم يعرف في حياته معنى المرض ، ولم يذق فيما يذكر طعم الألم . فلم تروعها منه تلك الصورة الوحشية ، وانما لقي تفرده وامتيازه ذاك قبولا لديها ، في حين أنها عرفت في حياتها من الآلام والأوصاب مالم تجد معه حاجة الى ذكره وتعداده ، ولقد وهمت بعد عمل في صحيفة صباحية دام ثلاث سنوات انها بلغت مبلغ الخبرة والنضوج، ولكنها تبينت بعد أنه التعب المحض الذي أورثتها اياه معيشة درجت على اعتقاد شذوذها في الصحو والمنام ، واصابة الطعام لماما في مطاعم صغيرة حقيرة ، واحتساء القهوة الغثة طول الليل، والانهماك في تدخين السجائر . فلما روت لآدم طرفا من نمط حياتها ، تفحص وجهها برهة كمن لم يرها من قبل ، ثم قال في غير مواربة : « ان هذه الحياة لا أراها قد مستك بسوء ، فانى أراك جميلة » . ثم تركها عند هذا الحد وهي تعجب بينها وبين نفسها: هل تراه حسبها تستدرجه الى اطرائها .

وكان آدم أيضا يعيش على نمط غير سوى ، أو هكذا على الأقل كان يعيش في الايام العشرة التي نشبت بينهما فيها المعرفة ، فكان يسهر حتى الواحدة صباحا كي يصحبها الى حيث يتناولان العشاء، وكان يدخن كذلك بغير انقطاع ، مع انه ، لولا انها كفته عن الاسترسال ، كان حريا أن يفيض في شرح مساوىء التدخين وما يلحقه بالرئتين من أضرار ، ثم يعقب على ذلك بقوله : « ولكن أي بأس في هذا مادام المرء ذاهبا الى حومة القتال ؟ » فكانت ميراندا تجيبه قائلة ! « لا بأس ، وان كان البأس أقل من هذا أيضا وأهون ما بقيت المرأة في أرض الوطن تحبك جوارب الصوف للجنود ! ! هات سيجارة هات ! »

ووقفا عند منعطف آخر ، تحت دوحة لم يبق لها من أوراقها الا زهاء النصف ، ولم يعيرا موكب الجنازة الذي كان يقترب منهما كبير التفات . وكان لون عينيه شاحبا ترصعهما شذرات برتقالية، أما شعره فكان حنطيا أو هو بلون العشب الجاف . واستخرج صندوق سجائره ثم أشعل سيجارتها وسيجارته بمشعله الفضي، ثم استأنفا سيرهما ينفثان الدخان .

وقال لها : « كأنى أراك وأنت تحبكين جوارب الصوف، فما تقدرين على ما هو أكبر وأحوج للسرعة . وقد علمت علم اليقين انك لست فى هذه الصناعة من أهل البراعة ! »

فأجابته جادة : «بل أفعل ما هو أسوأ من هذا ، أكتب ناصحة للشابات أن يحبكن الصوف ويطوين الضمادات ويستغنين عن السكر معاونة منهن على كسب الحرب » .

فقال آدم فى استخفاف نعهده فى الرجال فى هذا الصدد : « ولكن هذه مهنتك ، وعملك فيها لا يدخل فى الحساب » .

فقالت ميراندا : « انى لأعجب كيف تمكنت من مد أجازتك ؟ »

فقال آدم : « لقد منحونى الامتداد بغير أسباب ، فالناس يموتون كالذباب فيما يلوح بهذا المرض الجديد الذى يحطم الكيان » !

فقالت ميراندا : « يبدو أنه وباء ، كتلك الأوبئة التى كانت تجتاح القرون الوسطى ، والا فهل رأيت فى حياتك كل هذا القدر من الجنازات ؟ »

ـ مطلقا . ولكن دعينا الآن من هذا الموضوع . فقط هبطت على أربعة أيام أخرى من حيث لا أحتسب ، ولا ينبغى أن نضيع شيئا منها هباء بالابطاء والتراخى . فماذا عن الليلة ؟ »

فقالت له : « ككل ليلة . ولكن لنجعل موعدنا منتصف الثانية فقد جد الليلة أمر اضافى فوق عملى اليومى المعتاد » .

فقال آدم : « وأى عمل لك ؟ ان هو الا التنقل من ملهى مغث الى ملهى مغث ، ثم تكتبين سطورا عن كل ذلك » !

فقالت ميراندا : « نعم وانه لعمل مغث فوق ما تستطيعه الكلمات من بيان الغثيان » !

ووقفا برهة ريثما تمر جنازة . ولم يغضبا هذه المرة بل جعلا يرقبانها فى صمت ، وجذبت ميراندا قبعتها الصغيرة فجعلتها فى زاوية مائلة فوق رأسها ، ثم اختلجت عيناها فى ضوء الشمس فقد كان رأسها يدور دورانا بطيئا وصفته لآدم بأنه كتحويم السمكات

الذهبية حين تسبح فى آنية البلور : « وأرانى نصف نائمة ، فلابد لى من القهوة فورا » ...

واتكأ بمرفقيهما فوق الافريز المستطيل فى ذلك المشرب ، وقالت له حين صارت أمامهما القهوة : « ان القابعين فى أرض الوطن قد حرمت عليهم القشدة ، ولا يباح لأحدهم الا قطعة واحدة من السكر ، أما أنا فاما أن أصيب قطعتين أو لا أصيب شيئا على الاطلاق . فهذا هو فنى فى الاستشهاد . وقد صح عزمى منذ الآن على التزام سليق الكرنب فى طعامى ونفاية الصوف فى هندامى ، استعدادا ومرانا للجولة القادمة ، فلن أسمح لحرب بعد هذه الحرب أن تغلبنى على أمرى » !!

فقال آدم :

ـ ولكن لن تكون بعد هذه الحرب حروب ، أما تقرأين الصحف ؟ فاننا سنمسح بهم الارض هذه المرة مسحا لن يفيقوا منه من بعد ، وسيكون ذلك فصل الخطاب .

فاحتست ميراندا رشفة من شرابها المر الدافىء ، وعلت وجهها من ذلك قشعريرة ، ثم قالت : « هكذا قيل لى » . وكانت ابتساماتهما تنم عن رضى متبادل عن رأيهما فى الحرب ، فقد كان كلامهما عنها يدور على النحو السليم والنهج القويم ، وكانت ميراندا لا تميل الى اظهار الضجر والمبالغة فى السخط والتبرم ، لان ذلك ليس مما يليق ، وليس وراءه طائل .

ودفع آدم بفنجانه بعيدا ثم قال : « أهذا كل ما تتناولين من افطار ؟ »

فأجابته : « هو فوق الكفاية »

قال : « أما أنا فأكلت كعكا وسجقا وعصير فاكهة وموزتين وفنجانين من القهوة فى الساعة الثامنة ، وأشعر الآن أننى جائع جوعا ضاريا . وما أشوقنى الى ضلع مشوى وبطاطس مقلية ؤ ... »

فقاطعته ميراندا قائلة : « حسبك ! فان هذا لهو عندى أشبه بالهذيان . فأقدم عليه بعد انصرافى . »

ثم انحدرت هابطة من المعقد المرتفع ، وانحنت فوقه قليلا ريثما نظرت الى وجهها فى مرآتها الصغيرة المستديرة ، ومرت بصباغ الاحمر فوق شفتيها ، وعندئذ تبين لها أن حالها قد جاوز فى السوء المدى ، فقالت لآدم : « ان بى علة خافية ولا شك ، فانى أشعر بخور ووهن شديدين . وغير ممكن ان يكون سبب ذلك كله حالة الجو أو تأثير ظروف الحرب » .

فقال آدم : « الجو رائع ، والحرب خير مما يخطر بالبال ، ولكن منذ متى انتابك هذا العارض ؟ لقد كنت أمس بخير حال » !

فقالت فى بطء ، وقد بدا صوتها خافتا ضعيفا : « لست أدرى » . ووقفا كعادتهما عند الباب المفتوح المفضى الى الدرج الصاعد الى مكاتب الجريدة . وأنصتت ميراندا لحظة لضجة الآلات الكاتبة من فوقها ، ولهدير المطبعة الدائرة من تحتها ، ثم قالت : « كم أتمنى لو قضينا طول ما بعد الظهر فى رحاب حديقة ، أو فى نزهة بالسيارة الى الجبال » !

فقالت : « وأنا كذلك . فلنفعل هذا غدا » .

فقالت : « نعم ، نفعله غدا ، اللهم الا اذا جد حائل . كم أشتهى أن أهرب من هنا . ليتنا نهرب معا ؟ !

فقال آدم : « معى أنا ؟ حيث أنا ذاهب لا سبيل الى الفرار . وليس أمام المرء سوى الانبطاح على بطنه هنا أو هناك بين الاطلال والاسلاك الشائكة وما الى ذلك ، وسيكون ذلك أمرا لا يتفق وقوعه للمرء مرتين فى حياته » . وسكت يراجع نفسه لحظة ثم استطرد : « لست أعرف شيئا على الاطلاق عن تلك الحياة فى الواقع ، ولكنهم يظهرونها لنا فى صورة منفرة . وقد سمعت الكثير عنها حتى بت أشعر كما لو كنت عائدا من هناك فعلا . وأحسبنى حين أصل الى هناك سأكون كمن رأى كثيرا من الصور عن موضع من المواضع قبل غشيانه ، فلا تكون له عند رؤيته جدة ، ولهذا يخيل الى أننى قضيت حياتى كلها فى الجيش » .

وكان ما قضاه فى الجيش ستة أشهر ، كأنها الابدية ، وكان يبدو رائعا ناضرا ، شأن من لم يعرف فى حياته طعم الالم .

وكانت ميراندا قد عرفت من قبل جنودا عائدين من الميدان ، فلم يكن فيهم من يبدو كما يبدو آدم الآن . فقالت له : « انك تشعر كما لو كانت بطلا عائدا فعلا . حبذا لو صحت الاحلام »

وقال آدم : « عندما علمونى كيف أستخدم السونكى فى معسكر التدريب الاول ، أخرجت أحشاء عدد من حقائب الرمال وزكائب العشب ، لا يعد ولا يحصى . وكانوا لا يفتأون يصيحون بنا : « اضرب . اضرب الألمانى ، أقتله قبل أن يقتلك » . فكنا نهجم على تلك الغرائر كالاعصار . ولا أكتمك اننى كنت اشعر أحيانا بالبلاهة والخزى من مراجل حماستى الفائزة حين أرى الرمال وقد تدفقت من مكانها ، وكثيرا ما كنت آرق فى جوف الليل ضيقا ببلاهتى تلك » !

فقالت ميراندا : « انى أتصور هذا الذى تقول ، وهو حقا هذر فارغ » !

وتلكآ يماريان لحظة الفراق . وران الصمت برهة ، ثم قال آدم كمن يستأنف الحديث : « أتدرين ما متوسط حظ الانسان من الحياة اذا أصيب فى التحام بالحراب (السونكى) ؟ »

– « فترة وجيزة فيما أظن !

فقال آدم : تسع دقائق لا تريد . فقد قرأت ذلك فى صحيفتك منذ أقل من أسبوع » .

فقالت ميراندا : اجعلها عشرا آتى معك !

فقال آدم : « لا أزيدها ثانية واحدة ، هى تسع دقائق بالضبط ... أتقبلين أم تحجمين؟ »

فقالت ميراندا « كفى هذرا . من الذى ادعى ذلك ؟ »

– غير محارب من هؤلاء المقعدين المصابين بكساح الاطفال !

وبدا لهما ذلك مضحكا ، فتضاحكا وتمايلا ، وسمعت ميراندا صوت ضحكها يدوى عاليا صارخا ، فمسحت الدمع الذى ترقرق فى عينيها ، ثم قالت : « يا له من حرب مضحكة ،

أليس كذلك ! اننى أضحك كلما فكرت فيها » ...

فتناول آدم يدها بين يديه ،وأخذ يجذب أطراف قفازها رويدا ، ثم تنسمها وقال : « ماأطيب ريحك ، وما أكثره ، فانى أحب الاكثار من العطر فى القفاز والشعر » .

فقالت : « ربما أكون قد أفرطت ، فانى لا طاقة لى اليوم باحساسات الشم والرؤية والسماع ، ولا بد أن بى بردا شديدا ؟ » .

فقال آدم : « اياك والبرد ،فقدأوشكت أجازتى على الانقضاء ، وهى أجازتى الاخيرة التى لا أمل فى اجازة بعدها » .

وحركت أصابعها فى قفازهاوهو يجذب أطرافه ثم يقلب يديها كأنهما شىء ثمين جدا ولاعهد له به من قبل ، وأخجلها ذلك فسكتت فقد كان يروق لها.. كان يروق لها ولا زيادة . ولكن لم يكن هناك جدوى من تخيل زيادة فوق ذلك، لانه لم يكن لها ولا لأى امرأة ، فهو ولامراء منذور للموت لغير ذنب جناه ، وعى غير علم بماكتب له... واستردت يديها ثم قالت مودعة : « الى اللقاء هذا المساء » .

وأسرعت تصعد الدرج ، ثم التفتت اليه عندما بلغت القمة ، فاذا به واقف يرقبها ، فرفع يده دون ابتسام ، ولم تكن ميراندا ألفت أن ترى أحدا يلتفت وراءه بعد تحية الوداع ، أما هى فلم تكن تملك نفسها من الالتفات أحيانا كى تصيب لمحة أخرى من الانسان الذى كانت تتحدث اليه ، كأنما يجرى ذلك فى تجنيب ماكان بينهما من صلة خشونة فراق قاطع .ولكن الناس ماكانوا يسلمون حتى ينصرفون سراعا وقد تغيرت سحن وجوههم وتشكلت بما يعدون أنفسهم له من لقاء جديد أو عمل يستغرق تفكيرهم التمهيد له .

أما آدم فهاهو ذا واقف كأنه يتوقع أن تلتفت اليه أو تعود ، وكانت عيناه من تحت حاجبية المتوترين حالكتى السواد .

وجلست الى مكتبها بغير أن تخلع سترتها أو قبعتها الصغيرة ، وراحت تفض الخطابات وتتظاهر بقراءتها . وكان الجالسان فوق مكتبها هذه المرة هما تشاك رونسيفال محرر الرياضة ، و«مدن» وكانت تحب محضرهما وجلوسهما فوق مكتبها ، فهى تجلس فوق

مكتبهما كلما طاب لها ذلك. وكانا يتكلمان عندما دخلت ، واستمرا فى حديثهما ، وقالت « مدن » : « يقولون أن الوباء نجم عن جراثيم حملتها سفينة ألمانية الى بوسطن، وكانت متنكرة طبعا ، فلم تحضر رافعة علم دولتها الحقيقى . أليس هذا سخفا ؟ »

فقال تشاك : « ولعلها كانت غواصة تسللت من قاع اليم فى جوف الليل . فهذا أقرب للعقل ؟»

فقالت « مدن » : «فعلا . ولكن الناس يفضلون دائما اتقان هذه التفاصيل . . والمظنون أن الجراثيم انتشرت فى المدينة ، وقد بدأت كما تعلم فى بوسطن ، وذكر بعضهم انه رأى بعينيه سحابة غريبة غليظة دهنية المنظر تحلق فوق ميناء بوسطن ثم تنتشر ببطء فوق طرف المدينة ، وأعتقد ان التى رأت هذه السحابة امرأة عجوز »

فقال تشاك : « ذلك ماينبغى»

فقالت مدن : « لقد قرأت ذلك فى صحيفة نيويوركية ، فلا بد اذن أنه صحيح » .

وعندئذ ضحك تشاك وميراندا بصوت عال جدا ، فوقف بيل وحدق فيهما ،فقال تشاك موضحا: « مدن لاتزال تقرأ الصحف حتى الآن ! »

فسأله بيل وهو يعود الى مقعده مقطبا فى الاوراق المكدسة أمامه: « وما المضحك فى هذا ؟ »

وقالت ميراندا : « ان الذى رأى هذه السحابة غير محارب »

فقالت مدن : « طبعا »

فقالت ميراندا : « ولعله أن يكون عضوا فى لجنة المجهود الحربى»!

وتمنيت ميراندا لو كفت عن السماع والكلام كى تخلص لذات نفسها خمس دقائق ، فتفكر فى آدم تفكيرا بمعنى الكلمة . ولكن لم يكن لديها فسحة من الوقت . فقد عرفته منذ عشرة أيام، ومنذ ذلك اليوم وهما يعبران الشوارع معا، ويتواثبان مارقين بين سيارات النقل والركوب وعربات اليد وعربات المزارع ، وكان ينتظرها عند أبواب الدور، وفى مطعم صغير تفوح منه رائحة دهن القلى القديم، وأكلا ورقصا على نغمات الجاز التى تتراوح بين الانين والنهيق، وجلسا

فى مسارح ثقيلة الظل، لان ميراندا كان عليها أن تكتب شيئا عن الرواية التى تمثل فيها . وذهبا ذات مرة معا الى الجبـــال ، وهناك تركا السيارة وتسلقا طريقا صخريا ، الى بسطة من الارض فوق صخرة مستوية ، فجلسا هنـــاك وراحا يشاهدان اختلاف الاضواء فى ذلك الوادى الذى كان على حـــد قول ميراندا ذا منظـــر وراء الواقع ،

« ولكن ماحاجتنا الى تصديقه، فحسبنا أنه شعر بديع »

وتساند كتفاهما فى تلك الجلسة الهادئة الســـاكنة ، وأخلدا الى انسراح البصر ، وكانا فى يومين من أيام الاحد قد ذهبا الى المتحف الجيولوجى ، وتقاسما الاستمتاع بروعة ما فيه من النيازك، وتركيبات الصخور ، والانيـــاب المتحجرة ، وحفريات الاشـــجار ، والقسى الهندية ، ونماذج من عروق الذهب والفضة . وكان آدم يقول لها : « تصورى هؤلاء المعدنين القدامى وقد جلسوا الى جانب المجـــرى يستخرجون فى قدور صـــغيرة أسباب الثراء ، وفى باطن الارض تكمن هذه العروق . » وذكر لها أنه يفضل كثيرا تلك الاشياء التى يستغرق تكونها زمنا طويلا . كما كان يحب الطائرات وكل ما هو آلى ومحفورات الخشب والصخر . ولم يكن يدرى الكثير عن هذه الاشياء، ولكنه يعرفها بالنظر . واعترف لها انه لم يكن يطيق أن يتم كتابا أيا كان نوعه، اللهم الا ما يختص بصناعة الهندسة . فالقراءة تسئمه وتضنيه . وشـــد ما ندم لانه لم يحضر عربته القوية المكشوفة ذات المقعد الواحد ، ولكن لم يكن يجول بخاطره أنه سوف يحتاج اليها . لقد كان يحب قيادة السيارات ، وكان لايطمع فى أن تصدق كم من مئات الاميال يقدر على قطعها فى اليوم الواحد . وقد أطلعها على صور شـــمسية له أمام عـــجلة القيادة ، وفى زورقه ، وقد بدا فى جميع الزوايا طلق المحيا متفجرا بالسرور . وكان يزهيه أن ينضم الى سلاح الطيران ، لولا أن والدته كانت تثور وتهتاج كلما أشار الى هذا الموضوع ، فقد كانت فيمـــا يبدو لاتتصور أن القتال المحتدم فى الجو أســـلم عقبى من الالتحام بالحراب ليـــلا على وجه الارض . ولكنه لم يناقشها ، لانها كانت بطبيعة الحال تجهل ما هو الاشتباك بالحراب فى الخنـــادق . وها هو الآن جالس فوق هضبة ارتفاعها ميـــل ، ولاماء فيهـــا يمخره الزورق ، وأما سيارته ففى موطنه البعيد ، ولولا هذا لاستمتع بوقت طيب ، وأدركت ميراندا أنه كان

يحتال بذلك على أن يقول لها أى انسان هو ووسائله الآلية تحت يده ،وشعرت انها تعرف يقيناأى انسان هو ، ووددت لو تقول له انه اذا كان يظن أنه ترك نفسه فى موطنه فى زورق أو سيارة ،فشد ماأمعن فى الخطأ .

وكانت التليفونات ترن، وكان بيل يصيح متحدثا الى شخص كان لايفتأ يقول « اسمع فقط ، فقط اسمع .. » ولكن مامن أحد كان يريد أن يسمع بطبيعة الحال .أما الشيخ جيبونز فكان يخور صائحا فى يأس : « ياجورج . جورج »

وكانت « مدن » تقول بصوت يفيض وطنية ورقة : « ومع ذلك فان مشروع الاكواخ فكرة بديعة،وينبغى أن نتطوع فيه جميعا حتى ولولم يكونوا بحاجة الينا . »فقالت ميراندا فى نفسها ان مدن تحسن التمويه ، وتذكرت ذلك الصدار الوردى ووجهها المحتقن الساخط المتمرد فى حجرة الملابس. أما الآن فمدن تفيض طلعتها طيبة وتمجيدا ورغبة فى تضحية نفسها فى سبيل وطنها .وهاهى تقول : « اننى على كل حال أستطيع ان أغنى وأرقص فى مستوى مقبول فى المسرح الصغير ، وأستطيع أيضا ان أكتب لهم خطاباتهم ،كما أستطيع عند الحاجة ان أقود سيارة اسعاف ، فقد قدت سيارة من طراز فورد عدة سنوات »

وعندئذ قالت ميراندا : وأنا أيضا أستطيع ان أرقص وأغنى ، ولكن من التى تفرش الاسرة وتمسح الارض ؟ ان هذه الاكواخ ليس من السهل ادارتها ، وستتراكم الاقذار ويستولى علينا الشقاء ، ولما كنت قائمة فعلا بعمل شاق قذر ، وشعورى بالشقاء تام ، فقد قررت البقاء حيث أنا » .

فقال تشاك رونسيفال : « أعتقد أنه يجب على النساء أن يبتعدن عن أعمال الميدان .فانهن لا يخففن بل يزدن العبء الفظيع فداحة بجر ذيولهن » .

وكان تشاك يشكو من علة فى رئتيه ويسوؤه كثيرا فوات فرصة تلك الحرب ، فكان يقول :« كنت حريا أن أكون الآن قد عدت بعد أن طارت عنى ساق من ساقى ، وكان ذلك خليقا أن يجدى على أبى ، فكان أما أن يشترى خمرة لنفسه ، أو يقلع

عن الشراب . » ! وكانت ميرانداقد رأت تشاك يوم صرف الاجور يعطى أباه الشيخ مالا ليشترى الخمر ، وكان رجلا خيف الظل متملقا خبا ، وكان هذا أسوأ مافيه ، فقد كان يدق ظهر ولده براحة يده ، ويهش فى وجهـــه بعينين يغشيهمادمع الحنان الابوى وهو يستنزفه آخر درهم .

واستطرد تشاك قائلا : « ان فلورنس نايتنجيـل هى التى أفسدت الحروب فأى جدوى وراء تدليل الجنود وتضميد جراحهم وترطيب جبـــاههم المحمومة ؟ليست هذه حربا ، فليتركوهم يموتون حيث يسقطون ، فقـدذهبوا الى هناك لذلك » ..

فقالت مدن وهى ترشقه بنظرة ناعسة : « ما أسهل الكلام » فتضرج وجهه وتقوست كتفـاه وهو يجيبها : « ماذا يجـــولُ بذهنك ؟ قد علمت انه لولا رئتى وما بها ... »

فقالت مدن : « أنت أشد حساسة مما ينبغى ، فأنا لم أقصد شيئا . »

وكان بيل يرغى ويزيد ، ماضـــغا سيجاره الذى استهلك نصفه بالتدخين ، وقد قف شعررأسه كالفرشاة ورفت عينـــاه الدعجـــــاوان بوميض الغضب كأنهما عينا وعل ، وحدثت ميراندا نفســها أنه لا يمكن وان عاش قرنا كاملا أن يبدو أسن ممن فى الرابعة عشرة من عمرهم ، ولكنه لن يعمـر قرنا اذا اســتمر على هذه الوتيرة ، فقـد كان يسـلك سلوك محررى الشـئون المـالية فى الصور المتحركة بحـذافيره ، حتى فى مضغ السيجار يأسنانه . فهل هو الذى ينسج على منوال الافلام أم أن كتاب السيناريو قد اتخذوا بيل نموذجا كاملا لهم ؟

وصاح بيل يقول لتشـاك : « واذا عاد الى هنا فخذه الى الزقاق واخنقه بيديك ! » .

فقال تشاك : « اطمئن ، فانه عائد » .

فقال بيـل فى لين وقد اتجه فكره فعلا وجهـة أخرى : « اذن تخنقه »

وذهبت مدن الى مكتبها ، أما تشـاك فظل جالسـا ينتظر فى

دماثة أن تأخذه ميراندا لمشاهدة الملهاة الجديدة ، فان لها تذكرتين باستمرار فى كل مسرح، وتعودت أن تدعو أحد المخبرين للذهاب معها يوم الاثنين . وتشاك محرر رياضى متمكن من حرفته ، ولكنه كان قد قال لميراندا أنه لايكترث للرياضة ، لولا أنها تكفل له المكث فى العراء وتمده بمايشترى به الخمر لابيه ، ولكنه يفضل الملاهى ولا يدرى لماذا تظفر النساء دائما بذلك الباب .

وسألته ميراندا : « من الذى يريد بيل أن يخنق اليوم ؟ »

فقال تشاك : « انه الراقص المحترف الذى سلقته بلسانك فى عدد اليوم ، فقد حضر فى ساعة مبكرة للسؤال عن الشخص الذى يحرر باب الملاهى . وأقسم أن يأخذ ذلك الكاتب الغر الى آخر الزقاق حيث يهشم أنفه » .

فقالت ميراندا : « أتمنى أن يكون قد غادر المدينة » .

فوقف تشاك وراح يسوى صداره البنى اللون المتموج ، ثم ألقى نظرة على حلته وحذائه اللامع ، راجيا أن تكون هذه المظاهر قد أفلحت فى ستر حقيقته ، تلك الحقيقة التى تتمثل فى سوء حال رئته وعدم اكتراثه بالرياضة ، ثم قال : « لقد ابتعد الآن كثيرا عنا ، فلا تقلقى . ولنستعد للذهاب ، فقد تأخرت كما هى عادتك » .

واذ وقفت ميراندا أوشكت أن تطأ قدم رجل قصير أسمر اللون يرتدى فوق رأسه قبعة من طراز دربى . وربما كان مليح الشكل ذات يوم ، أما الآن ففمه غائر لسقوط أسنانه الجانبية ، وكذلك أقلعت عيناه بجفونهما الحمراء عما كانتا تشتغلان به يوما ما من الدلال والغزل . وفوق هامته خصلة بنية اللون هزيلة من شعر مموه بالبريانتين ، يتلوى طرفها حول حافة القبعة .

ولم يحرك قدميه ، بل وقف كالمزروع فى شىء من المقاومة الذاتية الجامدة ، وسأل ميراندا : « هل أنت الناقد الفنى المزعوم فى هذه الوريقة الصفراء ؟ »

فقالت ميراندا : « أخشى أن أكون أنا » .

فقال الرجل القصير : « اذن أطلب منك دقيقة واحدة من وقتك الثمين » . . وبرزت شفته السفلى ، ثم دس يديه المرتجفتين فى جيوب

صداره واستطرد : « لاننى أكره أن أدعك تنجين بما كتبت » . وأخرج مجموعة من قصاصات الصحف يضمها مشبك ، وقال وهو يقدمها اليها : « أنظرى فى هذه القصاصات ، ثم اسمحى لى أن أسألك : هل تظنين أننى أقف مكتوف اليدين أمام هجمات ناقد ريفى . أنظرى ، هذه صحف بفلو ، وهذه شيكاغو ، وهذه سانت لويس ، وهذه فيلادلفيا ، وهذه فريسكو ، فضلا عن نيويورك . وكلها صحف هى خير ما تتداوله الايدى ، وقد اعترف الجميع بأن دانى ديكرسون يتقن فنه . فهل لا تظنين ذلك أنت ؟ هذا ما أريد أن أسألك عنه » .

فقالت ميراندا بأبرد ما تستطيع : « كلا ! ولا وقت عندى للمناقشة فى هذا الموضوع » .

فمال الرجل القصير مقتربا منها ، وارتعد صوته كمن يغالب أعصابه منذ مدة طويلة ، وقال : « وما الذى لا يعجبك منى ؟ خبرينى »

فقالت ميراندا : « لا ينبغى أن تكثرت لما اكتب ، فأى أهمية لرأيى ؟ .

فقال الرجل القصير : « ليس رأيك هو الذى يعنينى . ولكن هذه الاشياء تتناقل . ووكلاء العقود فى الشرق لا يعرفون شيئا عما يجرى هنا . فاذا سلقنا النقاد فى بلدان الريف ظنوا أن لذلك من الاهمية قدر ما لهجمات النقاد فى شيكاغو مثلا . فهم لا يدركون الفرق ، ولا يعلمون أنه كلما ارتفعت طبقة الممثل زاد تحامل النقاد الاجلاف عليه ، ولكنى رجل اعتبره أعلام صناعة النقد علما فى فن الرقص ، وأريد أن أعرف الآن ما الذى تعيبينه على ؟ »

وعندئذ قال تشاك : « هيا بنا يا ميراندا فقد أوشك الستار أن يرتفع » . فأعادت ميراندا القصاصات الى الرجل ، وكان معظمها يرجع تاريخه الى عشر سنين ، وحاولت أن تمر بجواره الى الباب ، فأعترض طريقها ثم قال بهمة فاتره : « لو أنك كنت رجلا لأطرت رأسك » . فنهض تشاك عندئذ منتصبا ثم أخرج يديه من جيوبه وقال : « أما وقد أنشدت أغنيتك وأديت رقصتك

فخير لك أن تنصرف . واخرج فورا قبل أن أقذف بك من أعلى السلالم » .

فعبث الرجل القصير برباط عنقه الازرق المرقش بنقط مستديرة حمراء ، وقد مسه البلى عند عقدته ، وجذبه فأرخاه ثم قال كأنه يلقى محفوظة ، وقد اغرورقت عيناه الحمراوان المتورمتان بالدمع : « تعال معى الى الزقاق »

فقال له تشاك : « اخرس » ، ثم تبع ميراندا التى كانت تهبط السلم جريا ، فأدركها على الطوار ، فقالت : « ما أكثر ضروب المنغصات فى الحياة فى الوقت الحاضر ، وكم أتمنى أن أجلس عند هذا المنعطف يا تشاك وأموت ، حتى لا أرى أحدا ... كم أتمنى أن أفقد الذاكرة وأنسى اسمى ... كم أتمنى ... »

فقال تشاك : « تجلدى يا ميراندا . فليس هذا وقت التداعى . وانسى هذا المخلوق ، فأمثاله تسعة وتسعون فى المائة من أهل صناعة الملاهى ، ولكنك لاتحسنين التصرف فيما أرى فتجرين على نفسك المتاعب . فكل ما عليك ألا تكتبى الا عن الممثلين الاول ، أما المشتركون فى الاداء فلاتشيرى اليهم . واذكرى دائما أن ريبنسكى قد احتكر الملاهى فى هذا البلد ، فتحرى رضاءه يرضى عنك قسم الاعلانات فى الجريدة ، واذا رضوا عنك أتتك العلاوة منقادة . وهذا هو سر الاسرار فى الموضوع يا بنيتى الحمقاء . أفلا تعقلين ؟ »

فقالت ميراندا كاليائسة : « أرانى لاأعقل الا الاخطاء »

فقال تشاك بمرح : « أنت كذلك فعلا . بل أنت خير من يفعل هذا فيمن رأيت ، والآن ألا تشعرين بتحسن ؟ »

قال تشاك : « ما أسوأ هذه المسرحية التى دعوتنى لمشاهدتها ، وماذا أنت صانعة الآن بصددها ؟ ولو كنت أنا الذى سأكتب عنها لقلت ... »

فقالت ميراندا : فلتكتب أنت عنها هذه المرة . فانى موطنة نفسى على ترك هذا العمل على كل حال . ولكن لاتخبر أحدا فى الوقت الحاضر »

فقال تشاك : أجادة أنت ؟لقدقضيت حياتى كلها متطلعا الى يوم أغدو فيه ناقدا فنيا مزعوما فى وريقة صفراء . وهذه أول فرصة لى » .

فقالت ميراندا : « انتهزها اذن، فقد تكون فرصتك الاخيرة . » وقالت فى نفسها انها فى مفتتح أمر هو بداية النهاية بوجه من الوجوه ، فلابد أن يحدث لهاشىء فظيع ،ولاحاجة بها الى « أكل العيش » حيث تزمع أن تذهب ،فلتوص بذلك لتشاك ، فان له والدا جليلا يشترى له الخمر ،فليتهم يعطونه هذه الوظيفة . . . أى آدم ، أتمنى ان أراك مرة أخرى قبل أن يصرعنى ذلك الداء الذى يثقل كاهلى ولاأدرى ماهو»؟

ثم وجهت الكلام بصوت مسموع الى تشاك قائلة ، كأنما تصل حديثا كان بينهما من قبل «ليت الحرب وضعت أوزارها ، بل ليتها لم تقع أصلا » !

وأخرج تشاك كراسته وقلمه وانطلق يكتب تعليقه على الرواية، وكان ماقالته ميراندا لاغبار عليه،ولكن كيف تراه قد وقع لديه ؟ انه لم يزد على أن قال وهو منهمك فى الكتابة : « لايعنينى كيف بدأت ولاكيف تنتهى ، فلست من أهلها » وكان كل المرفوضين من الشبان يقولون قوله هذا ،فكلهم كان راغبا فى تلك الحرب ،ولكنهم حرموا منها . ولعل منهم من كان شديد الشوق الى خوضها ،وكانوا جميعا ينظرون شزرا الى النساء اللواتى يتحدثن معهم فى هذا الموضوع ،فتنبىء نظرتهم عن حنق مكبوت لسان حاله يقول: «لاترمينى بالجبن أيتها الانثى المتعطشة للدماء ، فقد عرضت لجمى على الغربان فعزفت عنه ، وشر مافى هذه الحرب أن المتخلفين فى عقر ديارهم لايجدون من يتحدثون اليه ، وان لجنة المجهود الحربى حرية أن تظفر بك اذا لم تلزم جانب الحذر ، فالخبز هو الذى سيكسب الحرب ،والعمل هو الذى سيكسب الحرب ، والسكر هو الذى سيكسب الحرب ، وبذور الخوخ هى التى ستكسب الحرب! هراء ! بل ليس هراء ، فثمت نوع جديد من المتفجرات الشديدة الثمينة يستخرج من نوى الخوخ،ولهذا تبادر ربات البيوت مبتهجات طول موسم عمل المربى حاملات سلالهن الحافلة بنوى الخوخ فيضعنها فى خشوع قربانا على مذبح الوطن المفدى ، وتلك مشغلة

تشعرهن أنهن ذوات نفع ، فمن الخطر أن تترك النساء فارغات تلهو مع الرجال ، فلا مناص لهن من ذلك اذا لم يشغل عقولهن التافهة شاغل عن الفساد . ولذا تذهب أسراب الفتيات ، وهن مهود الغد الطاهرة ، وقد أحاطت بوجوههن الجادة الرائقة هالات من عصائب الصليب الاحمر ، فينصرفن الى طى الضمادات الملتوية طيات لن تصل الى أى مستشفى من مستشفيات الجبهة ، أو يغزلن الصدارات التى لن تدفىء صدر رجل من الرجال ، وبذلك تنحصر خواطرهن الحانية فى الدماء والاوحال التى يخوض الجنود غمراتها ، وفى حفلة الرقص القادمة التى ستقام لضباط سلاح الجو . فالهدوء والسكينة هما اللذان سيكسبان الحرب .

لقد قال تشاك وهو منهمك فى الكتابة : « لست من أهلها المصطلين بنارها » أجل ، ولكن آدم من أهلها وسيصلى بنارها ...

وانزلقت مضطجعة فى مقعدها ، وألقت برأسها فوق سناد الظهر المخملى المثقل بالتراب ، وأغمضت عينيها لحظة خاطفة كأنها عمر كامل ، لتواجه اليقين الجازم المروع بأنه لا غد لآدم ، ولا لها . لا غد . وفتحت عينيها ثم بسطت كفيها ، وراحتهما الى أعلى ، وشخصت ببصرها اليهما كمن تلتمس صورة النسيان أو السلوان .

وقال تشاك وقد أضيئت الانوار وراح النظارة يتحدثون ويتشاورون : « انظرى ماذا كتبت ، فقد فرغت من الموضوع كله ، مع أن البطلة لم تظهر بعد على المسرح .. فهى الممثلة العتيقة « ستيلا مايهيو » ، وهى دائما مجيدة ، وقد حافظت على تفوقها أربعين سنة ، وسوف تغنى الليلة مقطوعة أعرف مفتتحها ، وذلك حسبنا أن نعرفه عنها . والآن ، ألقى نظرة على هذه الكلمات ، وانظرى هل تقبلين توقيعها باسمك ؟ »

وتناولت ميراندا الصفحات فحدقت فيها تحديقا ظاهرا ، وقلبتها وهى تتمنى أن تكون قد فعلت ذلك فى أوان معقول ، ثم أعادتها اليه قائلة : « نعم ياتشاك ، سأوقعها بامضائى . ولكن لا ! يجب أن نخبر بيل أولا انك كتبتها ، لان هذه قد تكون فاتحة عملك فى هذا الباب »

فقال تشاك « لأراك قد وعيت مافيها ، فقد قرأتها على عجل شديد . والآن أقرؤها عليك .. ثم راح يتلوها فى حماسة . وراحت هى تتأمل وجهه وهو يقرأ ، واذا هو وجه رائق ، فيه لون من دفعات الحياة ، وفى خطوط حاجبيه وأنفه صرامة ظاهرة ، وألفت نفسها تتساءل ، لاول مرة منذ عرفت تشاك : ماذا ياترى يدور فى رأسه ، فانه يبدو مهموما غير سعيد ، فهو ليس فارغا خليا كما يتظاهر .

وتكأكأ الناس فى الدهاليز ، وأخرجوا سجائرهم كى يشعلوها متى وصلوا الى الردهة . أما النساء بشعرهن المتموج فكن يحكمن الدثار حول قدودهن . وأما الرجال فراحوا يمدون أذقانهم كى يريحوها من أثر الياقات الصلبة . وقال تشاك :

« يحسن أن نخرج نحن أيضا » فزرت ميراندا سترتها ، ثم دخلت فى زحام الناس وهى تحدث نفسها : ماذا أعلم عنهم ؟ لاشك أن منهم كثيرين يرون رأيى ، ولكن لاسبيل لنا الى التكاشف بمكنون قنوطنا الساخط ، ومثلنا كمثل الحيوانات العجماء تنصاع صامتة للفناء . ولم ؟ وهل فى جميع هؤلاء من يؤمن بصدق مايتبادل الناس من كلام ؟

***

تمطت ميراندا قلقة فوق حرف الاريكة الخيزران فى حجرة الملابس ، جالسة تنتظر أن ينقضى الوقت فتنفرد بآدم . ولكن الوقت كان ينساب بأفانين من الشذوذ تلقى فى روعها أن الثلاثين دقيقة ان هى — لاشراقها — الا لمحة ، وتثقل أحيانا فاذا ثلاث الدقائق من الانتظار وكأنها دهر طويل ، لانها كالمعلقة من ابهاميها قلقا وضيقا .

وأخيرا آن لها أن تتصور آدم خارجا من البيت ، ثم مقبلا فى الطريق اليها وسط ضباب يوشك أن يتكاثف مطرا بعد قليل ، وكانت قد فرغت من التفكير فيه ، اللهم الا الرغبة التى تلح عليها شوقا لرؤياه ، والا الخوف الذى يتوعدها أن سوف لاتراه من بعد .

فكل خطوة يخطوانهـــا متقاربين تبـاعد بينهما ، كما يبعد الجزء بانســـابح عن الشاطىء مهمـابذل فى السباحة اليه من جهد ٠٠ فهى لاتفتأ تحدث نفسها على الرغم منها : « لاأريد ان أحب ٠ ليس آدم ، فليس فى الوقت متسع ،ولسنا متأهبين للحب ٠٠٠ ومع هذا فليس أمامنا غير ذاك ٠٠ »

وهاهوآدم ، أخيرا ، وقدوضع قدمه على أول درجة فى السلم ، فأوشـكت أن تعدو وهى تهبط للقائه ٠ وتناول يديها بـين يديه وسألها : « هل أنت الآن عـــلى مايرام ؟ هل أنت جائعة ؟ هل أنت متعبة ؟ أبك رغبة فى الرقص بعد التمثيل ؟ ٠ »

فقالت ميراندا : « الجواب عن هذه كلها : نعم ، نعم ، نعم ٠ » وكأن رأسهـــا فى خفته ريشة طائر ، فاتكأت على ذراعه ٠ وكان الضباب لايزال كثيفا لم يقطـــر بعد مطرا ٠ ومع ان الهواء كـان خالصا نقيا فى اندفاعه الى فمها ،الا أنها لم تجد لذلك أثرا ملحوظا فى تيسير تنفسها ٠ فقالت له : آمل أن يكون التمثيل جيدا ، أو مسليا على الاقل ٠ ولكنى لاأعدك بشىء » ٠

وكانت الرواية فى الواقع طويلة ، ولـــكن آدم وميراندا قرأ فى مجلسهما مخلدين الى السكينة والهدوء ، وانتظرا فى جلد ختام التمثيل ٠ وفى اناة وجـــد خلع آدم عن يدها قفازها ، ثم تناول تلك اليد فى يده ، وكأنه درج على ذلك من زمن كلما اختلفا الى المسرح ، والتفتا مرة فالتقت أعينهمـا تلك المرة ،وكانت نظرة كليهما صريحة لاموارية فيهـــا ، وعرت ميراندا رجفة فراحت تقاوم ذات نفسها فى اصرار كمن تغـــلق النوافذ والابواب وتحكم الاستار فى وجه عاصفة تتجمع للهبوب ٠ أما آدم فجلس يرقب التمثيلية الملة فى تشابهها ورتابتها ، وقد أشرقت عيناه ببريق ينم عن توفز ، وان شخص وجهه فى صمت وسكينة ٠ فلما ارتفع الستار عن الفصـــل الثالث ، لم يبدأ ذلك الفصل فورا ، بل أرخيت ستارة داخلية تكاد تغطيها الراية الامريكية ،معروضة على الانظار عرضا غير لائق لاينم عن اكتراث ،فقد سمرت أطرافها العليا ،وجمعت من وسطها بمسمار

آخر ،وتهدل سائرها مثقلا بالتراب . ووقف أمام هذه الراية داعية البلدة لجمع التبرعات للمعونة العسكرية ، ولكنه كان فى هذا المقام يقوم بمهمة بيع « سندات الحرية » .وكان رجلا غمر اتجاوز أوسط العمر ،وقد زرت سراويله وصدارة على بطنه كالشمامة المتكورة .. أما فمه المطبق فينم عن ضيق عقل وغرور ، وليس فى سحنته وهيئته الا سطور كتبتها خمسون سنة من تبذل الحواس .. ولكنه وجد اليوم فرصة عمره الفذة كيما يبدو امرءا ذا خطر ، فى موقف ذى أثر ، فراح يتدفق متشدقا بالالفاظ فى غنة تمثيلية . فقال آدم : « انه يبدو كطائر البطريق » ، وتململا فى مقعديهما وابتسما ، ثم استردت ميراندا يدها ، فأطبق آدم يديه ،واستعدا لتجرع ذلك الحديث المعاد الممجوج . وأرادت ميراندا نفسها على الانصات ولكنها لم تع الا كلمات متقطعة عن « هؤلاء الهون الاسافل » و «غابة بللو المجيدة» و «ان كلمة السر هى التضحية» و « بلجيكا الشهيدة ، و «أبناؤنا الميامين الذين يقاتلون هناك » و « مدافع برتا الكبيرة » و « فناء الحضارة » وما الى ذلك ... وهمست ميراندا قائلة : « بى صداع . فلماذا بالله لا يصمت » فأجابها هامسا : « لن يسكت ... ستأتيك باسبيرين » ... وجلجل صوت الخطيب : « فى ربوع الفلاندر ينمو الخشخاش بين الصلبان المتزاحمة صفا صفا .. » وقال آدم هامسا : «لقد أخذ فى المبالغات المعهودة» ... وتدور تلك المبالغات حول فظاعات الالمان ، فالاطفال الابرياء تخترمهم أسنة الرماح .. أطفالى وأطفالك .. واذا كان أطفالنا قد نجوا من ذلك المصير ، فلنذكر فى اجلال ان الفضل فى ذلك لمن لم يموتوا عبثا .. فالحرب هى التى تضع حد اللحرب .. الحرب فى سبيل الديموقراطية والانسانية وعالم آمن الى أبد الابيد . وكيما ندلل لنا وللعالم على ايماننا بالديموقراطية ، فلنتضامن فى شراء سندات الحرية ، ولنستغن عن السكر وجوارب الصوف ..

وتساءلت ميراندا بينها وبين نفسها كمن تحدث ذلك الخطيب: « أهذا كل شىء ؟ أعد ، فانى لم أفطن الى السطر الاخير . هل ذكرت آدم ؟ اذا لم تكن قد ذكرته فكلامك لا يثير اهتمامى . ماذا

عن آدم أيها الخنزير القمىء ؟وماذا سننشد هذه المرة !
(تبرارى) أم (ان الطريق طويل ٠٠ طويل) ؟ ألا دع
التمثيلية تجرى فى اعنتها حتى نفرغ منها ، فلابد لى من كتابة
شىء عنها قبل ان امضى للرقص مع آدم ، وليس لدينا منفسح من
الوقت ٠٠٠ والفحم ، والزيت ، والحديد ، والذهب ، والاقتصاد
الدولى ، لماذا لا تحدثنا عنها جميعا ايها الكذيذبان ؟

ونهض المشاهدون وأنشدوا «ان الطريق طويل ، طويل ٠٠»
فكانوا يفغرون أفواها سوداء فى وجوه تبدو مربدة فى
ضوء خشبة المسرح الضئيل ٠وكانت بعض الوجوه متغيرة
باكية قد شقت العبرات على صفحتها مجارى متعرجة ٠ وقد
اشترك آدم وميراندا فى الانشاد بأعلى صوتيهما ، وتبادلا الابتسام
خلسة وعلى استحياء مرة أو مرتين !!

وفى الطريق أشعلا سيجارتين ثم سارا على مهل كعادتهما ،
وقالت ميراندا بصوت خافت : « وهذا شيخ كريه آخر يلذ له
أن يرى الشبان صرعى ٠٠ كما يقبل ذكران القطط على افتراس
صغار الذكور منها ، ولا أحسب تضليلهم ينطلى عليك يا آدم ٠٠ »

وكذلك كان قد أمسى حديث الشابين عن تلك المسألة ، فقد
باتا يعتقدان أنهما استشفا كنه تلك الالعوبة الخادعة ،فاستطردت
قائلة : « وانى أكره هؤلاء الناس ،فان لهم بطونا كالقدور ، ورؤوسا
صلعاء ، وقد قعدت بهم آفات السن والبدانة والجبن عن خوض
غمرات الحرب بأنفسهم ، فأيقنوا بالنجاة ، ثم راحوا يدفعون بكم
اليها ٠٠»

ونظر اليها آدم نظرة عجب صادق وقال : « أعن هذا الشخص
تتكلمين ؟ وماذا كان هذا الغرعسيا أن يصنع لو أنهم جندوه ؟
وليس الذنب ذنبه ، فليس يسعه أن يحسن غير الكلام ٠ »

وكانت خيلاؤه بشبابه وترفعه وسماحته وازدرائه لذلك المخلوق
العاثر الجد تكاد تطفر من اديم اهابه ، وهو يخطر الى جوارها
منتصب القامة فى اطمئنان العافية ويقول : « وماذا عسى
أن تنتظرى من مثله ياميراندا ؟ »

وكانت هى تكثر من ترديداسمه حين تكلمه ، أما هو فكان لايتفوه باسمها الا نزرا ، فكانلوقع اسمها من بين شفتيه رجفة يسيرة مستعذبة ،سرت فىجسدهافشلت لسانها عن الجواب ، فسكتت لحظة كالمترددةثم استنتخطة جديدة للهجوم ، قالت : « يا آدم ، ان أسوأ مافى الحربهو هذا الخوف والارتياب والفزع التى تطل عليك من عين كل منتلقاهم ، وكأنهم قد أسدلوا الاستار وأغلقوا منافذ عقولهموقلوبهم ، وراحوا يتلصصون عليك على أهبة الانقضاض ، اذابدرت منك أول بادرة ، أو تفوهت بأول كلمة لايحسنونفهمها على الفور، ان ذلك يفزعنى، ولهذا أعيش فى خوف ، ولاينبغى أن يعيش أحد فى خوف ، الا أن تلك المواراة والتقيةوالكذب وسائر ماتنزله الحرب بالعقل والقلب لهى شر من كل ماتنزله بالابدان » .

فقال آدم بعد برهة وفى أناةواتزان : « أجل ، صدقت ولكن ماذا تقولين اذا عاد المرء من الحربصحيحا معافى ؟ فالعقل والقلب قد يقال عثارهما ، أما اذا وقعالمحذور لذلك الهيكل البشرى الضعيف ، فذلك هو سوء الطالعولا زيادة » .

فقالت ميراندا تقلده مسخفةقوله : « طبعا ، هو سوء الطالع ولا زيادة » فقال آدم بكل يقين :« لو لم أذهب لخجلت من نفسى أيما خجل » .

هذا اذن هو فصل الخطاب .فمشت ميراندا وقد تشبثت أناملها بذراعه صامتة تفكر فيه .كلا ، لم يكن آدم ينطوى على حقد أو تمرد ، فهو طاهر ، على حدتفكيرها فيه عندئذ ، مستقيم بلا عيب ولا نقصان ، كما ينبغىلكبش الفداء أن يكون !! وكان كبش الفداء يمشى الى جوارهاعلى مهل ، وقد وفق بين خطوته الطويلة وخطوتها ، وجعلها الىداخل الطوار على النمطالامريكى القويم ، وكان يأخذ بيدها عندمعابر الطرق كأنها قعيدة ، حتى لقد قالت فى نفسها : « عسى ألاتعترض طريقنا حمأة طين ، والا فانه قمين أن يحملنى لعبورهاحملا » . وكان ينفث الدخان من غليونه ،وتفوح منه رائحة صابونخال من العطر ، وريح جلد نظيف

لامع وبشرة حديثة عهد بماءالاستحمام، أما تنفسه فمن أنفه ، وأما صدره فبارز ٠٠ ورفع رأسه الى السماء التى لم تزل ملبدة تنذر بالمطر ثم قال :ويالهامن ليلة! أليس يسعك أن تتعجلى الانتهاء من مقالتك حتى نرقص ؟ »

وانتظرها وبين يديه قدح من القهوة فى مطعم مجاور للمطبعة يطلقون عليه تفكها اسم « الملعقة القذرة » ٠ فلما عادت أخيرا وقد غسلت وجهها ومشطت شعرها ووضعت الذرور ، رأته قبل أن يراها ، فاذا هو جالس قريبا من النافذة الكبيرة المغبرة من أثر الضباب ، ووجهه الى الشارع ولكنه كان مطرقا ٠ وكان وجهه عجيبا فى نعومته ولطافته ، يبدو ذهبيا فى الضوء الخافت ، بيد أنه غارق هذه الساعة فى وجوم أعمى ، فنظرته تفيض بالقلق الممض وخيبة الآمال ٠ وقد لمحت ذلك فى نظرة خاطفة ، رأته فيها على الصورة التى سيبدو بها حين يتقدم فى السن ، فى تلك السن التى لن يعمر حتى يبلغها ٠ ورآها هو عندئذ فنهض وقد ارتد الى طلعته بهاء اشراقها !

وجاور آدم بين مقعديهما أمام المنضدة الصغيرة التى جلسا اليها وشربا شايا ساخنا ،واستمعا للفرقة الموسيقية وهى تعزف لحن الجاز الذى مطلعه :« احزم متاعبك » فيردد حفنة من الصبيان دون سن الاقتراع كانوا محلقين حول منضدة قريبة من الفرقة الموسيقية : « فى حقيبة قديمة ، وابتسم ابتسم ابتسم » وكان انشادهم غير متناسق ،ولكنهم كانوا يضحكون ضحكا عاصفا عصبيا ظاهره المرح ،ويتخالسون من تحت غطاء المائدة قوارير بطحاء فيها سائل رائق ! ففى تلك المدينة الغربية التى أسسها وأنشأها المعدنون السكيرون المعربدون ، ما كان ليسمح لاحد أن يشرب الخمر جهارا ، ثم يسكبون منها فى أقداح أشربتهم الحلال، ثم يضجون بعد ذلك منشدين « ما أبعد الشقة الى بلد المحبوب ؟

فلما عزفت الموسيقى لحن « مادلون » قال آدم : «لنرقص »وكان المكان صغيرا مبهرجا مكتظا حار الهواء بالانفاس معبقا بالدخان ، ولكن لم يكن هناك محل خير منه ٠ فالموسيقى فيه طروب ،

ثم أن الحياة – على حد تفكير ميراندا في تلك اللحظة – رعناء حيثما كانت ، فما وجه الاهمية اذن للمكان ؟ هذا ما في يد آدم ويدي ، وهو كل ماتيسر لنا ، فتلك قسمتنا .

وهمت أن تقول له : « أنفض عنك أحلامك يا آدم واصغ الى ، اني أحس ألما في صدري ورأسي وقلبي . أحس آلاما حقيقية تغمرني من الرأس الى القدم .. وأنت في خطر ماحق لاقبل لي بتصوره أو التفكير فيه ، فلماذا لاينقذ كل منا صاحبه ؟ »

ولما أحكمت ذراعها حول عاتقه أحكم ذراعه فورا حول خاصرتها ، ولبثا كذلك متضامين ضما وثيقا . ولم ينطقا ، ولكنهما كانا يبتسمان مليا ابتساما متفاوتا كأنما قد أنشآ لنفسيهما لغة جديدة .

ولمحت ميراندا ، اذ وجهها قريب من كتف آدم ، فتى وفتاة أسمري اللون في ركن القاعة ، وقد جلسا متخاصرين وتقارب رأساهما ، وشخص بصراهما الى شيء واحد ، أيا كان ذلك الشيء الذي يترنح في الفضاء أمامهما . أما يدها اليمنى فكانت مستقرة على المائدة ومن فوقها يده ، وقد لطخ النحيب سحنتها . وكان يرفع يدها بين الحين والحين فيلثمها ثم يرخيها محتفظا بها في يده ، فتفيض بالدمع عيناها . وما كانا مجردين عن الحياء ، وانما هما قد نسيا الزمان والمكان ، أو لعله لم يكن لهما موضع يلوذان به سوى هذا المكان ، ولم ينبسا ببنت شفة . وتكرر هذا الاداء الصامت ، فما كان ينتهي الا ليبدأ كرة أخرى ، فكأنه شريط سينمائي قصير قابض أخطأت يد المدير فراحت تعرضه تباعا بغير تبديل أو تحوير .

وغبطتهما ميراندا .. أجل غبطت هذه الفتاة ، فانها تملك البكاء ، لو ينفع البكاء ، وليس صاحبها بحاجة الى سؤالها مابك .

وكان أمامهما قدحان من القهوة ، ولبث القدحان ردحا طويلا رقصت فيه ميراندا وآدم واستراحا نوبتين ، حتى اذا بردت القهوة لطول ما أغفلاها ، شرباها جرعة واحدة على عجل بالغ ثم اعتنقا من جديد بغير لفظ يند عن شفتيهما ، وبغير نظرة الا اللمح اليسير . ان بينهما أمرا قد بلغ تمامه وقر بينهما على قرار . وتلك نعمى تغبطهما عليها ، فذلك أتاح لهما أن يجلسا كذلك

ساكنين جنبا الى جنب ، وقد انطبع على وجهيهما تعبير واحد ، ولئن شخصا ببصرهما الى جحيم واحد ، فهو جحيمهما معا ، شركة فيما بينهما ، فليس لنوع هذا الجحيم خطر يذكر ، ماداما فيه قسيمين على السواء، وبغير افتراق .

أما أقرب الموائد الى مائدة آدم وميراندا ، فقد اتكأت فوقها شابة بمرفقها ، تقص على صاحبها الشاب قصة : « ولست أميل اليه لغفلة فيه . فقد لبث يسألني أن أشرب شيئا ، ولبثت أجيبه اننى لاأحتسى الخمر ، فشدد على قائلا انه لابد أن يشرب ، وانه لايليق بى ألا أشرب معه ، لانه لايجسر على أن يشرب وحده . وعندئذ قلت له أنت أولا لست وحدك ، فاذا كنت راغبا فى الشراب فاشرب ولاترغمنى على مالاأريد . فنادى الساقى وطلب منه (جنجرايل) وقدحين ، فشربته كعادتى صرفا، أماهو فدس فيه شيئا من الخمر، وكانت خمرا يعتز بها كثيرا ، ويزعم انه يستخرجها بنفسه من البطاطس ، فهى على قوله طازجة من الانبيق ، وراح يستحثنى أن أضع فى قدحى ثلاث نقط تنعشنى ولكنى أبيت قائلة له : اننى حين أقول لا ، فانى أعنيها . أفلا تفهم ! فتناول كأسا أخرى وقال لى : دعى العناد ياملكية واشربى كى ينشط بدنك للرقص الفائر . فأضجرتنى تلك المناقشة، وضقت بها ذرعا ، وقلت له : انه لا حاجة بى الى خمر كى أرقص الرقص الفائر ، فانه يكفينى الشاى كى أرقص ذلك الرقص، . فقال لى : ولماذا اذن لاتقومين الآن فترقصين . . فقلت له . .»

***

وكانت تدرى انها قد سلخت فى النوم وقتا طويلا حين فوجئت، دون نذير من وقع الخطى أو صرير الباب ، بدخول آدم الحجرة واضاءته النور ، وكانت تدرى أنه هو ، مع أنها عشيت أمام الضوء لاول وهلة ، فأشاحت بوجهها عن سبيله ، فأقبل من فوره وجلس على حرف الفراش ،وأخذ يتكلم كمن يستأنف حديثا جرى بينهما من قبل ، ثم كور فى يده رقعة من الورق مربعة الشكل وألقى بها الى نار المدفأة وهو يقول : « لم تبلغك رقعتى، وكنت قد تركتها تحت الباب ،فقد دعيت الى المعسكر فجأة لاتلقى شحنات من التطعيم الوقائى ، ثم احتجزونى مدة أطول مما

احتسبت ، فتأخرت ولما اتصلت بادارة الصحيفة تليفونيا ، قالوا لى أنك لن تحضرى الى العمل اليوم ، فاتصلت بالآنسة هوب هنا ، فأنبأتنى انك ملازمة الفراش ولاتستطيعين القيام الى التليفون . فهل أبلغتك رسالتى ؟ »

فقالت ميراندا وهى وسنانة : « كلا . ولكن أحسبنى ظللت نائمة طول النهار ، بل تذكرت الآن ، لقد كان هاهنا طبيب بعث به بيل ، وقد توجهت الى التليفون مرة واحدة ، قال لى فيها بيل انه سيبعث بنقالة تحملنى الى المستشفى . وقد طرق الطبيب صدرى بأنامله ، ثم كتب وصفة العلاج وتركها وانصرف واعدا بالعودة ، ولكنه لم يعد » .

فسألها آدم : « وأين هى ؟ أين وصفة العلاج ؟ »

ـ « لست أدرى . ولكنه تركها ، فقد رأيته بعينى » .

فدار آدم فى الحجرة يفتش عنها على المناضد ورف الموقد ، الى أن عثر بها فقال « هاهى ذى ، وسأعود بعد دقائق معدودات ، وينبغى أن أبحث عن صيدلية ليلية ، فالساعة الآن قد تجاوزت الواحدة ليلا ، الى اللقاء »

ـ الى اللقاء . الى اللقاء .

وجعلت ميراندا ترقب الباب الذى اختفى من خلاله برهة غير يسيرة ، ثم أغمضت عينيها واستسلمت للتفكير : حينما لا أكون هنا لايسعنى ان أذكر شيئا عن هذه الحجرة التى عشت فيها زهاء سنة ، اللهم الا أن الستائر أخف مما ينبغى ، حتى لاسبيل الى درء ضوء النهار عن عينى ، وقد وعدتنى الآنسة هوب بستائر أسمك من هذه ، ولكن لم يظهر لها أثر .

وعندما كانت ميراندا فى ردائها المنزلى لدى التليفون هذا الصباح ، مرت من أمامها الآنسة هوب حاملة خوانا ، وهى مخلوقة ضئيلة حمراء الشعر عصبية ودود ، وتنطق سماتها بأجلى بيان ان الدار لاتدر عليها مافيه كفاية ، وانها على شفا جرف . ورشقت مس هوب ميراندا بنظرة فاحصة ، وقالت بحدة : « ماذا بك يابنيتى العزيزة ؟ »

فأجابتها ميراندا والمسماع الى أذنها : « انفلونزا فيما أظن » !

فقالت الآنسة هوب بصوت خافت : « ياللداهية » ، وترنحت صفحة الخوان بين يديها ، ثم قالت : « عودى الى فراشك حالا ... الآن ! » فأجابتها ميراندا قائلة : « يجب أولا أن أتحدث الى بيل » ، فأسرعت الآنسة هوب فى سبيلها ولم تعد .

أما بيل فصاح فى التليفون بارشادات ، ووعدها بكل شىء : بطبيب ، وممرضة ، ونقالة ، ومستشفى ، وبمرتبها كل أسبوع كالمعتاد ... وعدها بكل شىء ، بشرط أن تعود الى فراشها حالا فتلزمه . وتهاوت فوق الفراش ، وهى تحدث نفسها : أن بيل هو الشخص الوحيد فيمن عرفتهم الذى يقطع شعر رأسه هو حرفيا حين ينفعل انفعالا ملموسا ... وأحسب أنه يحسن بى أن أطلب ترحيلى الى موطنى ، فقد جرت عادة عريقة مرعية أن يلقى المرء رزء وفاته على الاسرة ما استطاع الى ذلك سبيلا .. كلا ! بل سأبقى هنا ، فذلك شأنى وحدى ، ولكن لا فى هذه الحجرة . آه لو أن لى ما أشتهى ... ليتنى الآن فى الجبال الباردة التى يكسوها الثلج ، فذلك أحب شىء الى نفسى .

وتعالت من حولها شم الجبال صفا وراء صف ، وقد كللتها الثلوج الدائمة ، وتوجتها من السحاب أكاليل زرقاء ، فسرت أنفاسها المقرورة بالرعدة الى عظامها .

أواه ، بل يجب أن أنال الدفء ! واتجهت بذاكرتها الى حيث تحوم حول موضع آخر عرفته قدما وأحبته أيما حب ، فاذا هى لا تبصر الآن الا أشتاتا من النخيل والارز ، ذات ظلال قاتمة وسماء تدفىء ولا تعشى الأبصار ، لا كتلك السماء التى طالما أعشت عينيها دون أن تبعث الدفء فى أوصالها .. وثمة طحالب ترابية يتماوج موجها المتمهل فى ظلال دوحة باسقة ، ومن فوقها يرف الباز بجناحيه محوما فى رحاب أفق فسيح ، وعلى الشطئان يفوح عبير أعشاب الماء ، واذا نهر قد تفجر من حيث لا تحتسب ، هادئا مترامى الضفتين ، تدفقت فى أمواهه مياه كل ما عرفت فى الدنيا من الانهار ، وانجابت الجدران عن جنبتيها فتلاشت فى صمت ، واذا سفينة عالية ذات شراع وقد ألقت مراسيها عن كثب ، ثم بسطت لوح موردها الذى لوحته

الشمس حتى ضرب لونه الى السواد ، فمس أدنى فراشها ، ومن خلف السفين غابة درت وهى تبصرها للوهلة الاولى أنها كل ما قرأت عنه أو سمعت به أو أحست أو فكرت فيه من غابات الدنيا . فهى مكمن رهيب فوار بالحياة من مكامن الموت ، ترود فيه الصلال الرقطاء ، وتموج فيه الطيور الزاهية الالوان التى تنظر فى حرد ، وتضطرب فيه ضباع لها وجوه حكماء من بنى البشر ، وضياغم ذوات لبد أثيث ، وقرود صخابة طويلة أذرعتها تتواثب بين أوراق الشجر الحافلة بما يشع منها من ضوء كبريتى اللون ، وما تفرزه من ريح الموت ! وللشجر وحشة بما تغوص فيه جذوعه المتعفنة من حمأة من طين زاحفة مستفيضة . وراحت ترقب من فوق وسادتها فى غير انكار ، فاذا بها تبصر نفسها وهى تهرول هابطة ذلك اللوح الممدود الى سطح السفينة المائل ، حيث وقفت حانية فوق السياج تلوح بيدها فى حبور لنفسها وهى مستلقية فى الفراش ، ثم نشرت السفينة أجنحتها وأقلعت صوب الغابة . وتجاوب الهواء بأصوات صراخ وعويل ارتفعت فى وقت واحد ، ثم أخذت تتهاوى وتصطلح عليها كأنها سحائب الاعاصير . ثم اجتمعت الكلمات جميعا فى كلمتين اثنتين تعلوان وتهبطان وتطنان حول رأسها طنينا مدويا ، ألا وهما : الخطر ! الخطر ! الخطر ! والحرب ! الحرب ! الحرب !..

وهذا باب غرفتها . رنى مرجته ادم ويده على المقبض ، وهذه الآنسة هوب وقد قلب الفزع سحنتها فهى تصرخ بصوت صاخب راعش : « قلت لك يجب أن يحضروا لأخذها فورا أو أخرجها الى عرض الطريق... انه الوباء يا الهى ! والبيت مكتظ بالناس ، وينبغى أن أحسب لهم حسابا .. فقال آدم : «أعرف هذا وسيحضرون لاخذها غدا صباحا» فصاحت : «غدا صباحا يا الهى؟ ليتهم يأتون الآن ! » فقال آدم: « ليس لديهم فى الوقت الحاضر نقالة فارغة ، ولا أسرة ، ولم نستطع العثور على طبيب أو ممرضة ، فالجميع مشغولون ، فعليك أن تبتعدى عن الغرفة وسأسهر أنا عليها » فقالت الآنسة هوب بلهجة غير مستحبة: « أجل !أراك ستسهر عليها » !فقال آدم بجفاء : « هذا

ما قلته ، فابتعدى » ، ثم أقفل الباب بعناية • وكان يحمل فى يده جملة لفافات غير متناسقة الشكل ، وكان وجهه جامدا جمودا عجيبا ، ومال فوقها ، وسألها بصوت خفيض جدا : « هل سمعت ؟ » فقالت ميراندا : « سمعت أكثر الحديث ، وانه لفأل حسن ، أليس كذلك ؟ » ، فقال آدم : « لقد جئتك بالدواء ، يجب أن تبدئى بتناوله فى هذه اللحظة ، وأعلمى أنها لا تستطيع اجلاءك » • فقالت : « الامر اذن بلغ من السوء الغاية » ! فقال : « لقد فشا الوباء فى كل مكان ، حتى لقد أغلقت جميع المسارح أبوابها ، وكذلك معظم الحوانيت والمطاعم ، واكتظت الشوارع طول النهار بالجنائز ، وازدحمت ليلا بنقالات الاسعاف ! » فقالت ميراندا وقد استشعرت فى نفسها خفة صاخبة : « ولكن لم تتيسر نقالة منها لى » وجلست ثم سوت وسادتها بيدها ، ومدت ذراعها لتتناول الدثار المنزلى (الروب) واستطردت تقول له « سرنى وجودك ، فقد ألم بى كابوس فى غيبتك ! هلا أعطيتنى سيجارة ، وأشعل سيجارة أخرى لك ، وافتح جميع النوافذ ، واجلس قرب نافذة منها ، فانك تخاطر بنفسك • ألست تدرى هذا ؟ ولماذا المخاطرة ؟ » فقال آدم : « لابأس • خذى دواءك » ، وقدم اليها قرصين كبيرين فى لون الكرز • فازدرتهما دفعة واحدة ، ثم تقيأتهما فورا ، وقالت وهى آخذة فى الضحك : « عفوك ، انى جد آسفة » • فقام آدم فغسل وجهها بمنشفة مبتلة ، فى اهتمام وعناية دون أن ينطق بحرف ، ثم أعطاها شيئا من الثلج المجروش كان فى بعض اللفافات التى جلبها ، ثم قدم اليها قرصين آخرين ، فقالت له: « هكذا كانوا يصنعون فى بيتنا ، وكانت طريقة ناجعة على الدوام» • وثقل عليها الحياء ، فغطت وجهها بيديها وأخذت تضحك على مضض • فأزاح آدم يديها عن وجهها ، ورفع ذقنها بيده قائلا: « بقى صنفان آخران ، فما نحن الا فى البداية ، وقد أتيت بأشياء أخرى مثل عصير البرتقال والدندرمة ، فقد أوصيت أن أطعمك الدندرمة ، •• وقهوة فى ترمس ، ومقياس حرارة ، ويجب أن تصمدى لهذه كلها ، فتجلدى وخذى الامر هونا » • فقالت ميراندا : « فى مثل هذا الوقت بالامس كنا نرقص » ! ثم

شربت شيئا بالملعقة ، وتبعته عيناها وهو يتحرك فى الغرفة قياما بخدمتها فى شرود ، كأنه قائم فى المكان وحده ، وكان فى الحين بعد الحين يعود اليها ، فيدس يده تحت رأسها ، ويرفع الى فمها فنجانا أو كوبا ، فتشرب ثم تتعقبه بعينيها كرة أخرى ، دون أن تتضح فى ذهنها صورة كاملة لما ترى .

وقالت له بعد ذلك : « ياآدم . لقد خطر لى خاطر .. لعلهم قد نسوا مستشفى القديس لوقا ، فاتصل تليفونيا براهباته وسلهن ألا تأخذهن الكزازة بحجراتهن العتيقة التافهة . وقل لهن أننى لا أحتاج الا الى حجرة صغيرة جدا ، معتمة نكراء ، مدى ثلاثة أيام أو أقل ، أرجوك يا آدم أن تفعل » .

وكان يعتقد فيما يظهر أنها لاتزال صاحية العقل ، لانها سمعته يتحدث فى التليفون بصوته الرصين ، ثم لم يلبث أن عاد قائلا : « يبدو أنه كتب على فى يومى هذا أن أصطدم بالعوانس أهل الشكاسة ، فقد قالت الراهبة : انه لو أن عندهن حجرة لما ظفرت بها الا بأمر طبيب ، ولكن لا حجرة لديهن على كل حال ، وكانت ظاهرة الحنق » . فقالت ميراندا بصوت أجش : « ان هذا لمسلك شائن فظ فيه خساسة وضعة . أليس كذلك ؟ » ثم جلست بحركة كبيرة من ذراعيها ، وأخذت تهوع تهويعا عنيفا ، فصاح آدم بها أن تتماسك وبادر اليها بالاناء ، ثم سند رأسها وغسل لها وجهها ويديها بماء الثلج ، وبسط لها رأسها فوق الوسادة ، ثم اتجه الى النافذة فأطل منها برهة ، عاد بعدها فجلس الى جوارها وقال : « لقد أفهمتنى أنه ليس لديهم حجرة خالية ، ولا فراش خال ، .. بل لامهد طفل خال ، فالامر واضح اذن ، وعلينا أن نبذل غاية جهدنا »

ـ أليست النقالة قادمة ؟

ـ ربما جاءت غدا ..

وخلع سترته فعلقها على ظهر مقعد ، وجثا أمام الموقد وراح يرص الحطب على شكل بيوت الهنود الحمر ، وقد جعل مركزها كورا من الورق ، ثم أشعل ذلك الحطب وزاد عليه قطعا أكبر من الخشب ، ثم شيئا من كتل الفحم ، الى أن اندلعت النار

وصارت للهبها ألسنة متراقصة، فقام عندئذ ونفض الغبار عن كفيه ، وكانت النار تضيء ظهره حتى لقد توهج من ضوئها شعره، فقالت ميراندا : « ياآدم أحسبك بارع الجمال »! فضحك وهز رأسه كالمعاتب ، فقالت : « انها أول كلمة خطرت على بالى » ، واتكأت على مرفقيها كى يبلغها وهج النيران ، وأثنت على ما صنع ، فجلس فوق السرير ، وقرب مقعدا فوضع فوق أفريزه قدميه، وعندئذ ابتسما ابتسامتهما الاولى منذ دخل عليها فى تلك الليلة ، فقال لها : « كيف ترينك الآن ؟ » فقالت : « أحسن ، أحسن كثيرا ، فلنتحدث ، وليرو كل منا لصاحبه ما كان ينوى أن يصنع » . فقال آدم : «تكلمى أنت أولا ، فانى أريد أن أعرف عنك كل شيء » فقالت : « تظن أن حياتى حزينة ، ولعلها كانت كذلك ! ولكنى أرضى بها الآن عن طيب خاطر ، فلو استرددت الحياة لهان عندى أن أسعد بأى شيء على الاطلاق. وليس هذا صوابا ، ولكن كذلك أشعر الآن . وصمتت برهة ثم قالت : « ليس هناك مايروى على كل حال لو انها انتهت الآن . فقد سلخت كل هذا الوقت فى الاستعداد لشيء كان حريا أن يحدث من بعد حين يحين الاوان، فليس فى غابر أيامى محصول يذكر » فقال بجد وكأنه كبير الاهتمام بما يسأل عنه : « ولكن لابد انها كانت حياة أهلا لان تحييها حتى الآن . ألم تكن كذلك ؟ » فأجابته فى اصرار : « ان كان هذا هو كل شيء ، فلا . » فسألها: « ألم تكونى يوما .. سعيدة ؟ » وكان ظاهرا أنه يرهب تلك الكلمة فهو يتحرز منها كما يتحرز من كلمة الحب . ويظهر أنه لم يتفوه بها قبل الآن ، فهو ليس على يقين من وقعها ومعناها . فأجابته : « لست أدرى ، فقد كان حسبى ان أعيش ، ولم أفكر فى ذلك ، وانى أذكر أشياء مع هذا أحببتها وأخرى تمنيتها . » فقال آدم : « لقد كنت على وشك التخرج مهندسا كهربائيا » وتمهل لحظة ثم أتم عبارته قائلا :

« وسوف أتم دراستى على أثر عودتى » ، فقالت ميراندا : « ألست تحب العيش ؟ ألست تحب الجو واختلاف الالوان باختلاف أوقات النهار ؟ والاصوات والاصداء التى تتعالى لضجة الاطفال ، وأبواق السيارات والفرق الموسيقية الصغيرة فى تطوف الشوارع ، ورائحة الطهو الفواحة ؟ » فقال آدم : « وأحب السباحة أيضا »

فقالت ميراندا « وكذلك أنا . ولكننا لم نسبح أبدا معا » وسألته على حين غرة : « أتذكر من صلواتك شيئا ؟ ألم يعلموك شيئا فى مدرسة الاحد ؟ » فاعترف آدم لها بغير مواربة : « انى لم أتعلم فيها الشيء الكثير . اللهم الا صلاة الرب »، فقالت : « هناك أيضا نعظمك يا أم النور ، وتلك الصلاة النافعة التى مطلعها بالحقيقة نؤمن باله واحد وبالمباركة مريم العذراء وبالرسل الاطهار بطرس وبولس .. » ، فقال معلقا على ذلك: « كاثوليكية انت » ،فقالت: « ان الصلاة هى الصلاة على كل حال . وأراهن انك سنى » :فقال: « كلا . بل مشيخى » ! فقالت : « وأى صلاة أخرى تذكرها ؟ » فقال آدم «الآن أرقد لأنام..»فقالت : « نعم ، وكذلك الصلاة الاخرى التى أولها يايسوع المبارك الدمث الحنون . فهاأنت ذا ترى انهم لم يهملوا تربيتى الدينية ،بل انى أعرف ابتهالا مطلعه يا أبولو، أتريد أن أسمعك اياه ؟ » فقال آدم : «كلا ، أنت تمزحين »فقالت ميراندا : «لست مازحة ، بل انى أتحاشى الاستسلام للنعاس، فبى خوف منه، فلعلنى ان نمت لا أصحو فلا تتركنى أنام يا آدم . وهل تعرف : « يامتى ومرقص ولوقا ويوحنا باركوا فراشى فقد نويت الوسن ؟ » فقال آدم متمما الترتيل : «واذا مت قبل أن أقوم، فليرفع اليه روحى الحى القيوم ..انها لاتعجبنى لسبب ما » فقالت له : « أشعل لى سيجارة من فضلك ، ثم اذهب واجلس قرب النافذة ، فاننا ننسى على الدوام مسألة تجديد الهواء ، فلابد لك من الهواء الطلق . » فأشعل السيجارة ووضعها بين شفتيها ، فتناولتها بين أصبعيها وأسقطتها تحت حرف الوسادة ، فعثر بها وسحقها فى الطبق الذى فوقه اناء الماء ،ودارت رأسها فى الظلام برهة ، ثم أفاقت وجلست وقد استولت عليها نوبة من الفزع ، فراحت تلقى الاغطية عنها ، وقد تصببت عرقا . فوثب آدم وقد فزع فزعا شديدا وسرعان ماكان يرفع الى فمها فنجانا من القهوة الساخنة ، فلما عاد اليها هدوؤها قالت له : « ينبغى أن تشرب شيئا من القهوة أنت أيضا » ،وجلسا متلاصقين على حرف الفراش ، وأخذا يشربان القهوة فى صمت .

وقال آدم : « يجب أن ترقدى ثانية ، فقد تم صحوك »

فقالت ميراندا بصوت طبيعى: « بل هيا نغنى ، فانى أعرف أغنية قديمة فكهة ، واذكر جانبا من كلماتها ، وانى الآن على

مايرام » . ثم شرعت تدندن بصوت خفيض أجش : « راكب أغبر فوق جواد أغبر ، مضى يحبيبى عنى » وقالت : « أتعرف هذه الاغنية؟ » فقال آدم : « أجل ، فقد سمعت الزنوج ينشدونها فى تكساس ، فى حقل من حقول الزيت » فقالت : « وأنا سمعتهم يغنونها فى حقل من حقول القطن ، وهى أغنية بديعة » .

وراحا يغنيان ذلك المطلع معا ، ثم قال آدم : « ولكنى لا أذكر مابعد ذلك ، فقالت ميراندا : « كان ينبغى حقا أن يكون معنا بانجو ، ولكن يجب أن نستمر . فما هو السطر التالى ؟ » فقال آدم : « انها أغنية طويلة تبلغ نحو أربعين بيتا ، فان ذلك الراكب الأغبر ذهب عنى بعيدا بأمى وأبى وأخى وأختى وبالعائلة كلها فضلا عن الحبيب » ! فقالت ميراندا : « ولكنه لم يذهب بعد بالمنشد المغنى ! يترك الموت دائما منشد اينـدب الموتى » ! وأخذت تغنى قولها : « ياموت دع منشد اينـدب الموتى » ، وانضم آدم اليها بعد ذلك فى انشاد القرار : « راكب أغبر فوق جواد أغبر مضى بعيدا بحبيبى عنى ! » ثم أردف « أعتقد أنه لا بأس بغنائنا ، ويحسن بنا أن نحترف التمثيل » ! فقالت له ميراندا : « انخرط فى سلك مشروع الاكواخ ، كى ترفه عن الأبطال العزل هناك » فقال آدم : « وسنعزف البانجو ، فقد كنت تواقا على الدوام أن أعزف على البانجو »

وتنهدت ميراندا عندئذ واستلقت فوق الوسادة وحدثت نفسها فى سريرتها قائلة : « يجب أن أبوح بما عندى ، فما عدت أملك زمام نفسى ، فليس أمامى الا هذا الالم ، وهـذه الحجرة ، وآدم ... فليس ثمة آمال منوعة فى الحياة وآفاق متعددة ! »

لقد انقضت قبسات الذكريات ، ولمع الآمال تتـداولها شـدا وجذبا ، وتجعـل لهـا فيمابينها مقاما ... ولم تبق لها الا هذه اللحظـة ، وانها لهنيهـة من لمحات الرؤيا ، فهـذا وجه آدم من وجهها قريب ، جـد قريب . وعيناه شاخصتان اليها شخوص العزم واليقين ، فكأنه شبح عما قريب لا تبقى منه باقيـة ... وخرجت عن صمت الظلمة التى تكاثفت من فوقها فهبطت بها دركا فى أثر درك ، ونادته : « يا آدم .. انى أحبك . ولكم تمنيت أن تقولها لى أنت أيضا » .

فاضطجع الى جوارها وجعل ذراعه تحت كتفها وضم وجهه

الاملس الى وجهها ، وزحف فمه نحو فمها ، ثم تمهل ليقول لها : « أتسمعين ما أقول ؟... ماذا تظنين أنني قائل لك كل هذا الزمن ؟ » وتوجهت اليه بذات نفسها ، وانقشعت الظلمة عنها ، فرأت وجهه لحظة واحدة ، ثم جذب الاغطية فوقها وحولها وضمها اليه قائلا : « نامي الآن يا حبيبتي الحبيبة . فاذا ما نمت ساعة أيقظتك وسقيتك قهوة ساخنة ، وغدا سنعثر بمن يعين في التمريض ، فلا تقلقي يا حبيبتي ، ونامي ، فاني أحبك .. »

وطفت سابحة في الظلام بغير مقدمات ، مستغرقة ويدها في يده في نوم لم يكن في واقع الامر نوما ، وانما هو أصيل رقراق الضياء في غابة صغيرة خضراء ، غابة خطرة غضبى تتجاوب فيها أصوات مكتومة غير بشرية ، تتغنى بصوت صارخ كأنه زفيف الاسهم حين تمرق في الفضاء ، ثم رأت آدم وقد اخترقه وابل من هذه السهام الصافرة فأصابته في السويداء من قلبه ، وخرجت من ظهره . فشقت طريقها بين الاوراق الملتفة ، فسقط آدم صريعا على ظهره أمام عينيها ، ثم نهض ثانية ، فاذا به لم يجرح . فانطلقت كوكبة أخرى من السهام عن تلك القوس غير المنظورة ، فأصابته وخر على الارض ، واذا به مع هذا ماثل أمامها لم يمسسه سوء ، وهكذا دواليك في دور متصل من الموت والنشور ، فألقت بنفسها أمامه غاضبة لنفسها كي تحول بين مجرى السهام وبينه ، وأخذت تصيح صيحة الطفل المغبون في لعبته : « كلا كلا . هذا دوري الآن ، فلماذا تظل أنت على الدوام الشخص الذي يموت في كل مرة ؟ » فأصابتها السهام عندئذ من قلبها في الصميم ، وأخترقته فأصابت جسد آدم فخر ميتا ، أما هي فظلت حية ! وغنت الغابة وصفرت وصاحت ، وكل غصن فيها ، وكل ورقة ، وكل نابتة عشب ، كانت تضج بالاتهام الفاضح . فأخذت تجري عندئذ ، واذا بآدم يمسكها وهي تعدو في وسط الحجرة ، فيقول لها : « لا بد أنني نمت أيضا يا حبيبتي . ماذا جرى ؟ لقد صرخت صراخا مروعا » .!

وبعد أن أعادها حتى استقرت في فراشها ، جلست القرفصاء وقد جمعت ركبتيها تحت ذقنها ، وأراحت رأسها فوق ذراعيها وأخذت تفتش في حذر عن ألفاظ تستعين بها على بيان كانت تدرك

مبلغ خطره : « لقد كان حلما غاية فى الغرابة . ولست أدرى ما الذى أفزعنى منه . لقد رأيت عهد غرام على الطراز العتيق ، فهو عبارة عن قلبين منحوتين فى جذع شجرة وقد اخترقهما سهم واحد ، فأنت تعرف ذلك الضرب من الاشياء يا آدم . » فقال بأرق عبارة : « نعم أعرفه يا مليحة » ، وجلس الى جوارها فقبل وجنتها وجبينها فى ألفة ، وكأنه ألف أن يقبلها سنوات وسنوات !! واستطردت هى : « والعجيب أن القلبين كانا حيين . لقد كانا أنا وأنت ، لم يكن الامر يبدو كذلك صراحة ، ولكنه كان شيئا من هذا القبيل . وكنا فى غابة ... » فقال آدم وهو ينهض فيرتدى سترته ويجمع أوانى الترمس : « أجل يا حبيبتى . انى سأذهب الآن كى آتى لنا بشىء من الدندرمة والقهوة الساخنة ، وسوف أكون هنا فى مدى خمس دقائق . فأخلدى الى الهدوء . والآن الى اللقاء بعد خمس دقائق » ، ثم رفع ذقنها فى راحة يده وبحث بعينيه عن عينيها قائلا : « الزمى الهدوء التام » فقالت : « انى فى صحوى . الى اللقاء . »

ولكنها فى الواقع لم تكن فى تمام صحوها ، فان طبيبى الامتياز فى المستشفى المركزى حينما جاءا بعد الحاح متواصل من محرر الشئون المالية فى صحيفة الجبل الازرق ، كى يحملاها فى نقالة الشرطة . قررا أنه يحسن بهما النزول الى السيارة لاحضار المحفة فأيقظها صوتهما ، فهبت جالسة ثم غادرت الفراش فى الحال ، ووقفت تحدق فيما حولها بعينين لامعتين ، فقال أسمر الشابين وأملؤهما قامة ، وكانا كلاهما قوى البنية ، يبدوان فى ثيابهما البيض من أهل الفطنة والدراية ، وقد رشقا فى صدريهما زهرة يانعة : « أنت بخير ، وكل ما هناك أنى سأحملك » ثم بسط بطانية بيضاء ولفها فيها ، فجمعت طياتها حولها وأمسكت بذراع الطبيب تسأله : « ولكن أين آدم ؟ » فوضع الطبيب يده على جبهتها الندية ، ثم هز رأسه ورشقها بنظرة ثاقبة وقال : « آدم ؟ » ، فأجابته بصوت منخفض كمن تسر اليه شيئا : « نعم . لقد كان آدم هنا ، ولكنه الآن غير موجود » فقال لها بغير مبالاة : « سيعود فقد ذهب الى ناصية الشارع ليشترى سجائر ، فلا تقلقى على آدم ، فهو أهون متاعبك ! فسألته وهى لاتزال متمنعة : « وهل سيعرف أين

يجدنى ؟ » فقال طبيب الامتياز :« سنترك له مذكرة . والآن تعالى ، فقد آن أن نخرج من هنا »، ثم رفعها الى كتفيه ، فقالت له : « أشعر أن حالتى ساءت جدا ،ولست أدرى لماذا » ؟ فأجابها : « انى واثق من هذا . » وكان يخطو بحذر ، والطبيب الآخر يتقدمه كى يتحسس أول درجات السلم ، ثم قال لها : « ضعى ذراعيك حول عنقى ، ولن يضيرك هذا ، وهو أعون لى . »

وسألته ميراندا حينما كان الطبيب الآخر يفتح باب الشارع ليخرجوا الى الهواء الرطب المقرور : « ما اسمك ؟ » فقال بلهجة من يداعب طفلا : « هيلدشايم» فقالت : « ألا ترى يا دكتور هيلد شايم أننا فى مأزق طريف ؟ » فقال الدكتور هيلد شايم : « نحن كذلك يقينا » !

***

أما طبيب الامتياز الشاب الآخر فكان ناضرا ناشطا فى معطفه الابيض ، وان كان الذبول قدبدأ يتطرق الى لونه . وقد انحنى فوقها يتسمع تنفسها بمسماع ،ويصفر بصوت خافت أغنية : « ما أطول الطريق ... » وكان بين الحين والحين يطرق أضلاعها باصبعيه فى رشاقة ، وهو سادر فى صفيره . وجعلت ميراندا ترقبه برهة ، الى أن اشتبكت عيناها بعينيه اللامعتين العسليتين، وهما لا تبعدان عن عينيها بأكثر من أربع بوصات ، فقالت له عندئذ : « لست فى غيبوبة ،فأنا أدرى ما أقول » ، ثم ماعتمت أن ريعت لسماع صوتها وقدأخذت تهذى بما لا معنى له . وكانت واثقة انه هذيان ، وان لم تتبين بالضبط ماكانت تقول! وتلاشت لمحة الاهتمام من عين الطبيب عن كثب منها ، وانصرف الى طرق أضلاعها والتسمع بالمسماع ، هامسا بلحنه همسا ضعيفا ، فقالت له بوضوح :« ليتك تكف عن الصفير » فكف ، واستطردت تقول : « انه لحن بشع » !

كانت تريد أن تقول أيما شىء ، أيما شىء على الاطلاق تستديم به تعلقها الواهى بحياة بنى الانسان ، فالكلام ، أيما كلام ، وسيلة للاتصال على كل حال بينها وبين العالم الآفل .

« أرجو أن تسمح لى بمقابلة االدكتور هيلدشايم ،فانى أريد أن أقول له شيئا ذا بال ، يجب أن أقوله له الآن ! فاختفى الطبيب !

كلا ، انه لم ينصرف ، وانما تلاشى هكذا فى الهواء بغير حس ، وظهر فى موضعه وجه الدكتور هيلدشايم ، فقالت له : « يادكتور هيلد شايم ، أريد أن أعرف خبرآدم » ! فقال الدكتور هيلد شايم : « أتعنين ذلك الشاب ؟لقد كان هنا وترك لك مذكرة وانصرف ، وسوف يعود غدا وبعدغد » وكانت لهجته وهو يكلمها غاية فى المرح والطلاقة ٠٠ فقالت ميراندا بمرارة وقد أقفلت شفتيها وعينيها عسى أن تحبس دمعها : «لست أصدقك » ! فنادى الطبيب الممرضة وقال لها : « أمعك يا آنسة تانر تلك المذكرة ؟ »

فظهرت الآنسة تانر الى جوارها ، ومدت اليها يدها بمظروف مقفل ، ثم استردته وفضت الخطاب وأعطتها اياه ، فقالت ميراندا بعد تحديق شاق فى الصفحة التى ملأتها كلمات خطت على عجل بمداد أسود « لاأستطيع رؤيتها »! فقالت الآنسة تانر : « سأقرؤه لك : لقد حضروا وأخذوك وأنا فى الخارج ، وقد منعونى الآن من رؤيتك ، وربما سمحوا لى برؤيتك غدا ولك حبى ـ آدم » ٠٠

وكان صوت الآنسة تانر وهى تتلو الخطاب حازما جامدا ، تضغط مخارج الحروف وتفصلها ، فلما انتهت سألت ميراندا بلطف : « والآن ، هل ترين ؟ » وكانت ميراندا كلما سمعت كلمة نسيتها ، فصاحت ليعلو صوتها على ذلك الصمت الذى أطبق عليها ، وهى تتلمس تلك الالفاظ المتواثبة التى كانت تفلت منها كلما أوشكت أن تدركها : « اقرئيه مرة أخرى ٠ ماذا يقول ؟ » فقال الدكتور هيلدشايم بهدوء آمر : « يكفى هذا ٠ أين ذلك الفراش ؟ » فقالت الآنسة تانر : « ليس هناك فراش بعد » ، وكأنها تقول : لقد فرغ ما لدينا من البرتقال ! فقال الدكتور : هيلد شايم « لا بأس ٠ سندبر الأمر » ٠ وجرت الآنسة تانر الحمالة الضيقة ذات الحمائل المعدنية اللامعة والعجلات المطاطية الصغيرة الى ثنية عميقة فى الدهليز بعيدا عن طريق تلك المعاطف البيضاء التى تسرع ذاهبة آيبة ، وكأنها فى دورانها السريع قربة خض اللبن ، أو طيور الماء البيضاء التى تحوم فوق وجهه فى صمت ، وكانت الجدران البيضاء عالية كالجبال ، وعشرة أقمار مقرورة تتتابع فى أناة واتزان ثم تتهاوى فى سكون مطبق فى أعماق هاوية يجللها الجليد ٠

ما كل هذا البياض والسكينة التى لا يعكرها الا الألم ؟

واضطجعت ميراندا رافعة بأناملها المسترخية مقدم غطائها الابيض الناعم ، وراحت ترقب أشباحا راقصة مديدة القامة تتحرك مستأنية وراء ساتر كبير مبسوط فوق اطار ، وكان ذلك الرقص يدور بالقرب منها ، بحيث تشاهده بوضوح وتستمتع به ، وكان رقصا بديعا ألهاها بجماله عن التساؤل عن مغزاه ! وظهر شكلان قاتمان يتبادلان الايماء والانحناء ، ثم يتراجعان خطوة وينحنيان ثانية رافعين أذرعتهما الطويلة ، باسطين أيديهما الكبيرة نحو الاشباح البيضاء الراقصة وراء الستار ، وبحركة ضافية انفرج الستار وبرز من ورائه رجلان صامتان فى ثياب بيضاء ، وقد وقفا ورقد بينهما رجل ثالث أبيض الثوب فوق شبكة عارية لسرير حديدى أبيض ، وكان ذلك الرجل ملفوفا من الرأس الى القدم فى ثوب أبيض ، وقد عصب وجهه بطبقات من العصائب ، عقدت عقدة كبيرة كانت تهتز فوق يافوخه كأنها أذن أرنب .

ورفع الرجلان حشية كانت ملقاة بجوار الحائط ، وبسطاها برفق واحكام فوق الرجل الميت ، ثم دفعا سريره ذا العجل أمامهما وانصرفا دون أن ينبسا ببنت شفه ، وكان منظرا مذهلا سرها أن ينقضى ، وما عتمت سحابة من الضباب الابيض الشاحب أن انتشرت على آثارهم ثم سبحت أمام ناظريها ، وقد كمن فيها الرعب والاعياء وكل ما خالته فى الدنيا من وجوه هضيمة وظهور معقوفة واقدام مهيضة ، مما منى به المنكوبون من الاحياء ، فاختلطت فى تلك الغمامة آلامهم ووحشتهم ، فلئن انقشعت تلكم السحابة فلسوف تنطلق قطعان ذلك العذاب البشرى من عقالها ، فرفعت ميراندا يديها وصاحت : « ليس الآن ، لم يحن الوقت بعد . »

ولكن لات ساعة صياح ، فقد انقشعت الغمامة عن جلادين لباسهما البياض الخالص ، واتجها نحوها يدفعان فيما بينهما بحذق بالغ وأيد مدربة رجلا مسناشائه الشكل فى أسمال كريهة ، ولحيته الناحلة تترنح من تحت فمه المفتوح ، وهو يقوس ظهره

ويضم قدميه كى يقاوم ويؤخر المصير الذى أعداه له . وأخذ يتوسل اليهما بصوت باك ، ويبين لهما أن الجريمة التى اتهم باقترافها لاتستأهل العقاب الذى يوشك أن يناله . ولكن الصمت كان يسودهما وهما يتقدمان بذلك الشيخ الضارع الجائر بالانين ، وقد مد يديه المعروقتين فى ضراعة المتسولين ، مشهدا الله أنه برىء ، ثم أوثقا ذراعيه وجراه جرا حتى انصرفا به .

ان الطريق الى الموت طريق طويل محفوف بالمكاره ، يخور الفؤاد رويدا رويدا عند كل مخافة فيه ، وتتمرد العظام فى كل خطوة ويحجم العقل احجامه الصارم .. والى أين المصير ؟ ان السدود تتهاوى سدا من وراء سد ، فيسقط عن العين كل حجاب كان يحجب أرض الفاجعة ، وما يقترف فى ربوعها من آثام ، فها هوذا الدكتور هيلدشايم وقد أقبل يجتاز الحلبة ، وقد غدا وجهه من تحت خوذته الالمانية جمجمة نخرة ، وعلى سنان رمحه وليد عار يتلوى ألما ، وفى يديه اناء حجرى ضخم نقشت فوقه بأحرف قوطية كلمة « سم » . ووقف عند بئر تذكر ميراندا أنه فى مرعى بمزرعة أبيها ، وقد غاص ماء ذلك البئر منذ زمن ، ولكنه يزخر الآن بالماء الدافق . وفى أعماقه الصافية ألقى بالوليد ووعاء السم ، فغاض الماء وقد انتهكت حرمته فى الارض غيضانا صامتا ، وصرخت ميراندا وجرت وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها ، وجلجل صدى صوتها ثم ارتد اليها كعواء الذئب : هيلدشايم المانى ، جاسوس ، هونى ، اقتلوه . قبل أن يقتلكم .

وصحت وهى تعوى ، فسمعت ألفاظ اتهامها الدكتور هيلدشايم تتدافع من فمها ، ففتحت عينيها ، وتبينت أنها راقدة فوق فراش فى حجرة صغيرة بيضاء ، والدكتور هيلدشايم جالس بجوارها ، وأصبعاه الرشيقان فوق معصمها يجس نبضها ، وكان شعره الناعم مرجلا ، وفى صدره زهرة يانعة .. وكانت النجوم تتلألأ من وراء النافذة ، وقد شخص الدكتور هيلدشايم ببصره نحوها ، ولكن فى غير اهتمام بلألائها . ومسماعه يتأرجح حول عنقه . وأما الآنسة تانر فكانت واقفة عند أدنى السرير تسجل شيئا فى بطاقة بيدها .

وقال الدكتور هيلدشايم : « مرحى ! لاضير فى الصياح ، ما

دمت لاتغادرين الفراش فتتواثبين هنا وهناك » . فأبقت عينيها مفتوحتين بمشقة كبيرة ، ورأت وجهه المتلىء الرزين رؤية واضحة ، مع أن ذهنها أخذ يختلط ويترنح مرة أخرى ، فكأنه تملص من أساسه كي يطن كالنحلة المقذوف بها فى حفرة ، فقالت له : « لم أقصد هذا يادكتور هيلدشايم ، ولم يدر بخلدى قط ، فلا تلق اليه بالا .. » ثم غابت مرة أخرى ، قبل أن تتلقى الجواب .

وتعقبتها زلتها الى عالم الاحلام ، فاتخذت اشكالا من الرعب مريبة عجزت أن تسميها ، وان اقشعر قلبها لمرآها . وكان عقلها وقد تقسمته المخاوف ، فشق منه ينكر ما يتراءى لشقه الآخر ، فهى مقرة منكرة لما ترى فى آن واحد ، ذلك أن ذاتها العاقلة المتشققة كانت ترقب فى فتورذاتها الاخرى تهذى ذلك الهذيان الغريب ، وبينهما هوة عارمة الظلمات ، وتأبى أن تصدق تلك الرؤى وما يتمثل فيها من ندم مستيئس وقنوط .

وقالت للآنسة تانر : « اعلم أن هاتين يداك ، اعلم هذا ، ولكنى أراهما عنكبوتين ضخمين أبيضين . فلا تلمسينى » .

فقالت الآنسة تانر : « اغمضى عينيك » . فقالت ميراندا : « كلا ، لا أفعل ، فانى أرى حينئذ ماهو أبشع » ، بيد أنها أغمضت عينيها على غير ارادتها ، فأطبقت عليها ظلمات عذابها الداخلى . وخطر لميراندا ، وقد بات عقلها يتلمس بين ماوعت حافظتها من الكلمات ماتصف به غير المنظور ولا المعلوم ، ان النسيان دوامة من ماء أغبر تدور حول نفسها منذ أول الازل .. ولعل الازل أبعد مدى من أنأى النجوم .

ورأت نفسها ملقاة فوق بسطة من الارض صغيرة ضيقة ، على شفا وهدة كانت تعلم انها ليس لها قرار ، وان لم تعقل ذلك ، وكانت تلك البسطة الضيقة ماحلمت به فى طفولتها من الخطر ، فتقاعست وسعها الى جدار من الصخر الصلد أخلدت اليه من وراء كتفيها ، وجعلت تحملق فى الوهدة متفكرة : هذه هى ، هذه هى أخيرا ، وما أهونها ، وليست تلك الكلمات المنمقة المتحذلقة من قبيل النسيان والابدية الا أستارا علقت على لاشىء اطلاقا . فسوف لا أعلم متى تقع الواقعة ، وسوف لا أشعر ولا أتذكر ، فلم لا أنقاد الآن ؟ فانى مضيعة ولا أمل لى .

ثم قالت لنفسها : « أنظرى !! ها هوذا الموت ، هاهوذا وليس فيه مايخاف » ولكنها لم تطق الانقياد ، وبقيت على تقاعسها المستميت الى جدار الجرانيت الذى كان حلم طفولتها بالامان، وراحت تتنفس هونا خشية أن تذهب أنفاسها بددا ، وتردد على نفسها مستيئسة : « انظرى ،ولا تخافى،فليس هذا شيئا ، ان هو الا الابدية » .

وقالت ميراندا تخاطب نفسها : « جدران الجرانيت والدوامات، والنجوم ، كل هذه أشياء ،وليس شىء منها الموت ، ولا هو بصورة له ، فالموت هو الموت ، وليس له لدى الموتى صفات وكيوف » .

ولما صمتت جعلت تغوص أيسر الغوص الى أغوار بعد أغوار من الديجور ، حتى انطرحت كالحجر الملقى فى أبعد أغوار الحياة ، على بينة من أمرها وقد عميت وصمت وخرست فلا دراية لها من بعد بأعضاء بدنها ، فقد انسلت من كل مايعنى به البشر أنفسهم ، وان بقيت بقيد الحياة على وجه من الوجوه خفى فيه لطف واتساق :فقد انحل وسقط عنها كل مالدى الذهن من معارف وما يجول فيه من ريب الشك الواعى ، كما تخلصت من روابط الدم وهوى القلب ، فلم يبق منها الا جزء من الوجود متقد متوهج لايعرف الا ذاته ،ولا يستمد قوته من شىء وراء ذاته ، ولا يجوز عليه الانجذاب والتغرير ، لانه متقوم بدافع واحد وحيد هو الارادة العارمة فى الحياة . وقد نصب ذلك الجزء الراسخ المتقد نفسه لمقاومة الفناء منفردا ، كى يحيا ويظل له جنون عنصره بالبقاء ، ولا غاية له ولا باعث وراء ذلك الهدف الفذ . وكان ذلك البصيص الثاقب الصلد الذى لايعرف الوميض يهيب بها أن ثقى بى ، فانى باق .

وعلى حين غرة نما ذلك البصيص ورق وامتد حتى صار اشعاعا لطيفا على صورة مروحة كبيرة ، ثم تقوس فاذا به قوس قزح ، نفذ بصر ميراندا من خلاله فاذا بها تشهد مبهورة معتقدة بصدق ماترى ، أفقا رائقا رحيبا من البحر والرمال والمرعى اليانع،ومن سماء أسقطت ماكان بها من مطر منذ حين ،فهى بادية اللألاء شفافة اللازورد . فانشرح صدر ميراندا لما رأت ، وأقبلت على نفسها تقول : « مرحى . مرحى وكرامة» لاعن عجب ولكن فى هيام الواثقة

المطمئنة ، كمن صدقتها الايام ماوعدت بعديأس من الوفاء أضمرته طويلا ، ونهضت من مضـــجعهاالضـــيق فوق ذلك النشز المطل على الوهدة السحيقة ، ثم انطلقتخفيفة الوثبـــات فاخترقت تلك الابواب العـــالية ، أبواب قوسقزح الهائل الذى ارتسم فى أوج بهائه محدقابزرقة البحر المتوهجةهنـــا ، وخضرة المرعى النـــدية هناك .

ودرجت الامواج هينـــة وانيـــةتتواثب فوق الرمال فى سكينة ، ثم ترتد ، وتمايلت أعواد العشبأمام نسمة رخاء لم تـــكن تحدث صوتا . وأقبلت صوبها جمـــاعةحافلة من البشر تمشى الهوينـــا مشى السحاب تدفعه ريح رفافة ،ورأت فيهم ميراندا وقد استخفها الفرح كل من تعرف فى الدنيا منالاحيـــاء ، وقـــد أشرقت وجوههم فتجلى كل وجه بجمـــاله الذاتى ،ففاق كل ماتذكره له من جمال ، فأعينهم صافية غير مشوبة كأنهاســـماء يوم صـــحو ، وليس لاشخاصهم ظـــلال ، فهم جواهرخالصة تعـــرف كل واحـــد منهم بغير حاجة الى ندائه أو استرجاعمابينهـــا وبينه من وشـــيجة . وأحدقوا بها فى رفق فلم تســـمعلاقدامهم وقعا ، ثم يمموا بطلعاتهم الباهرة صوب اليم، ومشت بينهمهـــونا كمـــوجة بين أمواج . ثم انداحت الدائرةالمتحركة ، وتفرقالجمع حتى تمايزت الشخوص فى غير اعتزال ،وكذلك قامت ميرانداابرأسها ، لاتسأل شـــيئا ، ولا تشتهى شيئا ، وانما هى سكينةالنشـــوة . فلبثت حيث كانت ، شاخصة البصر الى ســـماء رائعـــةذات أغوار ، للصبح فيهـــا دولة لاتدول .

واســـتلقت مستروحة وقـــدجعلت ذراعيها تحت رأسهـــا فى ذلك الدفء المعجز الذى كان يشعمن البحر والســـماء والمرعى على السواء ، على قيـــد اللمس ، ولالمس ، من تلك الخـــلائق الوضيئة البسمات اللطيفة الايناس

وبغير مقدمات استشعرت ميراندا رجفة غامضة واعية ، وراب بهجتها ريب داخلها ، فكأنما مسأهـــداب سكينتها المطمئنـــة قر شديد : فأحست أنها قد افتقدتشـــيئا أو أحدا . لقـــد أضاعت شـــيئا غاليا أو تركتـــه فى بلدآخر . فأى شىء هو وما عساه أن يكون ؟

« ليس ها هنا شجر »

وأفزعها ما فطنت اليه فقالت مروعة : « لقد تركت شيئا بغير تمام » واضطربت في مؤخرة رأسها فكرة مالبثت أن اتضحت صوتا طرق سمعها : وأين الموتى ؟ لقد نسينا الموتى فأين هم ؟.

وعلى الفور ، وكأنما أسدل ستار كثيف ، انتقض ذلك الأفق المشرق ، فاذا بها وحيدة في موضع صخرى لم تعرفه من قبل شديد القر ، تشق طريقها في مسلك وعر ، تكسوه الثلوج الزلقة ، وهى تصيح : « لابد لى أن أعود ! ولكن أين السبيل ؟ »

وعاودها الالم قاسيا قاهرا يجرى في عروقها كأنه الحمم ، وفغمت خياشيمها عفونة النتن ، وغثت نفسها بفوائح القيح والصديد ، ففتحت عينيها لترى ضوءا حائلا من وراء نسيج أبيض غليظ كان يغطى وجهها ، فعلمت أن رائحة الموت صادرة عن بدنها ، فجاهدت لترفع يدها ، فانجاب الغطاء وبصرت بالآنسة تانر تملأ محقنا بيدها المدربة الصناع ، وسمعت الدكتور هيلد شايم يقول : « اخالها ستجدى ، فاحقنيها مرة أخرى » فقبضت الآنسة تانر على ذراع ميراندا قريبا من الكتف ، واذا بذلك التيار الفظيع الوجيع يتدفق كاللهب في عروقها مرة أخرى ، فجاهدت كى تصرخ قائلة : « دعونى . أطلقونى » . ولكنها لم تسمع الا أصواتا لا اتساق بينها تنم عن ألم حيوانى . ورأت الطبيب والممرضة يتبادلان النظر شأن من يجمع بينهما عمل محفوف بالاسرار ، وأوما برأسيهما في صمت ، وأومضت عيناهما ببريق الزهو الصادق ، ثم ألقيا نظرة خاطفة على صنيعة يديهما ، وانصرفا لا يلويان على شيء .

وجلجلت في الفضاء رنات النواقيس على غير هدى ، متنافرة متزاحمة في أجواز الفضاء ، واختلطت في الجو أصوات أبواق وزمور بصيحات آلام البشر ، وشق الظلام من وراء زجاج نافذتها ضوء كبريتى اللون ، فصحت ميراندا من نعاس لم تكدره الاحلام ، وسألت وهى لا تنتظر جوابا : « ما الذى جرى ؟ » فقد كثرت في الدهليز جلبة الاصوات ووقع الاقدام ، واستمرت الضجة البعيدة صاخبة عاتية كأنها جؤار الغوغاء في يوم ثورة . فأضيء النور وأجابتها الآنسة تانر بصوت مخملى الملمس : « أتسمعين ؟

انهم يحتفلون ، يحتفلون بالهدنة، فقد وضعت الحرب أوزارها أيتها العزيزة » . وكانت يداها ترتجفان وهى تحرك ملعقة فى فنجان ، ثم تمهلت وأصغت ، ثم مدت الفنجان نحو ميراندا . ومن عنبر العجائز العليلات فى أقصى البهو ارتفعت أصوات متناثرة متداعية بنشيد « يا وطنى .. »

أرض الهناء ؟... بل أرض الشقاء أرض هذه الدنيا الجافية، فصوت السرور فيها صرخة ألم ، فهاهن هاتيك العجائز الفانيات المتحشرجات القابعات فى انتظار أقداح الكاكاو التى تقدم لهن كل مساء ، وقد صحن منشدات : «يا أرض الهناء ، ما أحلاك يا أرض الحرية » .

وما لبثت ألسنة النواقيس المعدنية وضربات مطارقها القوية أن طغت على أصواتهن النكراء ، فرحن من بعد ذلك يتصايحن متسائلات : «أرأيت ؟ أنظرى !»

وزمت الآنسة تانر شفتيها ،وقد اغرورقت عيناها ، وقالت : « انتهت الحرب » . فقالت ميراندا : « نشدتك الله أن تفتحى النافذة ، فانى أتنسم ها هنا ريح الموت » .

ألا ليت ضوء النهار الحق ينبثق كعهدى به فى هذه الدنيا من قبل، فلست أبصر دواما الا قبس الغسق أو السحر ، بشيرا بنهار وما صدقت البشرى . فماذا دهى الشمس ؟ لعمرى ان هذا أطول ليل وأوحشه ، وما أراه يؤذن بانقضاء يطلع فى أعقابه النهار، ليت شعرى هل أرى النور مرة أخرى ؟

***

كان حسبها من اكتئاب وهى جالسة فى مقعد مستطيل قرب النافذة أن تسرح الطرف فى شمس حائلة الضياء ، تشرق فوق أديم من الثلج ، من سماء استنزفت زرقتها، واستخبرت بعد ذلك ميراندا مرآتها : « أهذا وجهى؟ » ثم تحولت تسأل الآنسة تانر ، وقد رفعت يديها لتريها تلك الصفرة التى كأنها ذوب شموع تترقرق بين أصابعها المطوية : « أهذه يداى أنا ؟ »

ان البدن لوحش غريب الاطوار ، فما يصلح للمقام فيه . وكيف يسع المرء أن يخلد اليه آمنا مطمئنا ؟ وهل ترانى مستطيعة يوما أن آلفه ؟

ذلك ما ساءلت ميراندا نفسها عنه ، فوجوه البشر من حولها تبدو كالحة ذاوية ، فلا ضياء يشع من أديمها وعينيها ، كعدها بها. وأما الجدران البيضاء التى كانت تعهدها فى حجرتها فقد انقلبت رمادية ملطخة .

وكانت ميراندا تقضى وقتها متنفسة فى بطء ، مستغرقة فى النوم ، ثم مستيقظة كرة أخرى لتحس وقع الماء على بدنها ، ولتأكل أو لتتحدث حديثا مجدبا الى الدكتور هيلد شايم والآنسة تانر. وكانت فى كل ذلك تنظر الى ما يحيط بها عن عرض وفى جفوة، نظر الغريب يضيق صدره بأرض غريبة لا يفقه لسان أهلها وما له فى تعلمه أرب ، فلا هو يروض نفسه على المقام بها ، ولا هو يجد الى براحها سبيلا .

وعند مشرق الصبح من كل يوم تتنفس الآنسة تانر الصعداء وهى تنبئها قائلة : «طلع النهار» ، فقد ظهرت على الممرضة فى مدى ذلك الشهر الاخير علائم الكبر والاعياء فلزمتها .

ثم تشير لميراندا الى ذلك المشهد المملول بما تتراءى فيه من شجرات دائمة الخضرة وثلوج متراكمة ، وهى تغمغم: « صباح جديد أيتها العزيزة » ثم تروح وتجىء ولثوبها المنشى وسوسة ، وقد علت وجهها المساحيق فى غير اقتصاد، وكانت روحها كخالص الفولاذ لا تعرف الانكسار ولا تعترف بالهزيمة وهى تقول لها: « انظرى أيتها العزيزة أى صباح رائع كأنه البلور » . ذلك انها كانت تعطف على هذا الحطام الماثل أمامها ، على ذلك المخلوق البشرى الصموت الكنود الذى وفقت هى ، كورنيليا تانر، الممرضة البارعة ، فى انتزاعه بيديها من بين براثن الموت ، وكانت الآنسة تانر تقول للمرضات الاخريات: «مازال التمريض تسعة أعشار العلاج ، فضعن هذا نصب أعينكن . » وحتى ضوء الشمس كان تذكرة دواء أعدتها الآنسة تانر خصيصا لابلال ميراندا. تلك المريضة التى نفض الاطباء أيديهم منها ، وهاهى الآن تنهض دليلا ملموسا على صواب رأى الآنسة تانر . فكانت وهى تقول لها :« انظرى الى ضوء الشمس الآن» كأنها تقول لها: « لقد أمرت لك بها يا عزيزتى ، فهيا اجلسى وتناوليها» فتجيب ميراندا حينئذ :« ما أجملها » وتتجه نحوها لتنظر ، شاكرة للآنسة تانر رقتها ، وكرمها ، ولاسيما بصدد

الجو : « لقد كنت دائما أحب ضوء الشمس » . ثم تقول فيما بينها وبين نفسها: وربما أحببتها لو رأيتها . ولكن الواقع انها لم تكن تستطيع أن تراها . فليس ثمة نور ، ولعله لايكون هناك نور بعد ، بالقياس الى ماينبغى القياس اليه من النور الذى أبصرته على شاطىء ذلك البحر الازرق الممتد فى كنف فردوسها . لقد كان ذلك الفردوس رؤى طفلة تحلم بمرتع سماوى الروعة ، ومسرحا للروح يتنزل على الجسد المضنى فى هدأة النوم ، ولكننى بصرت به وأنا لاأعلم أنه حلم حالم .

وتغمض ميراندا عينيها ، وتلبث برهة تستعيد بالتذكار تلك النشوة التى كانت عوضا جميلا عن كل ماتجشمته فى الرحلة اليها من مشاق . ثم تفتح عينيها فتتجدد لديها لواعج الالم من ذلك العالم الكالح الذى قضى عليها أن تحيافيه ، وكأن أنواره وقد غشيت فى كل موضع ببيوت العنكبوت ، فاذا كل وضىء وقد اكتنفته عتمة ، وكل قسيم وقد اختلط وضوى ، فكل مافى ذلك العالم من شىء وخلق خاو بلامعنى . آه للاشلاء والدمن البوالى ، زين لها أن بها حياة !

حتى اذا سجا الليل ، بعد طويل عناء اضطجاعها فى مقعدها . ثقل عليها الحزن على فقدان مانعمت به لمحة وجيزة ، فتنطوى فى رقدتها وتنوح نواحا صامتا وفى غير احتجاز ، حسرة على نفسها ومفقود بهجتها ، فلم يكن ثمة مهرب لها : فالدكتور هيلد شايم ، والآنسة تانر ، والممرضات القائمات على شئون التغذية ، والكيماوى ، والجراح ، وجهاز المستشفى الدقيق بأكمله ، وماتواضع عليه المجتمع والعرف الانسانى ، كل هؤلاء ائتمروا على ماوهن من عظمها وذاب من لحمها كى تستوى على قدميها ويستقيم ذهنها بعد اضطراب وخلل ، فتم لهم ماأرادوه لها من رجعة الى الطريق الذى سوف يسلمها الى الموت كرة أخرى .

وجاء لزيارتها تشاك رونسيفال ومارى تاونزند ، وحملا اليها حزمة من الرسائل التى حفظاها لها وسلة من الازهار الصغيرة الرقيقة التى تستنبت شتاء تحت ظروف خاصة تكفل لها الدفء ، فكانت فيها زنبقات من زنابق الوادى وزهور البسلة وأوراق السرخس ، ومن فوق هذا النور بدا وجهاهما صورتين ناطقتين للمرح والهزال .

وقالت مارى : « لقد خضـــت معركة حامية . أليس كذلك ؟ »

وقال تشاك : « لقد كتبت لك النجاة . أليس كذلك ؟ » . وبعد برهة صمت فى غير ماقرار قالالها ان الجميع متشوقون لرؤيتها ثانية جالسة الى مكتبها ، ثم قال تشاك : «لقد أعادونى بالفعل الى باب الرياضة ياميراندا »

واستغرقت ميراندا عشر دقائق تتحدث اليهما باســمة عن مبلغ سرورها وابتهاجها اذ ألفت نفسها على قيد الحياة . فانها لم تجد طائلا وراء كشف النقاب عن المؤامرة أو العبث بشجاعة الحياة ، والنــاس أجمعون قد اتفق رأيهم على امتداح الحياة والتعلق بهــا ، فمابقى من يجادل فى ذلك ، وكل من يهم بانكاره فقد ضل وحق عليه النبذ والاهدار . ثم قالت لهما أخيرا : « سأعود اليكم فى أقرب وقت . فقد تم لى الشفاء أو كاد »

وكانت رسائلها كومة كبيرة ، قربعضها فى حجرها والبعض الآخر الى جوارها ، فكانت بين الحين والحين تقلب احداها فتتصفح الخط وتعرف للفور بعض أصحابه ، أو تنظر فى طوابع البريد المطموسة وفى الاختام ثم تلقيها من يدها ، فلبثت الرسائل فوق المائدة التى الى جوارها يومين أو ثلاثة ، وهى عازفة عنها « انها ستتضمن جميعها ذلك الحديث المعــاد ، ما أطيب الحياة ، وكم يحبوننى ، وما أشد سرورهم بنجاتى . وبماذا عساى ان أجيبهم ؟ » ثم يقشعر قلبهــا الفاتر الجافى قشعريرة اليأس من ذات نفسه ، لان ذلك القلب كان عهده بنفسه من قبل رقيقا حانيا متفتحا للحب .

ورأى الدكتور هيلدشايم ذلك فقال : « ماهذا ؟ ألم تفض كل هذه الرسائل بعد ؟ » فقــالت الآنسة تانر : « اقرئى رسائلك ياعزيزتى سأفضها لك » ، ثم وقفت بجانب السرير وراحت تفضها بمقشط فضا أنيقــا . وأخرجت ميراندا ، فراحت تقلب الرسائل لتتخير منها ، الى أن وجدت خطابا هزيلا مكتوبا بخط لاعهد لها به ، فقالت الآنسة تانر : « كلا ، ليس هكذا ، بل خذيها حيثما اتفق . وسأقدمها لك واحدة واحدة » ثم جلست عازمة على تقديم ذلك العون حتى منتهاه .

وكانت الرسائل كلها تضرب على نغمة واحدة : مشيدة بحلاوة النجاة وانتصار الحياة والابتهاج بها . وكانت توقيعات مرسليها مستفيضة كأنها انبعاثات نفخات في البوق تجتاح الهواء . وكان فريق من هؤلاء الموقعين أحب من أحبت ، وفريق آخر منهم كان في معرفتها لهم صحبة هنية ومتاع ، وفريق ثالث قليل النفر لم يكن لهم في نفسها يوما أثر .

أما الخطاب الهزيل الذي لم يكن لها بخط صاحبه عهد ، فكان من رجل غريب عنها يجمعه وآدم معسكر واحد ، كتبه ناعيا اليها آدم الذي قضى في مستشفى المعسكر بالانفلونزا . وكان آدم قد عهد اليه ان هو حم قضاؤه أن ينبئها نبأه عن يقين .

ان هو حم قضاؤه . أن ينبئها نبأه عن يقين ، ان هو حم قضاؤه — « صديقك ، آدم باركلي » . ذلك ما سطره هذا الغريب . لقد وقع المحظور ، وحم قضاؤه — ونظرت الى تاريخ الخطاب — منذ أكثر من شهر .

وتوجهت الى الآنسة تانر التي كانت تطوي الخطابات وتعيدها الى أغلفتها فسألتها : « لقد قضيت هنا ردحا طويلا ، أليس كذلك؟ » فقالت الآنسة تانر : « أجل ، مدة غير يسيرة . ولكنك الآن على وشك الخروج ، بيد أنه يلزمك أن تتحرى الحذر وتتجنبي الارهاق ، وينبغي أن تترددي علينا بين الفينة والفينة كي نفحصك ، فان العقبات في بعض الاحيان قد تكون ... »

***

وأمام المرآة شرعت ميراندا تكتب بعناية : « صباغ شفاه متوسط ، قارورة عطر ، أوقية واحدة من رائحة غابة الشتاء ، قفاز من الجلد الرمادي بدون معصم ، وجوربان رماديان بدون تطريز » ، فلما قرأت « مدن » ما كتبته قالت لها : « أتتعمدين أن يكون كل شيء خاليا من كل زخرف ، حتى ستحيل على العثور على طلبتك؟ »

فقالت ميراندا : « اجتهدى على كل حال . فانها ألطف بغير زخارف، وأتينى أيضا بعصا أتوكأ عليها من خشب فضى اللون لها مقبض من الفضة»، فنبهتها «مدن» الى أنها ستكون غالية الثمن «ولا يستأهل المشى ذلك كله »فقالت ميراندا : «معك حق » ثم كتبت فى الهامش : « عصا لطيفة الشكل تتناسب مع بقية الاشياء المشتراة » ، ثم قالت : « اطلبى الى تشاك أن ينتقيها يامارى بحيث تكون جميلة المنظر غير ثقيلة الوزن »

وكتبت أيضا : «حق من الكريم المرطب ، وصندوق من ذرور المشمش » ثم سألت : « أترانى يامارى بحاجة الى شىء أضلل به عينى ؟ « ونظرت الى وجهها فى المرآة واستطردت بعدئذ :

« فلست أرى موجبا لاستثارة الرثاء لهذا الحطام ، ولنا عن ذلك فى التجمل مندوحة » . فقالت لها مارى تاونزند :

« سوف لا تعرفين نفسك فى مدى أسبوع واحد ، فسألتها ميراندا :

« أتظنين يامارى اننى يمكن أن استرد حجرتى السابقة ؟ »فقالت مارى « ما أيسر هذا ، فقد خزنا متاعك كله لدى الآنسة هوب»، فعجبت ميراندا فى ذات نفسها لما يبذله الاحياء من وقت وجهد لخدمة الموتى . ولكنها ليست الآن فى عداد الموتى ، وانما هى بين بين :قدم فى هذا العالم وقدم فى ذاك . وعما قريب تسترد ما قدمت من قدمها فتخلص للحياة مرة أخرى ، وعندئذ سترى النور نورا حقا وسوف يثلج صدرها أن يبلغها افلات أحد ممن تعرف من قبضة الموت ، ولسوف تزور هؤلاء الناجين وتعينهم فى شأن ملبسهم وتحدثهم عن حسن طالعهم بالنجاة ، وعن مبلغ فرحها بوجدانهم .

واستطردت تحدث نفسها : لن تلبث مارى أن تعود بقفازى وعصاى ، فلا بد أن أنهض الآن ، فأودع الآنسة تانر والدكتور هيلد شايم . أما أنت يا آدم فلم يكتب عليك أن تموت مرة أخرى ،

ومع هذا فقد كنت أتمنى أن تكون ها هنا . كنت أتمنى أن تبل وتنجو ، فلأى شيء تظن يا آدم أننى عدت الى الحياة ؟ ألكى أخدع فيها هاتيك الخديعة ؟

واذا به مائل بجوارها ، لا تراه عين وانه لقائم . شبح هو وانه لأحفل بالحياة منها : ضلالة قلب سادر لا تطاق . وقد علمت أنها وهمت ، بيد أنها تعلقت بضلالة شوقها القاهر النكراء . وقالت : « أحبك » وارتجفت فى وقفتها وهى تستحثه على الشخوص لعينيها بكل ما أوتيت من عزم الارادة ..

« لو أوتيت أن أبعثك من القبر لفعلت .. ولو أوتيت أن أرى خيالك لآمنت ... »

ورفعت عقيرتها وقالت : « آمنت .. فهب لى أن أراك مرة أخرى » ...

وكانت الحجرة ساكنة خاوية ، فقد انصرفت الروح ، وقد أفزعها نهوضها وارتفاع صوتها بالكلام ..

وثابت الى نفسها ، كمن تفيق من نومها ، وعنفت نفسها : ما هكذا كان ينبغى لى .. ولن أعود اليها أبدا ...

وأنبأتها الآنسة تانر « ان سيارة الاجرة فى انتظارك أيتها العزيزة » ... وها هى مارى قد حضرت ، فلتتأهب للمضى .

لا حرب الآن ولا وباء .. وانما هو السكون الهائم الذى يعقب صمت المدفعية الثقيلة ، فالبيوت ساكنة مسدلة الاستار ، والشوارع خاوية ، والنور الحائل الخائر ينبىء عن طلعة المستقبل .

وفى الوقت من بعد متسع لكل شيء .

أبناء وأفناء

للكاتبة الأمريكية المعاصرة

كاترين آن بورتر

نقلتها إلى العربية

الكاتبة الكبيرة

السيّدة صوفي عبد الله

أبنـــاء الفنـاء

القسم الاول : ١٨٨٥ ـ ١٩٠٢

كانت شـابة بادية الاقدام ،ذات شعر قاتم متموج تفرقه من جانب الرأس ،من فوق وجه بيضاوى قليل الطول ، يتميز بحاجبين مستقيمين وفم عريض مقوس ٠ وترتفع من عنـق صـدارها الاسـود المحبـوك الازرار ياقـة مسـتديرة بيضاء ٠ وللصـدار سواران أبيضان مستـديران يحيطان بمعصمى يدين مكسالين تعلو مفاصلهما غمازات تنبى عن البضاضـة والنعـومة ٠ وقـد استرخت هاتان اليدان بين ثنايا ذيل ثوبها الفضفاض ٠

وهكذا جلست تلك الشـابة فى وضعها الابدى فى صـورتها الفوتوغرافية ، مسـتقرة داخل اطار من خشب الجوز القاتم تزين أركانه أوراق البلوط الفضية ٠٠ وقد افتر ثغرها عن ابتسامة تنم عن الاسـتهانة ، طالمـا بعثت فى بنتى أخيها ماريا وميراندا شعورا بالقـلق ٠٠ وكثـيرا ما كانتـا تعجبـان لمـاذا ينظر النـاظرون الكبار الى هذه الصورة فلا يلبثون أن يقولوا : « ما أجملها ! » ولماذا يعتقد كل من عرفها شخصيا انها عظيمة الجمال والفتنة ٠

وكان فى محيط الصورة منظر من المبـاهج الزائلة يتمثـل فى اناء الزهر وسـتائر سـميكة منسدلة من المخمل ٠٠ وكلاهما من طراز عفى عليـه الزمن ٠ بل ان ثوبها نفسه لم يكن جميلا فى غرابته ، بل كل ماتأخـذه العين أنه شـديد المباينـة لزى العصر الراهن ٠٠ وتقتـرن الصـورة بأكملهـا فى ذهن الفتـاتين الصغيرتين بأشياء انتهت وذهبت ،كرائحة سجائر جدتهما الطيبة ، وبأثاثها الذى يفوح منـه شهـد النحل ، وبعطر « زهر البرتقال» الذى كانت تفضـله على غيره من العطور ٠

لقد كانت تلك الشابة المصورة داخل الاطار هى « العمة آمى » وهى الآن مجرد شبح فى اطار ، وقصة جميلة مؤثرة من أقاصيص الزمن الخالى .. فقد كانت جميلة ، محبوبة أيما حب ، بيد انها شقيت ، ثم قضت نحبها وهى فى ميعة الشباب .

وكانت الفتاتان تتوهمان أنهما عاشتا دهرا طويلا ، وما عمر ماريا وميراندا فى الواقع الا اثنتاعشرة سنة وثمانى سنوات .. فليست حياتهما مابلغه عمرهما فحسب ، بل خيل اليهما أن ذكرياتهما قد بدأت قبل مولدهما بزمن طويل ، فى حياة البالغين ممن يحيطون بهما ، ومعظمهم أسنوا فنيفت أعمارهم على الاربعين ، ولهم ولع خاص بتوكيد أنهم كانوا أحداثا يوما ما .. وذلك أمر تصديقه عسير ..

ووالد الفتاتين هو « هارى » ، شقيق العمة آمى . وكانت هى الاخت الأثيرة لديه . فكان يرمق صورتها أحيانا ويقول : « لا أراها مطابقة كل المطابقة . فقد كان شعرها وكانت ابتسامتها هما رأس محاسنها ، ولم تظهرهما هذه الصورة على الاطلاق . وكانت أيضا أكثر نحولا من الصورة بكثير . فلم يكن فى الاسرة والحمد لله أحد من ذوى البدانة !

وكانت الفتاتان ، حين تسمعان أباهما يقول مثل هذا القول ، تنتابهما حيرة فى غير استهجان : ماذا عساه يعنى . فقد كانت جدتهما نحيلة كعود الثقاب ، وتتراءى والدتهما التى انقضى على موتها زمن طويل وكأنها فى صورها فتيلة شمعة ! وهنالك فتيات اتضح لهما انهن حفيدات لجدتهما العجوز مثلهما ، وقد جئن لزيارتهما فى عطلة المدرسة ، يباهين بخصورهن التى لا تتجاوز الثمانى عشرة بوصة . ولكن ماقول أبيهما فى عمتهما الكبرى « اليزا » التى تحشر نفسها حشرا فى الابواب المفتوحة ، فاذا جلست كانت بناء هرميا متصلا من القاعدة الى القمة ؟! وما قوله فى عمتهما الكبرى « كزيه » التى تقيم فى كنتوكى ؟ فهذا زوجها العم « جون جاكوب » قد أبى عليها أن تركب جياده العتاق بعد أن بلغت زنتها مائتين وعشرين رطلا ، قائلا فى صدد ذلك : « كلا .. ماماتت فى صدرى مشاعر عهد الفروسية وتقديرها للنساء . ولكن لم يمت كذلك حسن تقديرى للامور ، دع

واجب الاحسان نحو أصدقائنا الاوفياء من العجماوات ... ولعل أفضل الصفات هى الاحسان .. فلما قيل للعم « جون جاكوب » ان الاحسان يوجب عليه ألا يجرح زهو سيدة مثل زوجه بذلك التعليق على هيئتها ، قال فى خشونة : « زهو النساء قد يزول ويرجى منه الشفاء ، أما ظهور جيادى فلا .. ولو أن زوجتى تشعر بالزهو النسائى الواجب لما صارت الى هذه الهيئة أصلا ..»! واذا كانت للعمة « كزيه » هذه الشهرة لوزنها الثقيل . أتراها اذن ليست من الاسرة ؟ يظهر أن ذاكرة أبيهما يعتريها شىء من الاختلال حين يفكر فيمن عرفهن فى صباه من فتيات الاسرة .. فيزعم فى غير تحفظ أنهن كن جميعا ، وفى سائر الاجيال بغير استثناء ، فى نحول أعواد اليراع ورشاقة الحور .

كان ذلك الولاء من أبيهما القائم فى وجه أدلة ماثلة تنقض رأيه ، انما مصدره الشعور بالرباط العائلى ، ثم حب التغنى بمحامد الاسرة ، وهو يشترك فى ذلك مع سائر أفرادها . فهم جميعا ذوو ولع بالرواية ، يروون القصص كله ما بين عاطفى وشاعرى وفكاهى ، لا يخلو من لمحات الخيال ، فهم لا يزينون الظروف الخارجية ، وانما المهم عندهم بواعث الشعور . فقلوبهم ومخيلتهم معلقة بالماضى ، ذلك الماضى الذى لم يكن للاعتبارات الدنيوية فيه كبير حساب .. وانما هى قصص تدور فى الاغلب الاعم حول أفانين من الحب أظلتها سماء شفافة الاديم ، صافية اللازورد .

والصور الشمسية ، والرسوم التى نقشتها ريشة مصورين غير مهرة ، كانوا يقصدون بها التعليق ... ، وأثواب الاحتفالات المطوية على أعشاب مجففة وأوراق كافور ، كانت كلها مخيبة لآمال الفتاتين حينما توائمان بينها وبين الصور الحية التى خلقتها فى مخيلتها ألفاظ ذويهما النابضة بالحياة .

وكانت الجدة حين تشعر بتقلب الفصول مرتين فى كل سنة تجلس يوما كاملا تقريبا فى حجرة المخزونات بين الحقائب والصناديق ، فتبسط مطوى الثياب والتذكارات ، وتنثرها فوق ملاءات على الارض من حولها .. ثم تبكى شجوها فوق بعض تلك الاشياء .. هى هى بعينها فى كل مرة .. ثم ترمق صورا

محفوظة فى علب من المخمل ، وتنشر خصلات من الشعر وأزهارا مجففة ٠٠ ويتساقط الدمع من مقلتيها في هدوء ويسر ، حتى لكأن الدموع كل ما أبقت عليه لها الايام من متاع !

وان أخلدت الفتاتان الى الهدوء ، ولم تمسا شيئا الا ما يقدم اليهما ، اذن لهما فى الجلوس بجانبها فى تلك الاوقات ، أو فى المجيء والرواح ٠٠٠ اذ كان من المتفق عليه ضمنا أن الذى يبدو عليها هو أخص ما يخصها ، فلاينبغى أن يلحظه أحد أو يشير اليه أحد ٠٠ وكانت الفتاتان تفحصان ماتقدمه اليهما من أشياء تباعا ، فلا تجدان لهذه الاشياء فى حد ذاتها وقعا خاصا ٠ فان هى الا أكاليل صغيرة للرأس أو للعنق رثت من قدم ، وبعضها مصنوع من أصداف لؤلؤية ، أوهى حزم قرمزية من ريش النعام مما يتخذ لزينة الرأس وقد عاثت فيه العثة ، أو هى دبابيس ضخمة قبيحة المنظر مما كانت تزدان به الصدور ، أو أساور من الذهب والميناء الملونة ٠٠ أو أمشاط سخيفة ذات أسنان طويلة تتوجها حبات من اللؤلؤ الدقيق الحجم والعجائن الفرنسية التى تصنع منها الجواهر الزائفة ٠

ولا تدرى ميراندا لماذا كانت تشعر ازاء هذه النوافل بالأسى ٠ فقد أحزنها أن تكون هذه الاشياء التى حال لونها ، وتلك القفازات الطويلة المصفرة ، وتلك الخفاف المصنوعة من الاطلس الحائل ، وتلك الشرائط العريضة المتكسرة من حيث ما طويت ، هى كل ما كانت تلك الصبايا الراحلات يتزين به ٠ وأين هن الآن ؟ وأين الآن أولئك الايفاع ذوو الياقات العجيبة الشكل ؟ لقد كان أولئك الشبان أنأى عن الواقع من تلك الفتيات ٠٠ بما كانوا يرتدون من سترات ترتفع أزرارها وتعلو الى قرب العنق ، وبما كانوا يرتدون من أربطة عنق منتفشة ، وبما فى وجوههم من شوارب مثبتة بالمعاجين ، وبما فوق رؤوسهم من شعر متموج غزير يرجلونه بعناية فوق جباههم ٠ فمن التى تأخذ هؤلاء مأخذ الجد وهذه سماتهم ؟؟

كلا ٠ لقد استحال على ماريا وميراندا أن تشعرا بالعطف على هؤلاء الشبان الجالسين للآلة المصورة فى جمود ، وفى أزياء

عفى على طرازها الزمن ، بيد أنهما استقادتا لذلك الحب الخفى الذى يكنه الاحياء اذ يذكرون هؤلاء الموتى على هذا النحو من الاعزاز ... لقد كانت البقايا الواقعة تحت البصر عدما وتراباء يفنى كما تفنى الابدان ، وكانت الملامح المسجلة على الورق والمعدن عدما أو كالعدم ، على أن ذكراهم الحية قد استهوت الطفلتين ، فكانتا تنصتان ملء الآذان ووعى الاذهان ، وتتصيدان من هنا وهناك نتف الاخبار ، وتجمعان جهد ما يتفق لهما أشتات الاقاصيص التى كانت عندهما ضربا من مقطوعات الشعر أو الموسيقى ... لانها كانت تقترن فى خاطريهما بما تسمعان أو تقرءان من شعر ، وبما تعرفان من الموسيقى ومن ملاعب التمثيل .

ـ خبرينا مرة أخرى كيف رحلت العمة آمى عند زواجها ،

ـ لقد خرجت تعدو فى البرد القارص ثم دخلت العربة والتفتت نحونا وابتسمت عن وجه ممتقع كوجه الموتى ، وصاحت : « وداعا . وداعا . وأبت أن ترتدى دثارها قائلة : « بل أعطونى كأسا من الخمر » .. ولم يرها أحد منا بعد ذلك على قيد الحياة أبدا ..

ـ ولماذا أبت أن ترتدى معطفها يا ابنة العم كورا ؟ ..

ـ لانها لم تكن عاشقة يا عزيزتى ...

ـ وهل كانت جميلة حقا أيها العم بيل ؟

ـ جمال الملائكة يا بنيتى ...

اننا نرى ملائكة ذوى شعر ذهبى يرقصون فى مآزر زرقاء مزركشة حول عرش العذراء المقدسة . ولكن ما من أحد من هؤلاء الملائكة يشبه العمة آمى فى كثير أو قليل ، وليس لهم أيضا شىء من سمات الحسن التى نشأنا على الاعجاب بها . فثمة صفات لا بد منها للاعتراف بالجمال . فالجميلة يجب أولا أن تكون طويلة القامة ، وأيا كان لون عينيها فلا مناص من أن يكون شعرها قاتما .. وكلما احلولك لونه كان أفضل . وينبغى أن تكون البشرة شاحبة ناعمة ، وكذلك الخفة وسرعة الحركة من الاهمية بمكان .. فلا بد للحسناء من اتقان الرقص ،

واجادة ركوب الخيل ، وهدوء الطبع والبشاشة والطلاقة فى اتزان دائم ، ولا خلاف فى ضرورة ملاحة الاسنان واليدين ، ولكن يأتى قبل هذا كله ذلك التاج الخفى من الفتنة التى تجتذب القلوب فتأسرها ... وتلك كلها صفات مثيرة مشبطة للعزائم !

فهذه ميراندا قد تسلطت عليها فى طفولتها فكرة عجيبة ، هى أنها ستنمو يوما رغم ضآلتها ونحافتها وصغر أنفها المرقش ، وعينيها الرماديتين المرقطتين وفورات غضبها المتكررة ، وأنها بمعجزة من المعجزات ستصبح حسناء ، هيفاء ، طويلة القامة ، سمراء اللون ، كبنت عمها ايزابيل ، وقررت أن ترتدى ثيابا جرارة الذيول من الحرير الابيض .

أما ماريا ففطرت على التعقل منذ ولادتها ، فلم تخامرها هذه الاوهام ، بل كانت تقول لميراندا : « سوف نشب على غرار آل أمنا ، ولا مفر لنا من ذلك . فلن نغدو جميلتين يوما .. ولن يفارقنا ترقيش هذا الكلف أبدا ... وأما أنت فينقصك أيضا حسن الطبع » !

وكانت ميراندا تعترف بصدق هذا الحكم القاسى وصوابه ، بيد أنها ظلت تمنى النفس خلسة بهبوط الجمال عليها ذات يوم فجأة ، كما يهبط الميراث فجأة على الوارثين من غير مجهود لهم !!

وظلت تعتقد ردحا طويلا من الزمن أنها ستشبه عمتها آمى فى يوم من الايام ، لا كما تمثلها الصورة ، بل كما تتمثل فى أخلاد من عرفوها رأى العين .

وعندما برزت بنت عمها ايزابيل فى ثوب ركوبها الاسود المحبوك ، وقد أحاط بها الشبان .. وهى ممتطية صهوة جوادها فى رشاقة ، تسوسه فيتواثب بها فى حنكة ودراية تميزت بهما عن مجموعة الراكبين .. خفق قلب ميراند خفقان الاعجاب والحسد والزهو ، حتى لقد تألمت لفيض ذلك الشعور ، لولا أن هدأت سورتها يد بعض ذوى السن من آلها ، وقد استقرت على ذراعها ، اذ يقول لها : انها تكاد تلحق آمى فى اجادة ركوب الخيل ، أليس كذلك ؟ ولكن آمى كانت تركب على النسق الاسبانى

الصرف ، وتحمل جوادها على ضروب من القفز لايقدر عليها غيرها .

وكانت سميتها الشابة آمى تخرج للرقص ، فتمرق وسط البهو رافلة فى الخز الابيض الذى يلمع فى نور المصابيح ، كالفراشة ، وقد جعلت مرفقيها الى وراء كأنهما جناحان ، وهى تمشى مشية زمنها المثلى ، فكأنها تنساب على عجل انسيابا . وكانت تعتبر أمهر راقصة فى أى محفل ، فكانت ماريا تتنسم ريح آمى وتصفق بيديها قائلة :

ـ أوه ! لا صبر لى حتى أكبر ..

ولكن ذوى السن مجمعون على أن « آمى » الاولى كانت أرشق وألبق وأرق فى رقصاتها ، فلاسبيل لآمى الصغرى الى بلوغ شأوها !

وهذه بنت عمها مولى بارنجتون التى جاوزت فترة الشباب بزمن مديد ، بل الحق أنها من جيل سابق على جيل العمة آمى ، لاتزال ملحوظة التأثير ، فالرجال الذين عرفوها العمر كله مازالوا يحيطون بها . ولا يخالج أحد الشك فى أنها ستتزوج مرة ثالثة بعد أن تأيمت بفضل الله مرتين ! ومع هذا يقول ذوو السن ، أن « آمى » كانت لها روحها وجرأتها ، ولكن فى غير استهتار وتهجم . فانه لايسع أحدا أن يصف مولى بحسن التدبير ، فهى تخضب شعرها ثم ترسل النكات حول الخضاب ! وكانت لها طريقة خاصة بها لاجتذاب الرجال ، فيحدقون بها فى ركن قصى لتسرد على أسماعهم الاقاصيص .. وكانت أما غير سوية لابنتها القبيحة الحلقة « ايفا » التى أضحت عانسا نيفت على الاربعين ، وأمها لاتزال زينة المراقص ... وعنها تقول مولى فى غير حياء : « لقد ولدتها وأنا فى الخامسة عشرة كما تذكرون » ، ثم تثبت عينيها فى عينى صاحب لها كهل متصاب ... وكلاهما يذكر أنه كان شاهدها فى حفل قرانها الاول ، ولها يومئذ من العمر أحد وعشرون عاما .. ثم تردف قائلة :

ـ لقد قال الجميع اننى كنت كالطفلة حاملة دميتها .....

وكانت ايفا الحجول التى لا ذقن لها تجلس مادة شفتها العليا فوق سنيها الهائلين ، فتقبع فى ركن من الاركان ترقب أمها .. وقد بدأ عليها مظهر الجائع وأطل من عينيها الاعياء والكلال ... وكانت ترتدى ثياب أمها القديمة بعد أن تصلح من شأنها، وتشتغل بتدريس اللغة اللاتينية فى دير الراهبات ، وتؤمن بحق المرأة فى التصويت ... وقد طافت بالبلدان داعية لهذا المطلب ، وحينما لا تكون امها حاضرة ، تنبسط اساريرها شيئا ما ، وترقص فتجيد ، وتهش باسمة فتفترعن أسنانها جميعا ، فكأنها نبتة جافة هبط عليها طائف رحمة من الغيث ..

وكان من عادة مولى أن تهز أبوليدتها الشوهاء ، فتقول فى قسوة :

ـ انه لمن حسن طالعى أن تشب ابنتى عانسا لايسعها أن تجعل منى جدة ...

فيحمر وجه ايفا ، وكأنها قد صفعت .

ولاشك فى أن ايفا كانت على قسط من السخافة بيد أن الفتاتين الصغيرتين كانتا تشعران أنهما تنتميان الى عالمهما اليومى الحافل بالدروس المملة التى ينبغى أن تحفظ ، والنعال الصلدة التى يجب أن تنتعل ، والثياب الثقيلة الخشنة التى لامناص من احتمالها فى قر البرد ، والحصبة والآمال المخيبة .

أما عمتهما آمى فهى من عالم الشعر .. فهذه قصة غرام العم جبريل بها غراما طال به الامد فى غير استجابة منها ، ثم موتها الباكر .. وكأنها من أقاصيص تلك الكتب العتيقة العلوية الصادقة ، من قبيل « الحياة الجديدة » لدانتى ، ومقطوعات شكسبير ، وأغنية الزفاف لسبنسر ، وقصائد ادجار آلان بو التى كان يقرؤها أبوهما لهما ثم يقول : « لقد كان شاعرنا الاعظم » .. فتدرك أنه يعنى بشاعرنا شاعر الولايات الجنوبية . فالعمة آمى لها وجودها الحقيقى ، مثلها فى ذلك مثل مافى كتبهما الاثيرة العتيقة من تصاوير لفولباين ودورر ، تلك التصاوير التى تنبطح الفتاتان على بطنيهما لترمقاها بعين مبهورة لايطيف بها طائف الشك فى صدق ماترى .

وما أكثر ماكانتا تفتقدان ألاعيب السرك ، والفانوس السحرى ، ولكن أباهما كان يأخذهما لمشاهدة « هاملت » و« ترويض النمرة » و« ريتشارد الثالث » ، ورواية طويلة مؤسية عن حياة مارى ملكة اسكتلندة ٠٠ ولقد وهمت ميراندا أن السيدة الرائعة الحسن ذات الثوب المخملى الاسود هى ملكة اسكتلندا حقا وصدقا ٠ وساءها أن تعلم أن الملكة الحقيقية ماتت منذ زمن طويل ، لافى تلك الليلة التى شهدت ميراندا فيها التمثيل ٠

وكانت الفتاتان تحبان المسرح ٠٠ ذلك العالم الذى يربى طول الناس فيه على طول بنى آدم ، ويهولون بمهابتهم وصوتهم واشاراتهم ، فكأنهم آلهة تسوس أمور الكون ٠٠ ولكن كان هنا لك دائما صوت يذكرهما بأيام سلفت كانت أهم وأروع ٠ فقد سمعت الجدة فى صباها صوت « جينى لينـد » ، وفى ظنها أن « نيلى ميلبا » قد نالت فوق قدرها ٠٠ أما الوالد فقد رأى سارة برنار ، وما كان لمدام مودجسكا أن تقاس بها ٠٠

وحينما حضر « بدروفسكى » ليعزف لاول مرة فى مدينتهما ، حضرت بنات العم من كافة أنحاء الولاية وانطلقن من بيت الجدة لسماعه ٠٠ وحرمت الصغيرتان من هذه الفرصة ٠٠ ولكنهما شاركتا فى الاهتمام بالخروج ، كما شاركتا فى بهجة العودة ، حين وقفت بنات العمومة زرافات ، وفى أيديهن أقداح القهوة والكؤوس ، يتحدثن همسا ، وفى وجوههن وميض الهناءة ! وشعرت الفتاتان بأهمية ذلك الحادث الجليل ، فوقفتا عن كثب فى ثياب النوم ترهفان السمع ، الى أن تنبه البعض لوجودهما فأبعدتا عن محيط ذلك المجد العظيم ٠٠ ومع ذلك فقد انبرى شيخ ممن سمعوا روبنشتين مرارا ، فأكد أن روبنشتين قد بلغ ذروة الاداء الموسيقى ، وان بدروفسكى لايمكن أن يقارن به ! ٠٠ وقد سمعت الصغيرتان قولته هذه وقد رفع احدى يديه ملوحا فى الهواء كمن يدعو الى الصمت ، فتطلع الجميع اليه منصتين فى هدوء لم ينتقض ، فما من أحد منهم سمع روبنشتين ، وهم قد سمعوا بدروفسكى منذ ساعة ، ففيم نبش الماضى ؟

وتسللت ميراندا مبتعدة وقد كرهت ذلك الشيخ ، لانها كانت تشعر كأنها هى أيضا قد سمعت بدورفسكى ٠

كانت اذن فى الدنيا حياة وراءهذه الحياة ، كما أن من ورائها فى الاخرى حياة ، وقد أكدت هذه الاقاصيص والتذكارات لدى الفتاتين نبالة الشعور الانسانى وقدسية تطلع الانسان الى غير المنظور ، وأهمية الحياة والموت ، ومبلغ مافى القلب البشرى من أغوار ، وما للمأساة من قيمة عاطفية . وهذه ايفا بنت عمهما وقد أخذت فى بعض زياراتها تغريهما بدراسة اللغة اللاتينية ، فأخبرتهما حديث «جون بوث» وكيف قفز الى ظهر المسرح فى عباءة فضفاضة سوداء جميلة ، بعد أن قتل الرئيس لنكولن ، وصاح بلسان فصيح على الرغم من كسر ساقه فى عبارة لاتينية: «هذه دائما نهاية الطغيان» . ولم يخامر الفتاتين أدنى شك فى وقوع الامر على هذه الصورة ، وبدت لهما وجاهة وجوب معرفة بعض الامثال اللاتينية ، أو على الاقل بعض نصوص الشعر الكلاسيكى ، للتمثل بها فى المناسبات الكبرى أو المواقف الحرجة .

وقد ذكرتهما ايفا أيضا بأنه ما من أحد ، ولو كان من أهل ولايات الجنوب ، يمكن أن يقرفعلة جون بوث . فانها جريمة قتل على كل حال ، وعليهما أن تذكرا ذلك دواما . بيد أن ميراندا كانت قد ألفت المآسى فى بطون الكتب وفى أساطير الاسرة . فقد أقدم اثنان من أعمام أبيها على الانتحار ، وذهب الحب بعقل جدة لها بعيدة ، فقر فى ذهنها أنه لولا وقوع ذلك القتل ، لما كان هناك مسوغ لارتداء العباءة الفضفاضة ، والوثب الى ظهر المسرح ، والصياح بعبارة لاتينية ، فكيف اذن تستهجن هذا الفعل ؟ فالقصة اذن طريفة ، وهى تعرف من ذوى قرباها الابعدين شيخا أغرم بفن بوث ، وشهده فى كثير من رواياته الكبيرة ، ولكنه لم يشهده للاسف فى لحظته الكبرى ! وأحزن هذا ميراندا . فقد كان يلذ لها كثيرا أن يكون مقتل لنكولن من تراث الاسرة .

***

والعم جبريل الذى أحب العمة آمى ذلك الحب اليائس ، لايزال على قيد الحياة فى موضع ما . وان كانت ميراندا وماريا لم ترياه قط ، فقد رحل بعد موتها بعيدا ، ولازال يملك جياد السباق يجريها فى الميادين المشهورة فى آفاق القطر ، وتلك وجهة لم تكن ميراندا ترى

فى الحياة ما يفوقها ألمعية ورواء. وقد تزوج مرة أخرى بعيد ترمله، وكتب الى الجدة يسألها أن تكون زوجته الجديدة بنتا لها فى موضع آمى . فأجابته الجدة جوابا فاترا بقبول مقترحه ، داعية اياهما لزيارتها . بيد أن العم جبريل لم يحضر عروسه لسبب ما . وقد زارهما هارى فى نيواورليانز ، فقرر أن الزوجة الثانية فتاة شقراء جميلة الطلعة حسنة التربية ليس من شك فى صلاحها زوجا لجبريل، ومع هذا لم يجبر ما أصيب به قلب العم جبريل من صدع ، فهو يكتب مرة فى كل عام عن وفاء خطابا الى بعض الاسرة ، يطويه على مبلغ من المال ثمن أكليل من الزهر يوضع على قبر آمى . ونظم قصيدة كى تنقش على قبرها ، ثم حضر بنفسه تاركا زوجته الثانية فى مدينة اطلانطا ليستوثق من أنها نقشت نقشا لائقا . ولم يكن يدرى كيف نظم تلك القصيدة ، لانه لم يحاول نظم سطر واحد من الشعر منذ فارق المدرسة . ومع هذا خطرت له تلك الابيات ، من حيث لا يعلم ، وهو يفكر ذات يوم فى آمى . وقد رأت ماريا ميراندا ذلك الشعر مطبوعا بحروف مذهبة فوق بطاقة نعى . اذ أرسل العم جبريل عددا كبيرا من هذه البطاقات كى توزع فى محيط الاسرة . وهذه هى الابيات :

« بعثت للحياة من احتملت الحياة ...

« ثم احتملت الموت وهى الآن طليقة ...

« فهى الآن ملاك صادح مرتل ، وقد نسيت ..

« أحزان أبناء الفناء » .

فسألت ميراندا أباها : « أهى حقيقة تغنى وترتل ؟ » فأجابها متسائلا : « وما علاقة ذلك بالقصيدة ؟ هذا شعر » ..

فقالت ميراندا مأخوذة : « أعتقد أنه شعر حسن » .

وكان العم جبريل ابن عم من الدرجة الثانية لوالدها وللعمة آمى . ومن شأن هذه القرابة أن تجعل الشاعرية دانية منها . فقال والدها : « لا بأس به من حيث انه شعر ينقش على قبر . ولكن كان ينبغى أن يكون أفضل من هذا »

وقد انتظر العم جبريل خمس سنوات الى أن تزوج من العمة آمى فقد كانت عليلة ، ضعيفة الصدر، وخطبت لشابين آخرين من قبل، ثم فسخت خطبتهما لغير سبب ٠ وكانت تضحك ساخرة مما ينصحها به من هم أكبر منها سنا وأكثر طيبة ، ممن كانوا يرونه نزقا منها ألا تستجيب لتعلق شاب فى مثل وسامة جبريل وروائه ، وهو بعد هذا من أبناء عمومتها ، فلا يستوى الزواج به وزواجها من رجل غريب! وقيل ان فتورها قد دفع جبريل الى حياة معوجة ، وافراط فى الشراب ٠ وكان جده ثريا ، وجبريل هو الاثير لديه ، وتشاجرا بسبب جياد السباق ، فصاح جبريل : « لابد لى من شىء » كأنما ليس له كل شىء فعلا من شباب وصحة وجمال ، وثراء منتظر ، وأسرة متعلقة به ٠ فبين له جده انه يكاد يكون عاقا ، وان حالته تنذر بأنه سيغدو متلافا ٠ فقال جبريل : « لقد كانت لك جياد سباق ، وقد أفدت منها شيئا كثيرا » ٠ فأجابه جده قائلا : « ولكنى لم أجعل منها يوما مصدر رزقى ياسيدى ! »

وكان جبريل يكتب الى آمى بذلك ، وما اليه ، من مدينة ساراتوجا ، ومن كنتوكى ، ومن نيواورليانز ، ويبعث اليها بالهدايا ، وبألطاف الزهر محفوظا فى الثلج ، وبالرسائل البرقية ٠ وكانت هداياه طريفة ، فهى تارة قفص كبير حافل بعصافير الحب الخضراء، وهى طورا وردة صناعية متفتحة ، مرصعة بالندى ، لزينة شعرها ٠ ومن فوق هذه الوردة حلية تمثل فراشة زاهية الالوان مثبتة فى سلك من الذهب تتراقص فوقه ٠٠ ولكن وصول الرسائل البرقية كان مصدر فزع لامها ، وكانت الزهور بعد الرحلة الطويلة بالقطار ثم بالعربة الى صميم الريف تبدو غير صالحة للزينة ٠ وكان يرسل الورود فى الوقت الذى تكون حديقة الورد فى أوج ازدهارها حول الدار ، فلا تملك آمى نفسها من الابتسام ، مع ان أمها تصر على أن هذا المسلك من جبريل مؤثر ولطيف ، لانه يقيم الدليل لآمى على أنها ماثلة دائما فى خاطره ، فكانت آمى تقول :

« ليس هذا المكان مما أرضاه لنفسى » ! ولكن كانت طريقتها فى الكلام ونبرة صوتها مما يستحيل على المرء أن يتبين : هل

تعنى ماتقول حقا أولا ؟ وكان من المحتمل أن تكون جادة فى ذلك مهما كان من شأنها أن تجيب عن الاسئلة حين تستوضح مكنونها

***

وقالت الجدة وهى تبسط عباءة فضفاضة من المخمل المتموج اللون كعنق الحمامة ، ثم تبسط الى جانبها ثوبا فضيا من الحرير الموج، وطاقية صغيرة من المخمل الرمادى تزينها ريشات قاتمة الحمرة : « هذا ثوب زفاف آمى . » وكانت بنت العم ايزابيل الحسناء جالسة بجوارها ، وعلى مقربة منهما ميراندا ، تملك السمع اذا عن لها أن تسمع ...

واستطردت الجدة قائلة : « لم يرق لديها أن تلبس البياض أو تتخذ الخمار ... ولم أبد اعتراضا ، لانى كنت قد قررت أن تتخذ كل بنت من بناتى ما شاءت من شارة الزفاف . ولكن رأيها أدهشنى ، فقد سألتنى : « كيف أبدو فى الخز الابيض ؟ » ... وكان لونها شاحبا حقا ، ولكنها كانت مع هذا حرية أن تبدو ملائكية الطلعة فى ثوب من الخز الابيض ... وأعلناها جميعا بهذا الرأى .. فقالت : « لى أن ألبس السواد ان أردت ، فهى جنازتى أنا ! » فذكرتها أن « لو » ، ووالدتك قد زفتا فى ثياب بيض ذوات خمار ، وانه مما يسرنى أن تزف سائر بناتى فى شارة متماثلة ... وقالت آمى : « ليست « لو » ولا « ايزابيل » مثلى ! . ولم أفلح فى اقناعها بتفسير ما تعنى بهذه العبارة . ويوماما ـ وقداعتلت ـ قالت لى : « أماه . سوف لايطول مقامى فى هذا العالم » . وخيل الى انها لاتعنى ما قالت ، فقلت لها : « قد تعمرين كما يعمر أى انسان اذا أنت توخيت العقل » فقالت آمى : « وهذا هو كل الاشكال ... وانى لاشعر بالاسف لجبريل ، فهو لايدرى أى شىء يجد فى طلبه » ... واجتهدت بعد ذلك أن أبين لها أن الزواج والاطفال سوف يشفونها من كل شىء ، فقلت لها : « لقد كانت كل نساء أسرتنا مهزولات وهن صغيرات ... بل ما كان أحد يتوقع لى وانا فى مثل سنك أن أعيش عاما واحدا ... وكانوا يسمونه (الخلوروز) فى الاصطلاح الطبى ، وهو مرض الحب الذى يصيب الفتيات ، ويعلم الجميع

أن ليس له الا علاج واحد ...» فقالت آمى : « ولو عشت مائة عام حتى غدوت من خضرة الخلوروز كالعشب ، فلن أرغب فى الزواج من جبريل » فقلت لها بمنتهى الجد : « انها اذا كانت تشعر حقا بمثل ذلك الشعور فيجب ألا تتزوجه ، ويجب أن يقال هذا لجبريل فورا ثم يمضى لحال سبيله حيث لا يعود . وسيتغلب على هذه الصدمة » فقالت آمى : « لقد صارحته وصرفته عنى فلم يذعن . » وضحكنا كلتانا لذلك الامر ، ثم قلت لها : « ان فى وسع الفتيات أن ينتحلن مائة طريقة لانكار مايعتمل فى نفوسهن من الرغبة فى الزواج ، وألف طريقة لاختيار مدى تأثيرهن فى الرجال . أما أنت فقد نلت من ذلك كله ما فوق الكفاية ، وآن لك أن تجدى كل الجد وتصدقى نفسك فى اتخاذ قرار حاسم . فاننى أنا شخصيا كنت راغبة من كل قلبى فى الزواج من جدك ، ولو أنه ما تقدم لطلب يدى لتقدمت أنا بذلك الطلب يقينا . » فأكدت لى آمى أنها لا تستطيع أن تتصور حاجتها للزواج من أى انسان ، وأنها تفضل أن تغدو عانسا لطيفة مثل ايفا بارنجتون . فقد كان واضحا حتى فى ذلك الوقت أن ايفا عانس مطبوعة ! فقال هارى : « ولكن ايفا ليس لها ذقن ، وهذا سر مشكلتها . فلو لم تكن لك ذقن يا آمى لكنت فى مثل مركز ايفا ولا شك » ! وقال عمك « بل » : « حينما لا تحصل المرأة على شىء آخر فانها تتعلق بحق الانتخاب على سبيل العزاء . وذلك لعمرى ضجيع لا يملأ الفراش ! » فقالت آمى : « ان كل ما أحتاج اليه ليس الا رفيقا يراقصنى ، حتى أجتاز حلبة الحياة ، وهذا هو الزواج الذى أتطلع اليه وكفى . » فلم يكن ثمت طائل وراء مناقشتها .

***

أما أخوتها فكانوا يذكرون بالحنان لطافة حسها وعقلها .

وبعد أن استمعت ماريا لتعليقاتهم على طبعها وأحوالها ، استقر رأيها على أنهم كانوا يرون فيها لطافة الحس والعقل لانها كانت تسألهم رأيهم فى وقع منظرها عندما تهم بالخروج الى المراقص . فاذا وجدوا شائبة فيه من أى وجه بادرت الى تغيير ثوبها أو نمط شعرها حتى يرضوا ، وتقول للواحد منهم : « انك لملك كريم

اذ تأبى لشقيقتك . المسكينة أن تخرج فى بزة مشوشة ! » ولكنها لم تكن لتنقاد لوالدها أو لجبريل . فاذا أثنى جبريل على ثوب كانت ترتديه ، فهى قمينة أن تختفى ثم تبرز فى ثوب آخر ، وكان يحب شعرها الاسود الطويل ، وقد رفعه ذات مرة عن وسادتها حينما كانت مريضة وقال : « انى أحب شعرك يا آمى ، فهو أجمل شعر فى العالم » ! فلما عاد فى زيارته التالية وجد شعرها مقصوصا معقوصا ، أدنى مايكون من جلدة رأسها ، ففزع كأنها قد شوهت نفسها عمدا . ولم ترسل شعرها بعد ذلك على سجية نمائه ، ولو ارضاء لاخوتها . أما الصورة المعلقة على الحائط فكانت قد أوصت بها لترسلها الى جبريل فى ذلك الوقت ، فردها بغير كلمة واحدة . فسرها ذلك ، وصنعت لها اطارا . وكتبت فى أسفل الصورة بحبر باهت دقيق : « الى أخى العزيز هارى الذى أحب شعرى مقصوصا .. »

وكانت تلك الكلمة اشارة عابثة خبيثة الى فضيحة خطيرة ! وكانت الفتاتان تنظران الى أبيهما وتعجبان فى سريرتهما : ماذا كان يمكن أن يقع لو أنه أصاب الشاب الذى أطلق عليه النار حقا ، والمعتقد أن ذلك الشاب كان قد قبل العمة آمى من دون خطبة ، وكان المفروض ان يتم براز بينه وبين العم جبريل . بيد أن أباهما كان أسبق اليه . وكان ذلك الأب والدا ظريفا لين العريكة ، من دأبه أن يضع بنتيه على ركبتيه اذا حسن زيهما وطاب سلوكهما . أما اذا لم ترجلا شعرهما وتلمعا أظافرهما ، فانه قمين أن يدفعهما عنه قائلا فى اقتناع تام : « اذهبا عنى فأنتما منفرتان » . وكان يلقى باله الى موضع الحياكة فى جواربهما ووجوب استقامته ، كما كان يدفعهما الى تلميع أسنانهما بمزيج مزعج من الطباشير ومسحوق الفحم والملح . فاذا تنكبتا فى سلوكهما ما ينبغى من الفطنة لم يطق رؤيتهما . وكانتا تدركان ادراكا غامضا أن ذلك كله لمصلحتهما مستقبلا ، واذا سال أنف احداهما لاصابتها بالبرد ، وصف لها مزيجا مستطابا حارا من الويسكى والبراندى والسكر والماء ، وأشرف بنفسه على تناولها اياه . وكان لايفتأ يرجو الى الله ألا تشبا فى كبرهما على ذلك الحظ من البلاهة التى كان يراهما متصفتين بها فى كل حين . وكان من عادته ان يسأل بطريقة خاصة

به محيرة : «ومن أين لك أن تعرفى» كلما نسيت واحدة منهما نفسها وأطلقت فى حضرته حكما قاطعا فى أمر ما ، وكانت النتيجة على الدوام أن يتضح جهلها المطبق بالموضوع ، وانها انما رددت شيئا سمعته من قبل . لهذا كان الحديث معه عملا شاقا ، فهو ينصب لهما شراكا تتردیان فيها ، بيد أنهما تعودتا الاهتمام بألا يعتقد أبوهما فيهما الغفلة !

وهذا الوالد نفسه هو الذى رحل الى المكسيك ذات مرة ولبث هناك زهاء عام ، لانه كان قد أطلق النار على رجل جرى بينه وبين العمة آمى فى بعض المراقص شىء من غزل جرىء . وقد أخطأ فى هذا أيما خطأ ، اذ كان ينبغى أن يدعوه للمبارزة كما دعاه العم جبريل . بيد أنه لم يفعل ، وانما أطلق عليه النار . وتلك أكبر سوأة ، وكانت لها فى الجالية كلها هزة عنيفة كادت تودى بما بين العمة آمى والعم جبريل الى الابد . فقد أصر العم جبريل على أن الشاب قبل العمة آمى . وأصرت العمة آمى على أن الشاب لم يجاوز اطراء شعرها .

وكانت النية قد عقدت على اقامة حفل رقص تنكرى كبير فى عطلة عيد الاعتراف . وقرر هارى أن يرتدى زى مصارع الثيران ، لان حبيبته ماريانا كانت قد تلقت زيا نسويا أسبانيا جاءها من بلاد المكسيك ، وقد شاهدت ماريا وميراندا صورة لأمهما وهى فى ذلك الزى . وقد بدا فيها وجه أمهما المليح خاليا من كل أثر للغنج ، ترنو بعينين جادتين من تحت غطاء رأس أسبانى بديع يتهدل من المشط العالى ، وقد رشقت فوق أذنها وردة . أما آمى فاقتبست زيها من صورة راعية منقوشة فوق طبق صغير من خزف درسدن معلق فوق مدفأة حجرة الجلوس . فجاء اقتباسها دقيقا حكى الاصل بالقبعة ذات الشرائط وتفاصيل الثوب ولونه ، والخف الاخضر ، محاكاة أمينة . ثم وضعت فوق وجهها قناعا نصفيا أسود ، لم يكن كافيا للتنكر اطلاقا ، فقد كان من الممكن ، على حد قول الوالد ، أن يعرف الناظر أنها آمى مهما كانت المسافة بينهما . أما جبريل الذى يزيد طوله على ستة أقدام وربع قدم ، فحاول أن يرتدى زيا مضاهيا ، فأصبح منظره عجبا ، وقد جعل على ركبتيه ذلك

الخز الازرق الباهت ، وفوق رأسه ذلك الشعر الاشقر المستعار وقد عقده بشريط عريض . فهو كما قال العم « بل » : « كان يشعر أنه كالأبله في ذلك الزى ، وكان يبدو أبله حقا ، بل انه سلك سلوك البلهاء قبل أن ينقضى ذلك المساء »

وقد سار كل شيء على ما يرام الى أن تجمعت الفرقة في الطابق الاسفل كى تتوجه الى المرقص . واذا بوالد آمى — وتخاله ميراندا قد ولد جدا — يرمق ابنته بنظرة تبين منها أن كعبيها البيضاوين لامعان ظاهران ، وأن صدرها قد ظهر منه أكثر مما ينبغى ، وقد علت وجنتيها بقعتان مستديرتان من الطلاء ، فانفجر ثائرا لذلك الحياء الجريح ، وصاح بأعلى صوته : « ان هذا لشائن . ولن تبدى ابنة لى نفسها للناس فى مثل هذا الهندام . انه فجور . فجور ! »

فرفعت آمى القناع وابتسمت قائلة له بكل رقة : « عجبا يا أبى ، ماذا تعيب عليه ؟ أنظر الى رف الموقدة ، فقد انقضى على الصورة هذه فى موضعها زمن طويل ، ولم تثر غضبك من قبل » فقال أبوها : « القياس مع الفارق الشديد . مع الفارق الذى ليس مثله فارق أيتها السيدة الشابة . وقد علمت ذلك .. فاصعدى فى هذه الدقيقة وأقفلى صدرك من أمام ، ثم اسدلى هذا الذيل الى طول لائق من خلف ، قبل أن تغادرى هذا البيت ، واغسلى وجهك ! »

فقالت أم آمى فى حزم : « لست أرى فى هذا الهندام عيبا . ثم لا ينبغى لك أن تستخدم هذه الالفاظ على مسمع من الفتيات الطاهرات » . ثم جلست هى وآمى وبضعة من خادمات البيت فأتممن المهمة فى أسرع وقت . ولم تنقض عشر دقائق حتى عادت آمى نظيفة الوجه مغطاة الصدر بالمخرمات (الدنتلا) ، وقد هبط ذيل الراعية فى احتشام حتى أمسى يكنس البساط من خلفها .

وعندما برزت آمى من حجرة الثياب لتقوم برقصتها الاولى مع جبريل فى قاعة الاحتفال ، كانت المخرمات قد اختفت من فوق الصدر ، وكان الذيل قد تقلص الى فوق فى جسارة تفوق جسارته الاولى ، وكانت البقعتان الحمراوان على الوجنتين كأنهما رمانتان .

وسألت جبريل : « والآن خبرني بالحق يا جبريل . ألم يكن من دواعي الأسى أن أفسد هذا الزي؟» وأطرب جبريل أن تسأله رأيه ، فصارحها أنه قد بلغ حقا حد الكمال . ثم اتفق رأيهما في شيء من التسامح الرقيق على أن هؤلاء المسنين كثيرا ما يكونون مصدر تعب وضجر ، بيد أنه لا حاجة بالمرء لاثارة سخطهم بالعصيان السافر : لقد ولى شبابهم ، فماذا بقي لهم من متاع الحياة ؟

وكان هاري يرقص مع ماريانا التي كانت تجمع في يدها ذيلا ثقيلا جرارا كلما دارت دورة من دورات الفالس في خبرة وعناية . وبدأ يساوره القلق على شقيقته آمي لانها أضحت قطب الرحى في ذلك المحفل . وأبصر شبانا يجتازون الحلبة نحوها في خط مستقيم لا يمت الى حركات الفالس الدائرية بسبب ، وقد شخصت أبصارهم الى هذين العقبين البيضاوين الحريرين . وكان من هؤلاء الشبان من لا معرفة له بهم أصلا . ومنهم من كان يعرفهم أتم معرفة فليس يسعه مطلقا أن يرضى لشقيقته آمي أدنى صلة بهم .

أما جبريل فقد بدا في شعره المستعار وزيه العجيب وكأنه يتقلب في الشوك . فلم تكد تتفسح له الفرصة للرقص مع آمي . وهو أيضا لا يستطيب الرقص مع سواها . فشعر بالمهانة والشقوة .

وفي وقت متأخر ظهر شاب من أصل فرنسي جاء منفردا متنكرا في زي جان لافيت وكان قد خطب آمي فترة من الزمن منذ سنتين ، واتجه ذلك الشاب نحوها مباشرة في فرحة العاشق السعيد وقال لها بصوت سمعه كل من كان قريبا منهما : « لقد حضرت خصيصا عندما علمت أنك هنا ، ولا رغبة لي في شيء سوى مراقصتك ثم أنصرف كما جئت» فصاحت آمي متهللة الوجه : « رايمون ! » كأنما تخاطب عاشقا لها . ثم رقصت معه أربع مرات ، واختفت بعد ذلك من الحلبة معتمدة على ذراعه .

وكان هاري وماريانا متنكرين في زي رومانتيكي لائق ، وكانا فضلا عن هذا مخطوبين بوجه لا غبار عليه ، فراحا يرقصان الفالس آمنين في سرب سعادتهما ، رقصا متمهلا على نغمات الاغنية الاثيرة لديهما ، وهي أغنية الوداع الحزين التي ترنم بها الملك المراكشي وهو يفارق غرناطه . وكانا يتهامسان في لغة أسبانية غير وثيقة

بتلك الاغنية التى تتحدث كلماتها عن الحب والرحيل ، وعن أسنة سيوف الأسى التى تعطف القلب على كل مخلوق قسا عليه الدهر ورزأه بالحرمان : « آه يا منزل الحب ويا جنة الارضين .. لن أراك من بعد ... فالى أين يا ترى يطير العصفور المسكين المجهد وقد حرم المأوى ؟ وأين ينشد الوكر ولا وكر ؟ أنا أيضا يا عصفور غريب الديار ، ولا قدرة لى على الطيران .. فتعال الى قلبى أيها العصفور المليح ، وشيد أيها النازح الحبيب عشك قريبا من فراشى ، كى أسمع صداحك وأبكى على مهد بهجتى المفقود ... »

وفيما هما فى هذه النشوة ، هبط عليهما جبريل ، وقد خلع عنه هندام الرعاة ، وحمل فى يده شعره المستعار ، وطلب الخلوة بهارى ليتحدث اليه فورا .. وقبل أن تدرك ماريانا الموقف ، وجدت نفسها جالسة الى جوار أمها ، وقد اختفى الشابان المتوفزان . وفى انتظار أوبتهما راحت تتسلى عن ذلك التكدير المفاجىء بالابتسام لآمى التى مرت من أمامهما مراقصة شابا فى زى الشيطان ، لا ينقصه من ذلك الزى شىء حتى حافريه القرمزيين ... وسرعان ما عاد هارى وجبريل وقد ظهر على وجهيهما الجد الجاد . واقتحم هارى الحلبة ثم خرج منها بآمى ، وطلب الى الفتيات ومرافقاتهن أن ينهضن للرواح توا . وحدث ذلك كله فجأة وبوجه غامض ، وقال هارى لماريانا : « سأخبرك بالموضوع ولكن ليس الآن ... »

ولا تذكر الجدة من ذلك الحادث الشائن الا أن جبريل قد جاء بآمى الى الدار وحده ، ثم حضر هارى بعد قليل .. وحضر سائر الجماعة متفرقين فى أوقات شتى .. ثم اتضحت المسألة بعد ذلك نتفا نتفا ...

وكانت آمى لائذة بالصمت ، واتضح لأمها بعد ذلك أنها كانت صالية بالحمى ... وعن ذلك تقول الجدة : « أدركت لأول وهلة أن شيئا قد وقع ، فسألتها : ماذا جرى يا آمى ، فأجابتنى وهى تجلس كمن نال منها الاعياء : « لقد اندفع هارى يطلق النار على الناس وهم يرقصون » فقال جبريل : « لقد كان هذا بسببك أنت يا آمى » فقالت آمى « كلا . ليس بسببى ، فلا تصدقيه ياأماه ! » فقلت أنا : كفى الآن هذا الهذر ، وأصدقينى الخبر يا آمى ،

فقالت آمى : « هذا هو الخبر : لقد دخل رايمون ، وأنت تعلمين أنى أستلطفه ، وهو راقص بارع .. فرقصنا معا .. ولعلنا رقصنا معا أكثر مما ينبغى .. ثم خرجنا الى الرواق لنتنسم الهواء ، فلما وقفنا هناك قال لى : ما أبهى منظر شعرك !.. فهذا الطراز الجديد يروقنى كثيرا .. ونظرت نحو جبريل وقالت : وعندئذ ظهر شاب آخر فقال لى : لقد فتشت عنك فى كل مكان ، فهذه رقصتنا .. فدخلت معه ورقصنا .. وفى هذه اللحظة يبدو أن جبريل خرج فتحدى رايمون للمبارزة متذرعا بسبب من الاسباب ، بيد أن هارى لم يصبر . وكان رايمون قد انصرف فعلا كى يدعو بجواده فيركبه ليبدل ثيابه التنكرية قبل المبارزة .. ثم رمقت جبريل الذى كان محشورا فى هندام الرعاة الازرق ، وقالت : فخرج هارى وأطلق عليه النار .. ولا أظن ذلك كان عدلا .. فأقرت أمها أنه ليس من العدل فعلا ، بل ليس من اللياقة فى شىء . وأنها لا تدرى ماذا عن لابنها هارى .. وقالت له فيما بعد : ما هكذا تصون شرف شقيقتك ، فقال لها : لم أرد أن يتورط جبريل فى مبارزة فقالت : وهذا أيضا لم يكن وراءه طائل .

« وكان جبريل واقفا أمام آمى ، حانيا فوقها ، حين سألها مرة أخرى ذلك السؤال الذى ما فتىء يوجهه اليها فيما يظهر مدى طريقهما الى الدار : هل قبلك يا آمى ؟ فنزعت آمى قبعة الراعية عن رأسها ثم دفعت شعرها الى الخلف وأجابته قائلة : ربما فعل ، وربما كنت أنا التى أغرته بذلك ! فقالت أمها : لا ينبغى لك يا آمى أن تقولى مثل هذا القول . فأجيبى عن سؤال جبريل ، فقالت آمى ولكن فى غير غضب : « لا حق له فى توجيه هذا السؤال » ! فسألها جبريل وقد تفصد العرق من جبينه : « هل تحبينه يا آمى ؟ » فأجابته آمى وهى تضطجع فى مقعدها الى الخلف : « لا قيمة لهذا » فقال جبريل : « بل له قيمة . وقيمة كبرى . فلا بد أن أسمع جوابك الآن » . ثم تناول كلتا يديها وحاول أن يقبض عليهما ، فجذبت يديها فى حزم وشدة حتى أطلقهما . وقالت أم آمى له : « دعها الآن يا جبريل ، ومن الخير أن تنصرف الآن فكلنا متعب ، وسوف نتحدث فى الموضوع غدا » .

ثم ساعدت آمى على خلع ملابسها، ولما فطنت الى تغير الصدار وقصر الذيل قالت لها : « ماكان ينبغى لك أن تفعلى هذا يا آمى . فليس ما فعلت من الحكمة فى شىء . وكان خيرا لك أن تدعيه كما كان» فقالت آمى : « أماه ، قد سئمت هذا العالم ، فلست مستريحة الى شىء مما فيه . فما أضيقنى به »وبدت فى تلك اللحظة كأنما تهم أن تبكى . ولم تكن قد ذرفت الدمع أبدا ، حتى وهى طفلة ، فارتاعت أمها ، وعندئذ تكشف لها أن آمى محمومة . وقالت آمى: « جبريل كئيب يا أماه . فهو يتجهم دائما ، وكنت أراه يتجهم كلما مررت من أمامه فى المرقص . وذلك أمر يعكر الصفو . آه . أريد الآن أن أنام » . وجلست أمها تنظر اليها وتتعجب كيف حدث أنها أنجبت للعالم مثل هذه الطفلة الحسناء . وقالت : «لقد كان وجهها وهى نائمة ملائكى المنظر » !

وفى تلك الليلة المحمومة وفق أصدقاء الطرفين فى وقف المبارزة التى كان مزمعا وقوعها بين جبريل ورايمون ، وبقيت معلقة مسألة الطلق النارى الذى أطلقه هارى فى حماسة الاندفاع ، فهى مسألة تسويتها ليست سهلة ، فقد أسر هارايمون فى نفسه وكان من المحتمل أن يثير بسببها المتاعب . وبناء على نصيحة جبريل وأخوته وأصدقائه قرر هارى أن خير وسيلة يتجنب بها استعار الفضيحة هى الاختفاء عن الانظار فترة من الزمن ، وما أن اتخذ ذلك القرار حتى عاد الشبان قرب مطلع النهار فأسرجوا خير جياد هارى وأعانوه على جمع اليسير من حوائجه ، ثم اتجه هارى نحو الحدود وفى صحبته جبريل وبل ، وقد استشعر روح المغامرة ومراحها .

ولما استيقظت آمى على تلك الحركة فى البيت ، تبينت لها الخطة . فما أن انقضى على ذهابهم خمس دقائق حتى هبطت فى ثياب الركوب فأسرجت جوادها وأسرعت فى أعقابهم . وكان من عادتها أن تركب جوادها كل صباح تقريبا . وقبل أن يدب القلق الى والديها لاستطالة غيبتها ، عثرا على الرقعة التى تركتها ، فاذا بما أوشك أن يكون نذير مأساة وقد أنقلب الى نزهة مرحة، فقد ركبت آمى الى الحدود ، حيث قبلت أخاها هارى قبلة الوداع ، ثم عادت راكبة مع بل وجبريل، وقد استغرقت الرحلة ثلاثة أيام ، فلما وصلوا بعين حمل آمى من فوق السرج حملا ، فقد ثقلت

عليها العلة ، وان كانت في أحسن حال من انشراح الصدر . وكانت والدتها ووالدها قد تأهبا للعنف بها ، ولكن ما أن وقع بصرهما عليها حتى تبدل شعورهما ، فمالا على بل وجبريل يسألانهما: لماذا تركتماها تقدم على هذا العمل ؟ » فقال جبريل وقد سقط في يده : « قد علمتما أنه لا يد لنا بكفها عما تريد . ثم هي قد استطابت هذا الامر كثيرا ! » . وضحكت آمي وقالت : «لقد كانت هذه الرحلة الرائعة يا أماه أمتع رحلة وقعت لي . ولئن كنت بطلة هذه الرواية ، فلماذا اذن لا أفيد منها أقصى ما يستفاد ؟ »

وتبينت ماريا وميراندا أن الفضيحة كانت مستفيضة مروعة، فقد حملت آمي الى فراشها فلزمته ، وتسلل هارى بليل ريثما يخمد أوار الموضوع ، أما سائر الاسرة فكان عليهم أن يستقبلوا الزوار ، ويكتبوا الرسائل ، ويذهبوا الى الكنيسة ، ويردوا الزيارات ، وأن يحتملوا اللطمة كلها على حد قولهم، فجلسوا في ابان الفضيحة التي استفاضت في عالمهم الصغير متماسكين في صلابة ، مسهمين في توتر شامل، كأنما قد شدت أعصابهم الى مركز واحد . وقد أصابت ذلك المركز العصبي لطمة، اهتزت لها أعصاب الاسرة حتى أقصى الارض من كنتوكي ، فقد وصلت في أوانها المرسوم رسالة من العمة الكبرى « سالى ريا » موجهة الى الآنسة « آمي ريا » مكتوبة بحبر بني قاتم كأنه الدم الجاف، وبخط كأنه بيوت العناكب حافل بالرموز والاختصارات ، وفي هذه الرسالة تنذر العمة الكبرى سالى آمي « انها تعتقد اعتقادا راسخا ان هذه القارعة ان هي في الواقع الا طليعة قافلة من الكوارث لا تلبث عما قريب أن تصبها يد الله العلي القدير على سلالة استجلبت على نفسها الوبال بما قارفته من شر . وهي نذير بأن أيام المرء في الدنيا قصيرة ، وانهم جميعا يجب أن يتأهبوا لنهاية العالم . أما هي فطالما توقعت هذه النهاية ، وهي على أتم الاستعداد للقاء بارئها في اذعان . وأما آمي فليس اثمها أهون من اثم شقيقها الشرير هارى ، ويجب عليها أيضا أن تضع نفسها بين يدي الله وتتأهب لأسوأ الامور . . ويا قريبتي الصغيرة العزيزة المسكينة ، يجب في وقت المحنة أن تتشابك أيدينا كي نبدو أمام عرش الديونة المرهوب أسرة متحدة ، لانه اذا نقصت نعجة واحدة من القطيع ، فماذا عسى أن يقول يسوع » .

وكان اتجاه العمة الكبرى سالى ذلك الاتجاه الدينى قد غدا أسطورة هزلية ، فهى قد اطرحت مذهبها الكاثوليكى من أجل خاطر شاب كانت أسرته من المشيخيين أهل كمبرلاند . ولما استعصى عليها هضم معتقدهم ارتدت الى المذهب المعمدانى المتزمت ، وهو مذهب كريه لدى آل زوجها كراهة الكثلكة لديهم ، وسلخت حياتها بعد ذلك فى ترفق معيب بنفسها قوامه الشعور بالشهادة فى سبيل ايمانها! فالدين - على قول هارى - قد أنشب فى العمة سالى مخالبه ، وأقامها حيث يتسنى لها أن تفرى جلودهم . وقد عمرت حتى أفحمت بالحجة ، وقهرت بالغلبة ، وشيعت الى اللحد جيلها كله ، ولكنها لم تشعر لفقدانهم بوحشة ، بل رمت بالشيطنة الجيل الثانى بغير توقف ، وها هى الآن قد استفتحت على نهم بالجيل الثالث !

فلما قرأت آمى هذا الخطاب انفجرت ضاحكة ضحكتها المرحة الطلقة ، التى تجعل كل من حولها يضحك كضحكها ، حتى قبل أن يعرفوا لماذا ضحكت . وتحولت عصافير الحب الخضراء الصغيرة فى قفصها ترمقها . وقالت آمى :

« تصوروا ان أتخذ مقعدا فى الجنة بجانب عمتى سالى ! ياله من منظر » !

فقال والدها : « لاتسرعى بالضحك قبل الاوان ، فان الجنة قد فصلت على هوى عمتى سالى تفصيلا ، وستكون هناك فى ميدانها وملك يمينها !! »

فقالت آمى : « وبسبب آثامى سيكون مثواى الجنة مع العمة سالى » !

وفى غضون غيبة هارى القلقة ، ثابرت آمى على رفض الزواج من جبريل . وكانت أمها تسمعهما يتحاوران بغير انتهاء أياما طوالا ، وذات عصر برز جبريل بادى الجد فاقد الأمل : فوقف ينظر الى أم آمى وهى تشتغل بالحياكة ثم قال : « أظن المسألة قد انتهت ، وأعتقد الآن ان آمى لن تتزوجنى . » وكانت الجدة تقول بعد ذلك على الدوام : « لم تأخذنى الرأفة بانسان كما أخذتنى بجبريل المسكين فى تلك اللحظة . بيد أنى قلت له فى حزم حازم :

دعها وشأنها اذن فهى مريضة . وانصرف جبريل ولم يبلغ آمى شىء عنه مدى شهر أو أكثر .

وغداة رحيل جبريل نهضت آمى من فراشها وقد بدت فى خير حال، وخرجت للصيد مع شقيقيها بل وستيفن ، واشترت دثارا من المخمل، وعقصت شعرها وموجته، وكتبت خطابات طويلة الى هارى الذى كان يستمتع غاية المتاع بمنفاه فى مدينة مكسيكو .

وطفقت ترقص طول الليل ثلاث مرات فى أسبوع واحد، فاستيقظت ذات صباح وقد اشتد عليها النزف ، فبدا عليها الارتياع وطلبت دعوة الطبيب ووعدت أن تفى بكل مايشير به ، ولزمت الهدوء بضعة أيام قضتها قارئة ، ثم سألت عن جبريل ، ولم يكن أحد يدرى أين هو ، فقيل لها : « ينبغى أن تكتبى اليه خطابا ، وستبلغه أمه اليه حيث يكون » . فقالت : « كلا . لقد أوحشتنى رؤياه داخلا بوجهه الكظيم . كلا ليس فى الخطابات نفع » !

ودخل عليها جبريل فعلا ولكن بعد بضعة أيام بوجه جد كظيم وأنباء سوء ، فقد مات جده بعد اعتلال يوم واحد ! واذ هو على فراش الموت أعلن باسم الله، وهو فى صحو عقلى سليم ، أنه قد حرم حفيده الاثير جبريل من كل دولار يملكه . وقال جبريل : « وباسم الله يا آمى حطمنى هذا الشيطان العجوز بجملة واحدة تفوه بها » . ثم قال ان أقسى ما منى به هو مسلك ذويه الاقربين بعد ذلك . فانهم لم يتكلفوا اخفاء شماتتهم به ، وكانوا يعرفون ما يتوقعه جبريل عدلا وحقا من آمال محققة ، ويحسدونه عليها، فلما تقوضت الآمال لم يعرض أحد منهم تسوية خاصة ، ولم يفكر أحد منهم فى اصلاح جريرة ذلك الانتقام الحرف فى لحظة الموت . بل راحوا فيما بينهم يباركون الاقدار لما حبتهم به . « فحرمت من كل دولار ، وسرهم ذلك أجمعين . واخال انهم يشعرون ان ذلك الحرمان يبرر على نحو من الانحاء كل نقد وجهوه يوما اليه، وقد أصابوا فى رأيهم فى على طول الخط ، فلست الا قريبا خائبا فقيرا . . يا الهى! ليتك رأيتهم . « فقالت آمى : « انى لأتساءل كيف يتسنى لك بعد الآن أن تعول زوجة ؟ » فقال جبريل : « لم يبلغ

الامر من السوء هذا المبلغ ، فلو أنك يا آمى ... » فقالت آمى : « ياجبريل . اذا تزوجنا فورا ، ففى وسعنا أن نكون فى نيواورليانز فى عطلة عيد الاعتراف ، واذا انتظرنا الى ما بعد الصوم الكبير ، فربما يكون قد فات الاوان . » فقال جبريل : « عجبا يا آمى ، كيف يمكن مطلقا أن يفوت الاوان؟ » فقالت آمى : « قد تغير رأيك ، فقد علمت أنك رجل قلب »

***

ومن بين مجموعات الخطابات الكثيرة التى كانت تحتفظ بها الجدة خطابان قرأتهما ماريا وميراندا بعد أن كبرتا . وأحد هذين الخطابين من آمى . وتاريخه بعد زواجها بعشرة أيام :

« أمى العزيزة . لم تتغير نيو أورليانز كثيرا بقدر ما تغيرت أنا منذ آخر عهدى بها ، فأنا الآن امرأة متزوجة رزينة ، وجبريل شديد الولاء والحنان . وقد ربحت فرسنا فوتلايتس ، السباق بالامس ، فكانت المجلية ، وقد أثلج هذا صدرنا . وانى أذهب الى السباق كل يوم ، وجيادنا مزدهرة موفقة ، وقد ترك لى الاختيار بين ارسين والآنسة لوسى ، فاخترت الآنسة لوسى ، وهى الآن ملكى ، وعدوها سريع ، ويزعم جبريل اننى أخطأت ، وأن ارسين أصبر وأقدر على الاحتمال ، وأعتقد أنا أن فى احتمال الآنسة لوسى ما يكفينى . وزيارتنا للمدينة محببة . وسوف أرتدى قناعا وأخرج الى الشوارع مع جبريل فى عيد الاعتراف ، فقد سئمت مراقبة المواكب من شرفتى . ويقول جبريل ان المسألة غير مأمونة ، ولكنه مستعد لاصطحابى اذا ألححت . بيد أنى أشك فى ذلك ، وهو ظريف جدا يا أماه ، فلا تقلقى من أجلى . وقد اقتنيت ثوبا من المخمل جميلا ، يجمع لونه بين الاسود والوردى ، لحضور مرقص « بروتيوس » التنكرى . وتساءلت السيدة حماتى الجديدة ، ألا يعتبر ذلك الثوب مبهرجا بعض الشىء . فقلت لها اننى أرجو ذلك أو أكون قد خدعت فيه . وهو محبوك تماما عند الصدر ، حاسر عن الكتفين جدا ـ وما كان والدى ليرضى عنه ـ أما النصف الاسفل فمزركش بشرائط عريضة فضية ما بين الخاصرة والركبتين من أمام ، ثم تتجمع الشرائط تجمعا هائلا فى

الخلف ، وللثوب ذيل مقداره ياردة واحدة . وتبلغ خاصرتي الآن ثماني عشرة بوصة،وشكرا لمدام دوريه . وأتوقع أن أبدو فيه غاية في التبرج حتى تصاب حماتي بنزلة . وما أكثر ما تصاب بتلك النزلات . وجبريل يبعث اليك بحبه . وأرجوك أن تعنى بجرايلي وفدلر ، لاني اريد أن أركبهما عندما أعود ، وسنذهب الى سراتوجا ، وان كنت لاأدري متى . وبلغي الجميع منتهى حبي، والمطر هنا لا ينقطع طبعا . »

« حاشية : بمجرد اختلائي بنفسي لحظة واحدة ياأماه سأشعر بحنين شديد الى الوطن ... وداعا يا أمي الحبيبة . »

أما الخطاب الآخر فكان من ممرضة أمي ، بعد انقضاء ستة أسابيع على زواجها :

« لقد جززت ضفيرة الشعر ثقة مني بأنكم سترغبون في الاحتفاظ بها ، ولا أريد أن تظنوا بي الاهمال حتى تركت الدواء في متناول يدها بعد أن وصفه الطبيب وبين طريقة تناوله ، وما كانت لتضار منه لو لم يكن قلبها ضعيفا . ولم تكن تعلم كم ينبغي أن تأخذ ـ وكثيرا ما قالت لي ان حبة من هذه الحبوب الصغيرة لاينتج عن زيادتها ضرر ، فكنت أقول لها انها ينبغي أن تحذر من تناول شيء ما لم أعطها اياه . وكانت ترجوني أحيانا في المزيد فلا أعطيها أكثر مما أشار به الطبيب ، وقد نمت في الليل لانه لم يبد عليها اشتداد العلة غاية الشدة ، ولم يكن الطبيب قد أمرني بالسهر جالسة بجانبها . فأرجو ان تتقبلوا أسفي الشديد لمصابكم الفادح ، وأرجو ألا تظنوا أن أحدا قد فرط في العناية بابنتكم العزيزة . فقد عانت كثيرا ، ونعمت الآن بالراحة . وما كانت لتبرأ من علتها ، وان كان محتملا أن تعمر أطول مما عمرت . وتفضلوا بقبول احترامي ... »

وكانت الخطابات والتذكارات الغريبة مطوية حيث ظلت، منسية سنوات طويلة جدا ،وكأنه ليس لها في هذا العالم موضع .

القسم الثانى

١٩٠٤

وفى أثناء العطلة التى قضتهاماري وميراندا فى ضيعة جدتهما، طفقتا تقرآن على السجية وبلا انقطاع كما تقرض صغار الخيل يانع العشب ، وفى لذة تشبه لذتهما تأكل .. وقد وضعت الصدفة المواتية بين يديهما شيئا من القراءة المحرمة ، ولا شك أن هذه المطبوعات كان قد جلبها بروتستانتى من أبناء العمومة ثم تركها هناك لغاية تبشيرية ، ولا شك أنها وقعت الموقع المناسب لديهما ان كان هدف هذه المطبوعات محض الامتاع ٠

وهى مطبوعة بحروف رثة فوق ورق اسفنجى ، ومزينة برسوم كأنما خيم عليها دخان كثيف ، مما ألهب خيال الفتاتين لانهما لم تدركا لتلك الرسوم رأسا ولا ذنبا ٠ وكانت عبارة عن أقاصيص تدور حول فتيات جميلات بيد أنهن عاثرات الحظ ٠ فلسبب غامض خفى وقعن فى شراك راهبات وقسوس متواطئين فيما بينهم تواطؤا رهيبا ، فألقوا بهن فى الحبس فى بعض الديور حيث أكرهن على الرهبنة ، وهى شعيرة بشعة لا تكف ضحاياها عن الصراخ والعويل ، وما أن تمت تلك الشعيرة حتى ضربت عليهن حياة قاسية شاذة ٠ وبدا للفتاتين أن هذه الفرائس كانت تقضى حياتها بين الانطراح مشدودة بالسلاسل فى زنزانات مظلمة ، ومشاهدة الراهبات الاخريات يدفن أطفالا مخنوقين تحت الحجارة فى جب تعيث فيه الجرذان ٠

« محبوسات » !

فالحبس هو الكلمة التى طال بماريا وميراندا نشدانها كى تصفا

بها مقامهما فى دير يسوع الطفل بمدينة نيو أورليانز ، حيث كانتا تقضيان أيام الشتاء الطويلة سنة بعد سنة مكافحات لتحاشى التعلم! ولم يكن فى دير يسوع الطفل جب . وكان هذا فارقا واضحا بين حياة الدير كما عرفتها ماريا وميراندا ، وبين حياة الدير فى تلك الرواية المثيرة المسطرة على الورق . ولا فائدة من محاولة المطابقة بين القصص والواقع ، فلم تفكرا فى تلك المحاولة . فقد تعلمتا منذ أمد طويل أن تقيما حدا فاصلا بين الحياة الواقعية الجادة التى لا تستهدف القبر ، وبين الشعر الذى يجافى الواقع وان كان صادقا ، وبين القصص أو القراءة المحرمة التى تقع فيها الحوادث على نمط خاص ليس له شبيه فى الواقع ، فلا ينبغى أن يجزع له القارىء لانه خال من الصدق خلوا تاما .

لقد كانت الفتاتان حبيستين حقا ، ولكن فى حديقة واسعة ذات شجر ونوافير جبلية ، وكانتا تحبسان ليلا فى عنبر طويل بارد ، نوافذه كلها مفتوحة ، وتنام عند طرفيه راهبتان . وأسرة الفتيات فى ذلك العنبر لها ستائر من الحرير الموصلى ، وقد نسقت المصابيح الساهرة الصغيرة بحيث تستطيع الراهبة رؤية الفتيات من خلال تلك الستائر . أما الفتيات فلا يرين الراهبة وعجبت ميراندا وتساءلت هل قدر للراهبتين أن تناما ، أم تراهما تقضيان الليل كله جالستين كى ترقبا النائمات من خلل الستائر؟ وحاولت أن تنسج حول هذا الموضوع شيئا مثيرا ، ثم اتضح لها استحالة الاهتمام بما يمكن أن تقدم عليه الراهبتان ، فهما امرأتان كئيبتان ، طيبتا القلب ، وفقتا فى اضفاء الكآبة على العنبر كله . فالايام كلها والاشياء جميعها فى ذلك الدير ، المسمى دير يسوع الطفل ، كئيبة حقا . ولم تكن ماريا وميراندا تعيشان هناك الا انتظارا لأيام السبت .

ولم يشر أحد يوما أدنى اشارة الى ترهبهما . بل ان ميراندا شعرت على العكس من ذلك أن المسلك المثبط الذى سلكته الاخت كلود والاخت أوستن والاخت أورسولا ازاء ما أبدته من طموح الى الترهب كان ينم عن انتقاد عميق لنقصها الروحى . ومع هذا فقد خرجت ماريا وميراندا بكلمة جديدة لطيفة من قراءتهما الصيفية،

وأصبحتا تشيران الى نفسيهما بكلمة «الحبيستين» . فهى كلمة ذات رواء خيالى يخفف من وطأة حياة تريانها غاية فى الكآبة فيما خلا بعد الظهر من أيام السبت فى موسم السباق ، فاذا تيسر للراهبات أن يبدين للاسرة شهادة بأن سلوك ماريا وميراندا وتحصيلهما مقبولان على الاقل ، تصدى لهما واحد من أبناء العم هاشا لهما وقد تزين بزينة الفراغ ، فيصحبهما الى السباق ، حيث يعطى كلا منهما دولارا تراهن به على الجواد الذى يقع عليه اختيارها .

وكانت تقع لهما بين الحين والحين سبوت قائمة ، حين تجلس ماريا وميراندا على أتم أهبة ، وفى يد كل منهما قبعتها ، وقد عقصت شعرها وراء أذنيها ، وانتشرت فيما حول جسدها ذيول ثوبها الكحلى ، منتظرتين بقلب يغوص شيئا فشيئا حتى يهبط الى حذاءيهما السوداوين ، فلا تضعان القبعة على رأسيهما الا فى اللحظة الاخيرة ، مع أنه قدلا يحضر ابن العم هنرى أو بنت العم ايزابيل أو العم جورج أو العمة بولى لأخذهما الى السباق . فاذا لم يحضر أحد ، وضاع يوم السبت هدرا ، قيل لهما عندئذ أن ذلك كان عقابا لهما على الدرجات الرديئة التى حصلتا عليها خلال الاسبوع . ولم تكونا لتعلما أبدا تلك الحقيقة الا وقد فات أوان تجنب الخيبة ، وذلك أمر عسير حقا .

وقد كلفتا ذات سبت الهبوط الى قاعة الزوار ، وهناك وجدتا أباهما ، وكان قد حضر ليراهما ، متجشما مشقة الرحلة الطويلة من تكساس . فوثبتا عندما وقع بصرهما عليه لأول وهلة ، ثم تمهلتا مستريبتين . هل سيأخذهما الى السباق ؟ ان كان الامر كذلك فما أسعدهما برؤياه . وقال الأب وهو يقبل وجنتيهما : « مرحى . هل أحسنتما السلوك ؟ ان عمكما جبريل له فرس يجريها فى السباق اليوم ، وسنذهب ثلاثتنا لنراهن عليها . فمارأيكما ؟ » . فلبست ماريا قبعتها بغير كلام . أما ميراندا فتصدت لوالدها فى حدة ، لانها كانت قد عانت كثيرا من الشكوك بصدد هذا اليوم ، فقالت له : « لماذا لم تخبرنا بكلمة منذ أمس ؟ فربما أكون قد قضيت كل هذا الوقت فى التطلع » . فقال الوالد فى رقة أبوية : « لم نكن نعلم أنكما ستستحقان هذه المكافأة ؟ أتذكرين يوم السبت الاسبق ؟ »

فتبسمت ميراندا برأسها ولبست قبعتها ووضعت شريط القبعة المطاط تحت ذقنها ، فقد كانت تذكر ذلك اليوم ولا تنساه . فانها فى منتصف ذلك الاسبوع كانت قد بلغت حد اليأس من واجب الحساب ، فارتمت على وجهها فوق أرض الفصل ، وأبت أن تنهض ، فحملوها الى الخارج حملا . وقضت بقية الاسبوع فى سلسلة من الحرمان . ثم قضت يوم السبت فى حداد أبقته سرا مطويا فى صدرها ، فان المجاهرة بالحزن معناها درجة سيئة فى السلوك .

وقال الأب وكأن المسألة من أهون مايكون : « لابأس . فاننا ذاهبون اليوم . والآن هيا بنا ، فليس فى الوقت متسع »

وكانت هذه النزهات بهيجة كل البهجة فى كل مرة تخرجان فيها .. منذ اللحظة التى تطأن فيها العربة المقفلة ذات الحصان الواحد والمقاعد الوثيرة السميكة ، وقد امتلأ جوها المعتم بالعطور الغريبة ودخان التبغ ، الى اللحظة المثيرة التى تدخلان فيها مطعما يتلألأ بالانوار ، حيث يقدم لهما العشاء ألوانا لم تطعما مثلها أبدا فى البيت ، ولا من باب أولى فى الدير ، فتشعران ببهجة الدنيا وباكتمال النماء ، وقد حفلت كوب كل منهما بالنبيذ الاحمر . وكان منظر الزحام الكبير يثيرهما دواما كأنما لم تشهداه من قبل ، ولا سيما السيدات الحسناوات بأزيائهن الرائعة التى يغلب عليها الريش الجميل والزهر والاصباغ . وكان يسترعى نظرهما على الخصوص من قيافة الرجال تلك القفازات الصفراء ، وهذه الجوقات الموسيقية التى تتناوب العزف قارعة بالطبول ودفوف النحاس . ثم يبرز بين الحين والحين جوادوحشى جميل ، فيدور حول الحلبة وقد اعتلى صهوته صبى دقيق الحجم عظيم الشبه بالقرود ، على سبيل التمرين على السباق .

وكانت ميراندا تهتم اهتماما شخصيا مكنونا بأمور كانت تحرص على عدم التصريح بها لاى انسان ، حتى لو كان ذلك الانسان هو ماريا . بل على الخصوص لماريا ، والا عرفت الاسرة كلها الخبر فى مدى عشر دقائق ، فقد قر رأيها أخيرا على أن تغدو فى كبرها (جوكية) ، فقد قال والدها ذات يوم انها ستظل طول حياتها

شديدة القصر ولن تطول قامتها. ومعنى هذا طبعا انها لن تكون حسناء مثل العمة آمى أو بنت العم ايزابيل ، فأملها العتيد فى هبوط الجمال عليها قد لفظ النفس الاخير ، الى أن نبتت فى رأسها فجأة فكرة احتراف الجوكية ، فاستبدت بفكرها ، فراحت ترسم خطوط ذلك الاتجاه فى هدوء ونشوة ، حين يرخى الليل سدوله قبل أن تغفو ، وفى كثير من الاحيان فى رائعة النهار ، فى الوقت المخصص للاستذكار .. وكانت تبدو لها تلك الحياة المستقبلة معتمة فى تفاصيلها ، بيد انها مشرقة فى مجموعها العام ، وحق فى نظرها أن تعنى بالحساب أى عناية ، وكل مايلزمها لصلاح مستقبلها ان تحسن الركوب احسانا كبيرا . فهى تذكر أن والدها قال لها يوما بعد أن راقب عدوها السريع فى طريق المزرعة وهى راكبة الفرس نصف الوحشية ، : «ينبغى أن تستحى من نفسك. فقد كنت أرى الشمس والقمر والنجوم فيما بينك وبين السرج فى كل وثبة » ! والنمط الاسبانى فى الركوب هو الرسوخ فى السرج ، وأداء جميع المهام بالركبتين والعنان ، ولكن الجوكية يتواثبون فى خفة حتى لتكاد ركبهم تبلغ مستوى ظهر الجواد ، وهم يعلون ويهبطون ككرات المطاط . وشعرت ميراندا ان هذا عليها هين ، نعم ، ستغدو جوكيا مثل تودسلون وتربح سباقا بعد سباق على الاقل . وستثابر على المران الى أن يحين الحين ، طاوية صدرها على هذا السر ، الى أن تركب ذات يوم وتتواثب فى خفة مع سائر الجوكية ، فتربح سباقا عظيما ، وترمى بالدهشة كل انسان ، ولاسيما أسرتها .

وفى هذا السبت بالذات ركب معبودها تود سلون العظيم وربح شوطين . وكانت ميراندا مشوقة الى المراهنة بدولارها على تودسلون ، بيد ان أباها قال لها : « ليس الآن ياملبحة . فاليوم لا بد من الرهان على حصان العم جبريل . فاحتفظى بدولارك لنشوط الرابع وراهنى به على الآنسة لوسى ، فاذا ربحت كسبت مائة ضعف » . وتجهم وجهها وكورت الدولار فى يدها حتى تندى بالعرق الساخن ، فقد كان فى وسعها أن تربح الآن ثلاثة دولارات على تودسلون . أما ماريا فقالت فى أريحية : « لايليق الا نراهن على العم جبريل . فاننا بالمراهنة عليه نبقى مال الأسرة

فيها » . فأبرزت ميراندا شفتها السفلى لشقيقتها . ولما كانت ماريا من الرقة بمكان ، فقد جعدت أنفها لميراندا .

وما أن قدمت الفتاتان الدولارين الكاتب المراهنات فى الشوط الرابع حتى حياهما رجل ضخم منتفخ أحمر الوجه له شارب ضخم مشعث دب اليه المشيب ، من فوق رؤوس الجماهير صائحا :

« أهذا أنت ياهارى ؟ » فقال الاب : « يا آله السماء هذا جبريل »

وأشار الى الرجل الذى أقبل يشق الزحام ببطء صاعدا درجات السلم الضيقة . وحملقت ماريا وميراندا فيه أولا ، ثم تبادلتا الحملقة فيما بينهما ولسان حالهما يقول : « أهذا يمكن أن يكون عمنا جبريل ؟ أهذا عاشق العمة آمى الوسيم الشاعرى ؟ أهذا هو الرجل الذى نظم تلك القصيدة عن عمتنا آمى ؟ فماذا بالله يقصد الكبار حينما يلقون بمثل هذا الكلام ؟ »

وكان العم جبريل رجلا بدينا زرى الهيئة يشيع الاحمرار الدموى فى عينيه الزرقاوين الكاسفتين ، ويضحك ضحكة عريضة خابية الرنين ، كأنها الانين ... رأخذ يكلم والدهما صائحا وهو فى قامته العالية كأنه البرج المشيد : « وايم الله ياهارى لقد انقضى زمن طويل جدا ، لم أرك فيه . وكان ينبغى أن تأتى لرؤية الجياد ... انك لم تتغير ياهارى ، وكيف حالك ؟

وفى هذه اللحظة عزفت الجوقة النحاسية مقطوعة وراء النهر » ، فجعل العم جبريل يصرخ صراخا أعلى من ذى قبل : « فقال . هيا بنا نغادر هذه البقعة . فماذا نصنع هنا مع صغار المراهنين ؟ » فصاح الاب : « لا أستطيع . فقد أحضرت ابنتى .. وهاهما » ، فهش لهما العم جبريل بعينيه العشواوين وزعق قائلا : « انهما (زوج) رائع ياهارى ... جميل جمال التصاوير ... ما عمرهما ؟ » فقال الاب : « هما الآن فى العاشرة والرابعة عشرة . فى سن الحرج ... وكأنهما وجار أفاع أو عقدة من أنياب الصلال . فما أصعب قيادهما ... » ! ثم عبث بشعر ميراندا متظاهرا بتجعيده وليه ... فجأر العم جبريل قائلا : « فى جمال التصاوير ولكنهما لو جمع جمالهما فى واحدة لما لحق بجمال آمى ... أليس كذلك ؟ »

فأجابه والدهما بأعلى صوته موافقا : « بلى ... لاتلحقان بجمال آمى . . . ولكنهما لم يستو عودهما بعد .. »
وكانت الجوقة تتأوه عازفة : « وراء النهر . وراء النهر يقف حبيبى فى انتظارى ... »

وخار العم جبريل بصوت أصم الفتاتين وأزعجهما : « يجب أن أعود الآن ... فان الجوكى الذى عندى ألعن من خلق الله يا هارى لسوء حظى . ويجب أن أوثقه الى ظهر الفرس حتى لايهرب .. وقد وقع عن ظهر فيدلر أمس .. أتذكر فرس آمى ، الآنسة لوسى؟ فرس اليوم سميتها ، فهى الآنسة لوسى الرابعة . ولم تبلغ واحدة من الافراس الثلاث تلك الفرس الاولى .. ابق حيث أنت فسأعود اليك حالا ... »

فقالت ماريا فى جسارة : « يا عمى جبريل . أبلغ الآنسة لوسى اننا راهنا عليها . » فانحنى العم جبريل فوقهما ، وكأنما أغرورقت عيناه الكليلتان بالدمع وزعق قائلا : « بارك الله فى قلبك الرقيق و سأبلغها » .. وخاض الزحام ، وقد تقوس ظهره السمين قليلا فى ثيابه الواسعة ، وقفاه العريض يترجرج فوق بنيقته (ياقته) .

وشعرت ميراندا وماريا بخيبة الامل لما لمستاه من غرابة عند أول مقابلة للعم جبريل العتيد ، ولا سيما لخشونة لغته وبعدها عن الشاعرية المفروضة فيه . فجلستا غافلتين لا تلقيان الى السباق بالا .. وقد فاتتهما الفرصة ، وضاع دولاراهما ، وانقبض قلباهما .. بل انهما لم تتحركا الى أن هتف بهما أبوهما فى حرارة وقد مال الى أمام : « أنظرا حصانكما ... أنظر الى الآنسة لوسى وقد أشرفت على الغاية » ... فوقفت فوق المقعد ، وكل عرق فى جسديهما ينبض نبضا عنيفا حتى لقد عسر عليهما أن تركزا بصرهما .. ثم أبصرتا خطا بنيا صغيرا يمرق أمام مكان المحكمين ... انها لم تفز الا بمقدار طول العنق فحسب ، ولكن ـ وافرحتاه ـ ! ، لقد فازت الآنسة لوسى ، عزيزتهما الحبيبة ، فرس العم جبريل ... فازت .. فازت .. وقفزتا تتواثبان صائحتين مصفقتين ، فسقطت قبعتاهما

فوق عاتقيهما ، وتطاير شعرهما في كل اتجاه . وعزفت الموسيقى النحاسية : مرحى مرحى أيتها الشابة ! » وجأر الجمهور الحاشد بالهتاف القاصف ، فكأنما قد سقطت أسوار أريحا !

وجلست الفتاتان كمن بهما دوار ، وراح والدهما يصلح من شأن قبعتيهما ويسويهما فوق رأسيهما . ثم أخرج منديله فوضعه على وجه ميراندا وقال لها في رقة شديدة : « هيا تمخطي » ... ثم جفف عينيها أيضا منتهزا الفرصة ، ثم وقف وأنهضهما هاشا لهما ، وقد تجعد ما حول عينيه من أثر الضحك العميق ، وقال لهما كمن يخاطب شابتين ناضجتين صحبهما للنزهة : « هيا بنا نقدم احترامنا للآنسة لوسي .. فهي كوكب اليوم » .

وأقبلت الجياد ، وكأنما غسلت جلودها بالماء والصابون لكثرة ما عليها من الزبد ، وأضلاعها تعلو وتهبط ، وخياشيمها تفتح وتقفل ، ومن فوقها الجوكية مقوسة ظهورهم ، هادئة أساريرهم ، تهتز خواصرهم شيئا ما مع حركة الجياد التي يركبونها ، وجعلت ميراندا ترقب هذا كله وتدخره لقبل الايام .. فهكذا يقبل المرء من السباق ، هادئا مطمئنا ، ربح الشوط أم خسر ... وأقبلت الآنسة لوسي أخيرا ، فحياها حفنة من الرابحين ، وهتفوا للجوكي ، فابتسم ورفع سوطه ، أما عيناه ووجهه المتغضن الاسمر فكانت ساكتة أتم سكون ، وكان أنف الآنسة لوسي يرشح دما انساب في خطين غليظين على فمها الرقيق وذقنها المستدير الناعم الذي خالته ميراندا ألطف ذقن في الدنيا . وكانت عيناها زائغتين ، وركبتاها ترتعدان ، ولها شهيق مسموع .

ووقفت ميراندا تحملق في صورة ذلك الفوز ، فهذه صورة أخرى له ، وانقبض قلبها لمعنى الفوز بالنسبة للآنسة لوسي ، وسرعان ما لفظ قلبها ذلك النصر لفظا تاما ، ولم تدر كيف تمت لها تلك الكراهية للنصر ، وأحست بالحزى لانها كانت قد صرخت وذرفت دموع الفرح لما رأت الآنسة لوسي تجتاز موضع المحكمين سابقة بمقدار عنق ، وقد دمى أنفها ووجف قلبها على

هـــذا النحو ، وأحست بالفراغ والغثيان ، فقبضت على يد والدها في شدة بالغة ، حتى انه دفعها في شيء من الضيق قائلا : «ماذا أصـــابك ؟ لا تكوني ملولا » ! وكان العم جبريل واقفا هناك في الانتظار ، وقد ثمل الى الغاية ، فلما رأى الفرس داخلة مال فوق الحاجز الابيض الناصـع وأنفجر باكيا ، وقال : « أنفهـــا دام ، ينزف دما منـذ أمس يا هارى ، وقد حسبنا أنها عوفيت ، ولكنها عادت الى النزف ! ان قلبها كقلب الاســد وأنوى أن أستولدها يا هارى ، فان قلبها يســاوى وحده مليون دولار ، بارك الله فيها ؟» وأنسابت دموعه فوق وجهـــه الاحمر الذى يحكى لون الطـــوب ، ثم تخللت شـــاربه المشوش ، فأخرج منـديلا كبيرا جعل يمسح به وجهـه كله وهو يتأوه قائلا : « اذا وقع لهـا شيء الآن فسأطلق الرصـــاص على رأسى ، فهى أملى الاخير ، لقـــد أنقذت حياتى هذه الفرس ، فان الحظ كان قد تنـــكر لى تنـــكرا حاطما . آه يا الهى ! هيا بنـا يا هارى نذهب الى مكان نحتسى فيه شيئا » ، فقال والدهما وهو يتناول كلا منهما باحدى يديه : « يجب أن أعيـــد الطفلتين الى المدرسة أولا يا جبريل » فقال العم جبريل مستيئسا : « كلا كلا ، لا نذهب الآن ، انتظرنى هنـا دقيقة حتى أرى البيطرى وألقى نظرة على الآنسـة لوسى وأعود اليك ، لا تذهب يا هارى بربك ، فانى أود أن أتحدث اليك حديثا يستغرق بضع دقائق » ...

وكانت ماريا وميراندا واقفتين وراء العم جبريل ترقبـان ظهره المـــتراكم المزعزع ، فيجول فى خاطرهما أن هذه هى المرة الاولى التى تريان فيها رجلا يبدو عليه السكر البين ، وكانتا قد شهدتا صورا وقرأتا وسمعتا من ضروب الوصف ما عرفتا به تلك الاعراض لأول وهلة ، وشعرت ميراندا أن لتلك اللحظة أهميتهـا من جملة وجوه ، فسألت أباها فى شيء غير قليل من التباهى : « العم جبريل سكير ، أليس كذلك ؟ » . فقال أبوها وقد قطب وجهـــه قطوبا شديدا : « صه ! لا تقولى شيئا كهذا ، أو لن آتى بك الى هنـــا بعد ذلك أبدا » وظهر عليه القلق والاكتئاب ، وظهرت عليه أكثر من هذا وذاك علائم التردد والحيرة ووقفت الفتـــاتان متخشبتين

استياء من هذا الظلم الواضح ، وأطلقتا يديهما من يديه ، وابتعدتا عنه فى فتور فوقفتا متجاورتين فى صمت ، ولم يلحظ أبوهما ذلك لاشتغاله بالنظر الى الموضع الذى اختفى فيه العم جبريل ، وعاد جبريل بعد بضع دقائق وهو لا يزال يمسح وجهه كأنما يزيل عنه ما غشيه من نسيج العنكبوت ، وفى يده قبعته الكبيرة السوداء ، فلوح لهما من مسافة قصيرة وصاح فى بهجة : « ستكون عما قريب فى خير حال يا هارى ، فقد كف النزف ، وتلك وربى أنباء تسر لها كثيرا الآنسة هنى ، فتعال يا هارى نذهب الى البيت فنخبر الآنسة هنى ، فانها أهل لتلك البشرى » فقال الوالد : « يحسن أن أعيد الطفلتين الى المدرسة أولا ثم نذهب » ، فقال العم جبريل فى تعلق : « كلا ، كلا ، فانى أريدها أن ترى الفتاتين ، فسوف تسر برؤيتهما غاية السرور يا هارى ، فهاتهما معك » ، فهمست ميراندا فى أذن شقيقتها : « أذاهبتان نحن لمشاهدة سباق آخر من سباق الجياد ؟ » فقالت ماريا : « دعى الغفلة ، فانه يعنى زوجته الثانية » ، وقال العم جبريل : فلنحضر عربة ياهارى ، ولنأخذ ابنتيك كى تنتعش بهما الآنسة هنى ، فلو جمعتا فى اهاب واحد لكان شبههما بأمى عظميا ، والله على ما أقول شهيد ، وأود أن تراهما الآنسة هنى ، فطالما هويت أسرتنا يا هارى وان لم تكن بطبيعة الحال من الطراز الواسع الافق فى النساء » .

وجلست ماريا وميراندا فى مواجهة السائق . وحشر العم جبريل نفسه فى مواجهتهما بجوار أبيهما . وسرعان ما تعكر جو العربة وتخثر بريح تنفسه . وكان يبدو محزونا مسكينا ، فرباط عنقه مصروم ، وقميصه متكسر . وقال أبوهما لهما وكأنهما لم تسمعا ما كان من حديث : « أنتما الآن ذاهبتان أيتها الطفلتان لزيارة زوجة عمكما جبريل الثانية » ثم التفت الى جبريل وقال له : « وكيف حال زوجتك فى هذه الايام ؟ فقد انقضت عشرون سنة منذ رأيتها آخر مرة ! » فقال العم جبريل : « هى دائمة الوجوم والحق يقال . وقد انقضت عليها السنوات الاخيرة وهى على هذا النمط من الوجوم الذى لا يفلح فى صرفه عنها

شيء . ولم تكن لها يوما بالجيادعناية واهتمام يا هارى ، كما تذكر . ولم تذهب الى الحلبة منذ تزوجنا ثلاث مرات . وانى لأذكر كيف كانت أمى لا تفلتشوطا واحدا لاى سبب ... ما أعظم الفرق بينها وبين آمى يا هارى . فهى من طراز مختلف وهى على الحقيقة من أحسن النساء فى الدنيا قاطبة ، ولكنها تكره التغيير والنقلة ولا تعيش الا للغلام . » فسأله الوالد : « وأين جاب الآن ؟ » فقال العم جبريل : « فى نهاية المرحلة الثانوية . وهو غلام ناشط ، ولكنه شبيه بأمه غاية الشبه ، شبها عجيبا . وهى تكره البعد عنه وتريد المكث فى المدينة التى يتلقى فيها علومه الى أن يفرغ من دراسته . ويؤسفنى أن ذلك غير ممكن وان رغبت فيه . ثم جاء ذلك الحظ العاثر فكاد يقضى عليها وحق الله . فأرجو أن توفق فى انعاشها بعض الشيء يا هارى . فما أشد حاجتها الى الانعاش . »

وجلست الفتاتان الصغيرتان ترقبان الشوارع وقد أخذت فى الكآبة والقذارة والضيق شيئا فشيئا ، ثم أسلمتهما الطبقة الفقيرة من البيض الى الطبقة المتجملة فى لباسها من السود . ثم الى الطبقة الزرية منهم . وبعد شوط جد طويل وقفت العربة أمام خان صغير حقير المظهر فى حقول الاليزيه ، فأعان الوالد ماريا وميراندا على النزول ، ثم أمر الحوذى بالانتظار ، وتبع الثلاثة العم جبريل الى مدخل قذر تفوح منه رائحة الرطوبة ، حتى لقد حارت ميراندا فى كنهها فقد وجدت لها فى لسانها طعما ! ثم ارتقى الثلاثة سلما طويلا يعلوه بساط رث ، ورفع العم جبريل بابا بغير نذير وهو يقول : « ادخلوا . فها نحن » ، فنهضت فجأة من مقعد هزاز متداع امرأة طويلة القامة شاحبة المحيا ، يشبه شعرها فى لونه الدريس الباهت الجاف ، وطالعتهما بجفنين مقرحين . وكانت مرتدية صدارا خشنا فيه خطوط زرقاء وبيضاء رأسية ، ونصف الثوب الاسفل من قماش خشن أسود لامع . فلما وقع بصرها على الزوار رفعت يديها الضخمتين الى غطاء رأسها الأنيق . وقال العم جبريل فى بشاشة مصطنعة : « يا هنى . لن يخطر ببالك من الذى حضر لزيارتك » ثم ضمها ضمة غير موفقة ، فلم يتغير وجهها ،

واستقرت عيناها على الزوار الثلاثة . فقال لها : « هذا هارى شقيق آمى يا هنى . ألا تذكرينه ؟ » فقالت الآنسة هنى وهى تمديدها على استقامتها كأنها مجداف ، ودون أن تبتسم : « طبعا . أنا أذكر طبعا يا هارى » ! فاستطرد العم جبريل دافعا الفتاتين الى قدام : « وهاتان بنتا شقيق آمى » ، فمدتا يديهما فى غير قابلية ، فهزت الآنسة هنى كل يد منهما هزة واحدة يسيرة ثم أرسلتها . واستأنف العم جبريل الكلام محاولا أن يدعم الموقف الحرج : « أننا نحمل اليك بشرى سارة . فقد أظهرت الآنسة لوسى الهمة وظهرت عليهم اليوم جميعا ياهنى . لقد عدنا الى الثراء يا صاحبتى فاهنئى وقرى عينا » ! فوجهت الآنسة هنى محياها الطويل اليائس نحو زائريها ، وقالت وهى تتنهد : « اجلسوا » ، ثم جلست وهى تشير الى جملة مقاعد متداعية . وكان فى الحجرة فراش ضخم ، من فوقه ملحفة بين البيضاء والرمادية ، وهناك أيضا مغسل رخامى وستائر من المخرمات الخشنة تتدلى فوق النافذتين الصغيرتين ، ومدفأة صغيرة مقفلة فى غطائها ثقب لمروز الدخان فى أنبوب ، وحقيبتان فى وضع غير مستقر كأنما قدم بهما أحد أو يوشك أن يرحل بهما أحد . وكل شىء فى الحجرة حقير قذر ، ولكن أحكم ترتيبه حتى لم يكن هناك دبوس فى غير موضعه . وقال العم جبريل مخاطبا هارى وزوجته معا : « سننتقل الى فندق القديس تشارلس غدا . فاجمعى خيرة أثوابك ياهنى ، فان أيام القحط قد أنقضت » ! فضاقت طاقتا أنف الآنسة هنى ، واهتزت فى مقعدها فى بطء ، وقد عقدت ذراعيها ، وقالت بصوت متمهل محتجز : « لقد عشت فى فندق القديس تشارلس من قبل . وعشت هنا أيضا من قبل . وفى هذه المرة سأثابر على الاقامة حيث أنا ، فشكرا لله ، فذلك أفضل عندى من العودة الى هنا بعد ثلاثة أشهر . فقد استقر بى المقام الآن ، وأخلدت الى هذا المكان . » وكانت وهى تتكلم مخاطبة زوجها تنظر الى هارى ، وقد تراقصت عيناها الباهتتان بلهب أزرق ، وارتسم حول فمها خط أبيض صارم . واجتهدت الفتاتان الصغيرتان ألا تحملقا

وهما جالستان على مضض . وكانت جدتهما قد أصدرت حكمها بأن بنتى هارى لا سبيل لتعليمهما شيئا ، فهما أعصى من عرفت على التعليم فيمن خبرت من الصغار فى عمرها الطويل !! ولكن الفتاتين كانتا قد تعلمتا بطريق غير مباشر أمرا واحدا على خير وجه ، وهو أن كرام الناس لا يفصحون عن خلافاتهم على ملأ من الغرباء . فالخلافات العائلية مقدسة ، وينبغى أن تسوى سرا فلا يتجاوز الصوت فيها الهمس والزمجرة الحبيسة فى الحلوق . فاذا كان لا بد من الشحناء فمن وراء الابواب المقفلة والنوافذ المسدلة . وهذه زوجة العم جبريل الثانية تتواثب غضبا وتهم أن تنقض على العم جبريل فى أى لحظة ، وهو جالس كما يجلس الكلب عندما يلوح له بالسوط . وقالت ميراندا فى نفسها : « أنها تكره كل من فى هذه الحجرة وتحتقرهم . وتخشى ألا نفطن الى هذا . وما كان لها أن تخشى . فقد أدركناه منذ وطئت أقدامنا المكان » ، وودت من صميم قلبها أن تنصرف . ولكن والدها لم يبد حراكا ، مع أن وجهه كان ميدانا خصبا للدراسة ، ويبدو أنه كان يفتش فى ذهنه عن كلمة ظريفة يقولها . أما ماريا فشعرت بالتأثم وان لم تدر لماذا . فجعلت تقول لنفسها مفكرة فى سرعة : « أن هى الا زوجة العم جبريل الثانية ، والعم جبريل لم يكن الا زوج العمة آمى من قبل . فهى أذن ليست من قرابتنا مطلقا . وانى لهذا مسرورة » ، ثم جلست على سجيتها ، وأطلقت يديها فاستقرتا مفتوحتين فى حجرها مطمئنة الى أنهم سينصرفون بعد دقائق معدودات ولا شك ، ولا حاجة بهم للعودة بعدها أبدا ، وعندئذ قال الوالد : « لا بد أننا عطلناكما . فقد جئنا لنمكث بضع دقائق فحسب لاننا أحببنا أن نطمئن عليك » ، فلم تقل الآنسة هنى شيئا ، ولكنها حركت يديها من دون المعصمين حركة يسيرة كأنما لتقول : « ها قد رأيتنى وعرفت حالى . وبعد ؟ » . فقال الوالد : « يجب أن أعيد هاتين الصغيرتين الى المدرسة » . وقال العم جبريل بغباء : « انظرى يا هنى . ألا ترين انهما تشبهان آمى بعض الشبه ؟ ولا سيما ما حول العينين . عينى ماريا على الخصوص . ألا تعتقد ذلك يا هارى ؟ » فرمقهما أبوهما تباعا ثم قرر : « لا أرى

هذا الرأى » . ورأت الفتاتان أن شعوره بالحرج قد ازداد كثيرا ، فالتفت الى الآنسة هنى قائلا : « اننى لم أر جبريل منذ سنوات طويلة . وقد فكرنا فى الخروج معا كى نتحدث عن الايام الخوالى . وأنت تعرفين كيف تكون تلك الاحاديث » ، فقالت الآنسة هنى وهى تتأرجح قليلا : « نعم أعرف » ، وبدا كل ما تعرفه ناطقا فى صورة كراهية طاغية ومرارة قاسية تصلب لها جسدها ، فانبعثت واقفة فى حنق ، وقالت مرة أخرى : « أعرف » ، ثم جلست مطرقة الى الارض وفمها يرتعد وهو ممدود . وران صمت هائل انقطع بنهوض الوالد .

وعندئذ نهضت الفتاتان ، وهما تتماسكان لكى لا تندفعا ملتمستين الباب . وقال الوالد : « يجب أن أعيد الصغيرتين الى المدرسة . فقد اجتمع لهما مافوق كفايتهما فى هذا اليوم من الجيشان ، فقد ربحت كل منهما مائة دولار على الآنسة لوسى . لقد كان سباقا طيبا » !

وبدا عليه الابتئاس التام كأنه لا يدرى كيف يلتمس المخرج من هذا المأزق . والتفت الى جبريل يسأله : « أليس كذلك يا جبريل ؟ » فقال جبريل بصوت مضعضع : « لقد كان شوطا عظيما . كان شوطا عظيما . » فوقفت الآنسة هنى ، ومشت نحو الباب خطوة ، وسألت أباهما : « أتأخذهما الى السباق حقا ؟ » وأشارت اليهما بجفنيها أشارة شعرت ماريا كأنما هما فى نظرها حشرتان كريهتان !!

واستطردت الآنسة هنى تقول بجلاء « انى لافضل ، وأفضل كثيرا جدا أن أرى ابنى ميتا تحت قدمى من أن أراه متسكعا حول حلبة السباق » ! وساد الصمت اللحظات التالية ، ولكنهم أخيرا صاروا فى السلم ثم فى المدخل ، ومعهم العم جبريل يودعهم الى العربة . وكان وجهه مهموما ، وملامحه متداعية ، كأنما أعربت من اللحم عظامه ، وانتفخ جفناه وازرقا . ثم قال بلهجة المفيق : « وداعا ياهارى . وكم تعتزم المكث هنا ؟ » فقال هارى : « سأعود غدا . فانى لم أحضر الا لمهمة صغيرة ، ولارى البنتين واطمئن عليهما » فقال العم جبريل : « لابأس . وقد أمر

بموطنك فى الريف يوما ما. وداعا يا ابنتى » .. ثم هز يديهما تباعا بيده الكبيرة الدافئة ، وقال :« انهما طفلتان لطيفتان ياهارى ، وقد سرنى أن تربحا على الآنسة لوسى » وفى حنان استطرد قائلا: « لاتنفقا مالكما هباء . والى الملتقى ياهارى » ..

وفيما كانت العربة تبتعد وقف هو هناك بدينا متهدما ، وقد رفع ذراعه يلوح لهم بيده. فقالت ماريا بأقصى ما استطاعته من لهجة الكبار وهى تخلع قبعتها وتعلقها فوق ركبتها : « ياالله السماء ! الحمد لله اننا انتهينا » ! فقالت ميراندا : « ماأريد أن أعرفه هو هل العم جبريل سكير حقيقة ؟ » فقال والدهما محتدا : « صه ! فأنى أشعر بحرقان فى المعدة » فساد الصمت احتراما لحالته ، كما يصمت الناس أمام أثر عام. فعندما يشعر والدهما بحرقان المعدة ، فذلك أوان الاخلاد للسكينة والتطامن .

ودرجت العربة عائدة الى الشوارع النظيفة الوضيئة بالانوار التى تنبعث فى أوائل ظلمات فبراير من نوافذ الحوانيت وواجهاتها المتألقة ، مارة بالطرق الممهدة والبيوت العتيقة الحسنة ذات الحدائق الواسعة، وبالاسوار القاتمة التى تتراءى من فوقها الاشجار العالية الملتفة. وجلست ميراندا تعمل الفكر اعمالا شديدا، حتى لقد نسيت نفسها وقالت على عهدها فى قلة التدبر : « لقد قررت ألا أغدو جوكية مهما يكن » ! وكان من الممكن كالعادة أن تمضى على لسانها فلا تفصح، ولكن كالعادة ايضا فاتها ذلك . ودهش والدها وغمز لها شأن العارف بما هناك . وكأنه لم يدهش لقولها أدنى دهشة ، وقال :« حسنا ! حسنا ! اذن سوف لاتغدين جوكية ! ذلك منك تعقل عظيم . وأعتقد ياماريا أنها ينبغى ان تغدو مروضة أسود ! فما رأيك ؟ فهذه حرفة انثوية لطيفة »! ولما رأت ميراندا ماريا تندمج فجأة من قمة أعوامها الاربعة عشر فى الضحك منها مع والدها ، قررارها فورا ، فضحكت معهما من نفسها . وحسنا فعلت، فقد ضحك الجميع ، وسرى ذلك عنهم كثيرا . وسألت ماريا فى قلق :« أين دولاراتى المائة ؟ فأجاب الوالد : « سأضعها لحسابك فى المصرف ، وكذلك دولاراتك

يامير اندا ، فتلك خميرة صالحة لمدخراتكما » . فقالت ميراندا التى سئمت انفاق هدية العيد من النقود التى تتحفها بها الجدة : « هكذا لن يشتروا لى بها جوارب ، فعندى من الجوارب مايكفينى » وقالت ماريا التى كانت تضيق بالثروة المحدودة : « كنت أتمنى أن أشترى جوادسباق ، ولكننى أعلم أنها لاتكفى ، وماذا يمكن أن يشترى الانسان بمائة دولار ؟ » فقال أبوهما : « لاشىء ، لاشىء على الاطلاق . فليست مائة الدولار الا شيئا يودع فى المصرف » وفقدت ماريا وميراندا الاهتمام بالموضوع ، فحالهما الآن أنهما ربحتا مائتى دولار على جوادسباق ذات مرة . ولكن أصبح هذا الآن فى حيز الماضى البعيد . وأنشأتا تتحدثان فى شىء آخر .

***

وفتحت الراهبة الساهرة الباب بوساطة حبل طويل من وراء السور ، ودخلت ماريا وميراندا صامتتين الى عالمهما المألوف ، ذى الارض الحارية اللامعة ، والطعام المغذى الساذج ، وماء الاغتسال البارد ، والصلوات المنتظمة المتواترة . الى عالمها الذى يتسم بالفقر ، والطهارة ، والطاعة ، والنوم المبكر ، واليقظة الباكرة ، والقواعد الصارمة ، والتهامس . . . وكان الاذعان يبدو على وجهيهما البريئين حين رفعاهما لتلقى القبلات من أبيهما الذى قال لهما فى جد غريب طالما اتسم به وهو يودعهما : « كونا فتاتين صالحتين . واكتبا لابيكما رسائل رقيقة مطولة » . وقبض على ذراعيهما فى حزم لحظة طويلة ، ثم أطلقهما فانطلقتا . واختفى بعد ذلك ، فأغلقت الراهبة الباب من خلفه .

وصعدت ماريا وميراندا الى عنبر النوم ، كى تغسلا وجهيهما ويديهما وتمشطا شعريهما قبل العشاء . وكانت ميراندا جائعة فزمجرت قائلة : « اننا لم نظفر بشىء نأكله . ولو قضيبا من الشكلاته بالبندق ، وأرى ذلك من الشح بمكان . ولم نحصل ولو على ربع دولار ننفقه » فقالت ماريا وهى تصب الماء البارد فى طست وتطوى كميها : « لالقمة ولا فلسا » !

ودخلت فتاة فى مثل سن ماريا ، فاتجهت الى طست قريب من فراش آخر وسألتها : « أين كنت ؟ هل استمتعت بنزهتك ؟ »

فقالت ماريا وهى تغسل يديها : « لقد ذهبنا الى السباق مع أبينا » ، وقالت ميراندا : « وربح حصان عمنا » ، فقالت الفتاة ، « يا الهى ! هذا ولا شك كان شيئا رائعا » !

فنظرت ماريا الى ميراندا التى كانت تطوى كميها ، وحاولت ان تشعر بالاستشهاد . ولكنها لم توفق . فقالت وقد التمعت عيناها اذ هى تجففهما بمنشفتها : « أسبوع آخر فى الحبس »!!

القسم الثالث

١٩١٢

تبعت ميراندا حاجب عربات النوم هابطة ممشاها المزدحم ، وقد أسدلت فى القمرات الستائر الخضراء المغبرة ، وفرشت السرر كلها تقريبا للمبيت ، الى أن بلغت مقعدا فى طرف العربة القصى ، فقال لها الحاجب : « سيكون سريرك معدا فى أى لحظة لاستقبالك يا آنسة » فقالت ميراندا : « ولكنى أود أن اجلس هنا بعض الوقت » . فرفعت سيدة عجوز شديدة النحافة عينيها السوداوين اللتين تنبئان عن مزاج دموى وسرعة اهتياج ، فشخصت بهما اليها فى نظرة تنم عن الانكار السافر الخالص. وكانت لها سنتان أماميتان هائلتان وذقن غائر ، بيد انها لم تكن منقوصة الشخصية . وكانت قد كومت حقائبها حولها كأنها المتاريس ، وحملقت فى الحاجب حينما تناول بعض تلك الحقائب ليفسح فى المكان للراكبة الجديدة . وجلست ميراندا وهى تقول بلهجة آلية: « هل لى ان أجلس» فقالت السيدة العجوز : « لك أن تجلسى طبعا !» وكان تقدمها فى السن باديا على الرغم من حيوية فيها ذات صبغة خاصة من التوفز والخفة . وكان صدارها من قماش صلب يصر صرير مفصلات الابواب كلما تحركت. وبعد أن سكتت نصف ثانية ، استطردت فى تهكم لاذع قائلة : « يحسن اذا سمحت أن تقومى من فوق قبعتى ! » فنهضت ميراندا كالملدوغة ، وقدمت الى السيدة العجوز ابتكارا مشوشا من شعر الخيل الاسود المجدول وزهور الخشخاش البيضاء المحطمة وهى تغمغم متلعثمة : « انى آسفة أشد الاسف ، فلم

يخطر لى مطلقا أن هذه قبعتك!» ... فقد تعودت بحكم نشأتها أن تعامل العجائز الشرسات باحترام، وكانت هذه العجوز قمينة فيما يبدو أن تصفعها توا فى اللحظة ، فسألتها العجوز وقد كشرت عن أسنانها ووضعت القبعة فوق سبابتها كى تعيدها الى شكلها الاول : «وقبعة من خلتها تكون؟» فقالت ميراندا فى شىء من الحنق العصبى : « لم - أحسبها قبعة على الاطلاق » ! فقالت العجوز « لم تحسبيها قبعة ، أين عيناك اذن يابنية ؟ » وكى تبرهن على كنه ووظيفة موضوع النزاع وضعته فوق رأسها فى زاوية منحرفة شيئا ما ، فلم يشبه القبعة مع هذا كثيرا .. واستطردت : « والآن أرأيت أى شىء هى ؟ » فقالت ميراندا فى تواضع أملت أن يكون حاسما فى كف العدوان : « طبعا ، طبعا » ثم خاطرت بالجلوس بعد أن فحصت جيدا ذلك الحيز الضيق الذى تهم أن تشغله . فقالت السيدة العجوز : « لا بأس . فلندع الحاجب ليرفع بعض هذه الكراكيب » وضغطت الجرس بأصبعها النحيل المدبب . وتلت ذلك ترتيبات صاخبة . وقفتا فى أثنائها فى الممشى ، والعجوز لا تكف عن اصدار سلسلة من الارشادات المستحيلة التنفيذ الى الزنجى الذى احتملها بصبر فلسفى ، وراح يرتب الحقائب على النحو الذى ارتآه هو أصلا . ولما استقر بهما المجلس سألتها العجوز بلهجة تتسم بالاستعلاء والتنازل معا : « وماذا غسى أن يكون اسمك يا بنية ؟ » فلما أجابتها ميراندا ، اختلج جفناها ، وفتحت نظارتها فركبتها فوق أرنبة أنفها تركيبا ينبى عن خبرة ، وحملقت طويلا فى امعان فى وجه جارتها ، ثم قالت فى صوت متغير تغيرا عجيبا : « لو كانت نظارتى على عينى لعرفتك لأول وهلة بغير حاجة الى سؤال . فأنا بنت عمك ايفا بارنجتون . ابنة عمتك مولى بارنجتون . أتذكرينها ؟ لقد عرفتك وأنت طفلة . وكنت دافقة الحيوية ، شديدة العناء . وآخر ما سمعته عنك أنك كنت تزمعين أن تكونى بهلوانة ، وتتمرنين على عزف الكمان وأنت سائرة فوق حبل مشدود » ! فقالت ميراندا : « لا بد أننى رأيت هذا المنظر فى مسرح استعراضى ، فما كنت لأخترعه . أما الآن فأحب أن

أغدو قائدة طائرة » ! فقالت العمة ايفا وقد شغلتها خواطرها : « لقد كنت فيما مضى أذهب الى المراقص مع أبيك . والى حفلات الاعياد الكبرى فى بيت جدتك . وكان ذلك قبل مولدك بكثير . نعم قبل ذلك بكثير جدا » . فتذكرت ميراندا جملة أشياء فى الحال ، فالعمة آمى كانت تهدد بأن تغدو عانسا مثل ايفا . أجل ، أن مشكلة ايفا أن ليس لها ذقن ، فطرحت ايفا من ذهنها الزواج ، وراحت تعلم اللغة اللاتينية فى دير للنساء . ثم تحمست ايفا لحق المرأة فى التصويت ، كان الله فى عونها ، ومزية الابنة القبيحة الشكل أنها غير قادرة على أن تجعل منى جدة . ثم قالت ميراندا فى نفسها : « لم تفدك فائدة تذكر تلك الحفلات يا بنت عمى العزيزة ايفا » ! فاذا بايفا تقول بصوت مرتفع وكأنها قد قرأت أفكارها : « لم تفدنى هذه الحفلات فائدة تذكر » ، فدار رأس ميراندا خيفة أن تكون قد فكرت بصوت مسموع . واستطردت بنت العم ايفا تقول : « أو هى على الاقل لم تؤد وظيفتها أو الغرض منها . فانى لم أتزوج أبدا ، بيد أنى تمتعت بتلك الحفلات كثيرا على كل حال ، وأفدت منها سعادة وسرورا ، مع أننى لم أكن حسناء .. اذن فأنت ابنة هارى . وكنت أتشاجر معك . أتذكرينني أم لا ؟ » فقالت ميراندا : « نعم » ، واستنتجت أن ايفا وان كانت عانسا عجوزا منذ عشر سنين الا أنها لا يمكن أن تكون قد تجاوزت اليوم الخمسين من عمرها ، ومع هذا فهى تبدو شديدة الهزال والوهن ، ضاوية غائرة الخدين ، عجوزا بوجه ما بمعنى الكلمة . عبر الهوة السحيقة التى تفصل بنت العم ايفا عن شبابها هى ، نظرت ميراندا فى توجس أليم وقالت لنفسها « أهكذا اذن لا بد أن أبدو يوما ما ؟ » ثم قالت بصوت مرتفع : « نعم أذكرك . فقد كنت تقرئيننى اللاتينية وتقولين لى ألا أعبأ بالمعنى ، وانما المهم الآن أن أعى الصوت والوقع ، ثم يغدو الفهم بعد ذلك أمرا يسيرا » فقالت ايفا مبتهجة : « نعم ذلك ما كنت أصنع . أولا تتذكرين أنه كان لى ذات مرة ثوب جميل من المخمل بلون الياقوت الازرق (الصفير) ذو ذيل جرار ؟ » فقالت ميراندا : « كلا ، لا أتذكر هذا الثوب » .

فقالت ايفا : « لقد كان ثوب أمي من قبل ، فأعطتني اياه فأصلحته ، بيد أنه لم يناسبني مطلقا . ومع هذا كان الثوب الوحيد الجيد الذي حصلت عليه . وانى أذكر هذا كما لو كان قد وقع بالامس . فما كان الازرق يوما من الايام لونى المناسب » ، وتنهدت فى مرارة مموهة بالتجمل الضاحك . ولكنه كان تجملا موقوتا ، أما المرارة فصفتها الملازمة . فقالت ميراندا محاولة أن تقدم لها ما ينبغى ابداؤه من العطف على المعذبين من بنى الانسان : « أعرف هذا الذى تتحدثين عنه . فطالما أصلحوا ثياب ماريا لى ، فلم تكن تناسبنى . وكان هذا فظيعا » ! فقالت ايفا بلهجة من لا تود أن يشاركها أحد فى خيبتها الفذة : « وكيف حال والدك ؟ قد كنت دائما أميل اليه ، لانه كان من أوسم الشبان الذين رأيتهم فى حياتى . وهو مغرور أيضا شأن أفراد أسرته جميعا . فلا يركب الاخير ما يستطيع أن يشترى من الجياد . وكنت أقول عنه أنه يركبها ليتواثب بها ثم يرقب خياله ! وكنت أقول ذلك عنه فى حفلات العشاء ، فدرهنى لذلك . أجل ، أعتقد يقينا أنه كرهنى . » وكان شىء فى لهجتها يبرر قدرتها الخاصة على استرعاء الانتباه واثارة الانفعال وهى تكرر سؤالها « لقد سألتك يا عزيزتى كيف حال أبيك ؟ » فقالت ميراندا بسرعة قبل أن تستطرد ايفا فى الكلام : « انى لم أره منذ عام تقريبا . وأنا الآن عائدة الى البلدة لتشييع جنازة العم جبريل . فقد مات العم جبريل كما تعلمين فى لكسنجتون ، ثم جاءوا به ليدفن بجوار العمة آمى » . فقالت ايفا :

« هكذا اذن قدر لنا أن نتلاقى ، فقد عب جبريل الخمر حتى أمكنها من القضاء عليه أخيرا ، وأنا أيضا فى طريقى الى جنازته ، فانى لم أعد الى البلدة منذ ذهبت لتشييع جنازة آمى ، وذلك منذ ؟ دعينى أتذكر ، أجل ستنقضى تسعة أعوام كاملة على موتها فى يوليه القادم ، وها أنذا ذاهبة لتشييع جنازة جبريل ، فما كنت لأتخلف عنها ، يا له من مسكين ! لقد شقى بحياته ! وعما قريب يمضون جميعا » . فقالت ميراندا : « ونبقى نحن

يا بنت العم ايفا » ! وكانت تعني جيلها من الشباب ، فقالت ايفا : « ستعمرين طويلا ، وسوف لا تعنين بالحضور لتشييعنا » ! ولم يبد عليها أنها ترى فى ذلك بأسا ، وانما تفوهت بهذه العبارة شأن المرأة التى تعودت أن تقول كل مايخطر ببالها .

وجلست ميراندا تقول فى نفسها: « ومع هذا أظنه يخلق بى أن أقول لها شيئا يحملها على الاعتقاد أن رحيلها ورحيلهم أجمعين سيكون فجيعة ، ولكن .. ولكن ! »

وبابتسامة أملت أن تمحو بها تهكم ايفا بالجيل الجديد قالت : « لقد أصبت فى صدد اللغة اللاتينية يا بنت العم ايفا . فقد كانت قراءتك لى عونا حينما شرعت فى دراستها ، وما زلت أدرس ، أدرس اللاتينية أيضا » فقالت ايفا محتدة : « ولماذا لا تدرسين ؟ » ثم أضافت برقة فجائية : « سرنى أنك أزمعت استخدام عقلك بعض الشىء يا بنية ، فلا تدعيه يصدأ ، وسوف يحل لك عقلك كل المسائل التى تعنين بها ، وسوف تكون لك فى ذلك مسرة بعد أن تسلبى كل شىء ! » ، فارتعدت ميراندا للهجتها الكئيبة ، واستطردت ايفا قائلة : « لقد كنا ريفيين جدا فى ذلك الركن من الريف فى زمننا ، فما كانت لتجسر امرأة على التفكير أو العمل مستقلة بنفسها .. وكان العالم كله يتجه هذه الوجهة ، بيد أننا كنا فى ذلك أسوأ الناس فيما أعتقد ، وأظنك لا بد قد علمت كيف كافحت فى سبيل فوز المرأة بحق التصويت ، فى وقت كاد ذلك يهدر اعتبارى ، فطردت من وظيفة التدريس فى الدير ، بيد أننى راضية عما فعلت ، ولأفعلنه مرة أخرى لو عاد الزمن على أعقابه ، ولستم معشر الشباب بمقدرين هذا الامر على حقيقته ، وسوف تعيشون فى عالم أفضل لاننا عملنا على تحقيقه ! » ، وكانت ميراندا تعرف بعض الشىء عن ماضى حياة ايفا ، فقالت باخلاص: « أعتقد أن ذلك كان اقداما منك ، وانى لسعيدة أنك أقدمت عليه ، فقد أحببت شجاعتك » ! فقالت ايفا رافضة ذلك الثناء فى

ضيق « ما كان ذلك منى مظاهرة يا فتاة ، فالشجاعة شيء فى مقدور كل ذى عقلة ، فقد كنا نعمل فى سبيل هدف كنا نعلم أنه حق ، ثم تبين أنه لا بد لنا من كثير من الشجاعة كى نبلغه وهذا كل ما هناك ، ولم أكن أتوقع أن يزج بى فى السجن ، ولكنى سجنت ثلاث مرات ، وانى على استعداد لان أسجن ثلاث مرات مضروبة فى ثلاث لو اقتضى الامر ذلك ... لم نحصل على حق التصويت بعد ، ولكننا سنصوت حتما » .

ولم تغامر ميراندا بالرد ، بيد أنها أحست بالاقتناع بأن النساء سوف يصوتن فعلا عما قريب ما لم يقع لايفا مكروه .. فقد كان فيها شيء يهيب بك أن مثل هذه الامور مما يركن اليها فيها ... وسرت فى ميراندا نفسها حماسة غامضة لهذه القضية ، فهى تبدو حافلة بالبطولة أهلا للتضحية ، ولكنها أيضا مثبطة لعزائم الخائضين فيها من بعد ، لان ايفا قد اكتسحت الميدان فلم تدع لمن يأتى على أعقابها مجالا .

وسكتتا لحظة ، فتشت فيها بنت العم ايفا فى حقيبة يدها ، مستخرجة نقائض شتى : أقراصا من النعنع ، وقطرة للعين ، وورقة ابر ، وثلاثة مناديل ، وقارورة صغيرة من عطر البنفسج ، وكراسة عناوين ، وزرين أحدهما أسود والآخر أبيض ، وأخرجت أخيرا لفافة مسحوق للصداع ، ثم طلبت من ميراندا أن تأتيها بكوب ماء ، ثم صبت المسحوق على لسانها وابتلعت الماء ، ووضعت قرصين من النعنع فى فمها ... وقالت بعد قليل ، وكأنما خفة حدة الصداع قد وجهتها فى الحديث وجهة جديدة : « هم الآن اذن بسبيل دفن جبريل بجوار آمى ... ان الانسة هانى كانت تسر لذلك ، لو أن المسكينة علمت .. فبعد أن قضت خمسا وعشرين سنة فى الاصغاء لقصص عن آمى ، ها هى قد أكرهت على الرقاد فى قبرها بمفردها فى لكسنجتون ، فى حين يتسلل جبريل الى تكساس كى يضاجع آمى مرة أخرى ... لقد كانت تلك خيانة منه مدى الحياة ، يا ميراندا ، أعقبتها الآن خيانة مدى الابد ... ما كان أجدره

أن يخزى ! » فقالت ميراندا وهى تعجب فى نفسها ماذا كانت صورة الآنسة هانى قبل أن تبدأ متاعبها الطويلة مع العم جبريل : «لقد كانت العمة آمى محبوبته ، أولا على الاقل ... » فقالت ايفا وقد لمعت عيناها : « آه من آمى هذه! لقد كانت عمتك آمى شيطانا وصانعة سوء ، ولكنى كنت أحبها كثيرا .. وكنت أدافع عن آمى فى حين لم تكن سمعتها حقيقة بالدفاع . » وطرقعت أصابعها كطرقعة الصنج واستطردت : « لقد كانت تقول لى بطريقتها الناعمة المرحة ، يا ايفا ، اياك أن تتكلمى عن حق المرأة فى التصويت عندما يطلبك الفتيان للرقص ، ولا تتلى عليهم قصائد لاتينية ... فقد غثيت نفوسهم من ذلك فى المدرسة ، بل أرقصى ولا تتكلمى يا ايفا ! » ثم تقول لى وفى عينيها خبث الشياطين : « وارفعى ذقنك الى أعلى يا ايفا » ، فقد كانت ذقنى هى نقطة ضعفى كما ترين .. « فلن تظفرى بزوج ما لم تلتفتى لذلك ، ثم تضحك وتندفع خفيفة .. ولكن الى أين اندفعت ؟ » وبعينيها الصغيرتين المتوقدتين ألزمت ميراندا بالتبصر فى واقع المسألة المر ، وهى تقول: « .. الى الفضيحة والموت ... لا الى سواهما » ، فقالت ميراندا فى براءة : « لقد كانت تمزح يا بنت العم ايفا .. وكن الجميع يحبونها » فقالت ايفا فى انتصار: « ليس الجميع » هيهات ! فقد كان لها أعداء ، ولكنها حين تعلم ذلك تتجاهله ، واذا أهمها ذلك لم تظهر الاهتمام ، فلم يكن فى مقدورك أن تحملها على الشجار ، لانها كانت مع الجميع فى عذوبة قرص الشهد ، مع الجميع ، وكان هذا هو الاشكال ... فدرجت فى الحياة كالعزيزة المدللة ، تفعل ما يروق لها ، ويشقى الآخرون بسببها ، ويتعثرون فى الحطام .. ولم أصدق لحظة واحدة .. » ثم وضعت فمها على أذن ميراندا وجعلت تنفث ريح النعنع فيها حارا وقالت : « لم أصدق لحظة واحدة أن آمى امرأة دنسة ... مطلقا ! ولكن صدقينى أن الكثيرين كانوا يحسبونها كذلك .. وكان الكثيرون يشفقون على جبريل المسكين لعماه عن حقيقتها ، كثيرون جدا لم يدهشوا حين سمعوا أن جبريل كان شقيا غاية الشقاء فى مدة شهر العسل فى نيو أورليانز ، انها الغيرة ، ولم لا ؟ ولكنى كنت أقول لهؤلاء

الناس انه مهما كانت الظواهر ، فانى موقنة بطهارة أمى ... طائشة هى ، نزقة هى ، ولاقلب لها .. ولكنها طاهرة فى صميم اعتقادى .. ولكن كيف تلومين من يزيغ بصره فيسىء بها الظن ؟ فان نهوضها فجأة من فوق أعتاب الموت للزواج من جبريل برو بعد طول رفضها اياه ومعاملته معاملة الكلاب سنين عدة ، كان أمرا غريبا ، فى أخف الاقوال ، فى أخفها جدا . فالغرابة لفظ مترفق فى نعت هذا الامر ، ثم كان فى وفاتها عنصر غامض جدا ، اذ ماتت بعد زواجها بستة أسابيع فقط »!

وتنبهت ميراندا ، فقد شعرت أنها تعرف هذا الجزء من القصة وفى مقدورها أن تصحح هذا الجانب لبنت عمها ايفا ، فقالت: « لقد ماتت بنزيف ؟ فى الرئتين ، بعد أن طالت بها العلة خمسة أعوام ، ألا تذكرين ؟ » ولكن ايفا كانت متأهبة لهذا الرد ، فقالت : « ها . هذه هى القصة حقا ، الرواية الرسمية كما يقولون . أجل ، طالما سمعت هذا ، ولكن هل سمعت يوما بالمدعو رايمون من أبروشية كلكازيو ، وهو يكاد يكون أجنبيا ، بيد أنه أقنع آمى بالهرب معه من حفلة راقصة ذات ليلة ، فخرجت معه فى جوف الظلام دون أن تتمهل لاخذ دثارها ، واذا بأبيك العزيز اللطيف هارى المسكين — ولم تكونى أنت قد خطرت بالحسبان يومئذ — يجرى فيطرحه أرضا ويطلق النار عليه ؟ » فاضطجعت ميراندا الى الوراء أمام تيار الكلام الدافق ، وقالت : « يا بنت عمى ايفا ، لقد صوب أبى نحوه النار ، ألا تتذكرين ؟ ولكنه لم يصبه ... » فعلقت ايفا على ذلك قائلة : « للاسف الشديد » واستطردت ميراندا قائلة : « ... وكانا قد خرجا معا لتنسم نفحة من الهواء بين الرقصتين . وكان سبب المسألة كلها غيرة العم جبريل . فأطلق أبى على الرجل النار ، اعتقادا منه أن ذلك خير من التخلية بين العم جبريل ومبارزته من أجل العمة آمى . فلم يكن فى المسألة كلها شىء عدا غيرة العم جبريل . » فقالت ايفا ، وقد انبثق الرثاء من عينيها وميضا كأنه نصال الخناجر : « أيتها الطفلة المسكينة : أيتها الساذجة : هل تصدقين هذا ؟ ما عمرك الآن ؟ » فقالت ميراندا : « أتممت

عامي الثامن عشر أخيرا » ، فقالت ايفا فى لهجة النذير : « لم تفهمى ما أقوله لك ، فستفهمينه فيمابعد . ولن تضيرك المعرفة ، ولا ينبغى أن تعيشى فى ضباب من الخيال عن وقائع الحياة . وستفهمين ما أعنى عندما تتزوجين على كل حال » . فقالت ميراندا وقد شعرت لاول مرة تقريبا أنه قد تكون لذلك مزية : « أنا الآن متزوجة يا بنت العم ايفا ، منذ سنة تقريبا . وقد هربت من المدرسة » . وبدا ذلك لها غير حقيقى حتى وهى تذكره بلسانها ، كما بدا لها أن ليست له صلة على الاطلاق بالمستقبل . ومع هذا فهو مهم ، وينبغى ذكره ، لأنه مركز فى الحياة يبدو أن الناس يدققون فى صدده كثيرا . وكان الشعور الوحيد الذى استطاعت أن تثيره فى نفسها بخصوصه هو الاحساس بالاعياء الشديد ، فكأن الزواج علة عسى أن تأمل يوما فى الابلال منها ، فصاحت ايفا مروعة حقا : « يا للعار . يا للعار لو أنك ابنتى لأخذتك الى البيت وصفعتك » ! فضحكت ميراندا ، لان ايفا كانت تعتقد فيما يبدو أن الاشياء يمكن أن تسوى على هذا النحو . فكانت جادة صارمة مضحكة مبهوتة . وأجابتها ميراندا مناجزة : « يجب أن تعلمى اننى كنت أبادر الى الهرب ثانية من أقرب نافذة . فما دمت قد هربت فى المرة الاولى . فلماذا لا أهرب ثانية ؟ » فقالت ايفا : « أظن هذا . وأرجو أن تكونى قد تزوجت غنيا » . فقالت ميراندا : « ليس كثيرا جدا ، ولكن بما فيه الكفاية » ، كأنما يمكن أن تتمهل الواحدة لتفكر فى مثل هذا ! وسوت ايفا نظارتها وراحت تقيس بنظرها ثوب ميراندا وحقائبها ، وتفحصت خاتم خطبتها وخاتم زواجها ، وخيشوماها يختلجان كأنما تريد أن تتنسم منها ريح الثراء ، ثم قالت : « لا بأس . شىء خير من لا شىء . وانى أحمد الله فى كل يوم من أيام حياتى أن لى دخلا صغيرا . فذلك عماد الشيخوخة ، فماذا كان يحدث لى لو لم يكن عندى مال خاص ؟ وأعتقد أنك قادرة الآن أن تصنعى لاسرتك شيئا » . فتذكرت ميراندا ما كانت تسمعه دواما عن آل بارنجتون . فقد كانوا شرهين الى المال ، يحبونه ولا يحبون شيئا سواه . واذا وصلت أيديهم الى شىء منه كنزوه ، وكان الدم فى نظرهم أرق من الماء اذا اتصل الامر بالمال ، فقالت ميراندا معتبرة

نفسها باصرار من أسرة أبيها لامن أسرة زوجها ، وفى عنجهية الفقر : « نحن فقراء فعلا . ولكن ليس الزواج من ثرى مخرجا لنا من الفقر . » وكأنها كانت تعنى أن تقول لها : « لقد جهلت فرعنا فى الاسرة يا بنت العم أن كنت قد ظننت بنا ذلك الظن ! » فأجابتها ايفا على عادتها المخيفة فى استراق العبارات من ذهن محدثها : « ان فرعكم فى الاسرة لم يرزق من الزكانة العملية نصيبا يزيد على نصيب كثير من الاطفال » . وبان على وجهها الغثيان وهى تستطرد قائلة : « كل شىء عندكم مبذول فى سبيل الحب . كذلك أنتم ، وكان فى وسع جبريل أن يغدو ثريا لو أن جده لم يحرمه من الميراث ، ولكن هل رزقت آمى من العقل ما يحملها على الزواج منه كى يستقر فيرضى عنه جده ؟ كلا . وماذا كان جبريل حريا أن يصنع بغير مال ؟ ليتك رأيت الحياة التى سامها الآنسة هنى ، فيشترى لها يوما ثيابا من باريس ، وفى اليوم التالى يرهن قرطيها ، فكل شىء رهن بأرجل الجياد وقدرتها على السبق ، وكانت قدرتها تزداد فى كل يوم سوءا ، وجبريل يزداد فى الشراب انغماسا » . فلم تقل ميراندا أنها رأت بنفسها شيئا من هذا . وانما انصرفت الى تخيل الآنسة هنى فى ثياب من صنع باريس ، ثم قالت : « ولكن العم جبريل كان مجنونا بعمتى آمى ، فلم يكن عدم زواجها منه فى النهاية موضع بحث ، غنيا كان أو فقيرا » فزمت ايفا شفتيها فوق أسنانها ، ثم كشفت عنها ومالت فوق ميراندا وقد قبضت على ذراعها ، وهمست قائلة : « أن ما أتساءل عنه ، وأتساءل عنه مرارا وتكرارا هو أى علاقة لذلك المدعو رايمون بزواج آمى من جبريل . وماذا اقترفت آمى حتى أقدمت على الانتحار بعد ذلك بزمن وجيز ؟ فان آمى ـ وألقى بالك الى كلماتى يا بنية ـ لم تكن مريضة الى هذا الحد . فقد ظلت تسرح وتمرح سنوات بعد أن قال لها الاطباء ان رئتيها ضعيفتان . فآمى قد قتلت اذن نفسها هربا من عار أو من فضيحة كانت تواجهها » . وومضت عيناها السوداوان الحزريتان ، حتى غدا وجهها مروعا فى وضوحه واصراره ، وهمت ميراندا أن تقول : « كفى ، واتركيها ترقد بسلام ، فماذا فعلت بك ؟ »

ولكنها استحت وتخاذلت ،وشعرت فى أعماقها بلذة بشعة لما تستثيره ايفا من فظائع وظلمات . فما هو يا ترى ختام هذه القصة ؟

واستطردت ايفا قائلة : « لقد كانت فتاة سوء طائشة . ولكنى كنت مشغوفة بها الى الغاية . وقد تورطت فى مأزق على نحو ما ولم تجد لها منه مخرجا ، وعندى كل مسوغ للاعتقاد بأنها قتلت نفسها بذلك العقار الذى أعطوه لها لتسكين ألمها بعد النزف . فان لم يكن ذلك ، فما الذى حدث اذن ؟ » فقالت ميراندا وكأنما فى ذلك تفسير كل شىء : « لا أدرى ،وكيف عساى أن أدرى ؟ لقد كانت جميلة جدا . والكل يقولون ذلك ! » فقالت ايفا فى حزم ،وهى تهز رأسها : « ليس الكل ، فأنا مثلا لم أعتقد هذا يوما . وانما كان الكل يلغطون مهتمين بها . وكانت مليحة الطلعة ، ولكن لماذا كانوا يظنونها جميلة ؟ ذلك مالا أدريه . فقد كانت شديدة النحول وهى صغيرة ، وبعد هذا رأيتها أكثر بدانة مما ينبغى ، ثم عادت فى عامها الاخير أشد نحولا من ذى قبل ، وكانت تتصدى دائما لاسترعاء الانظار ،فكان الناس ينظرون اليها طبعا . وكانت تفرط فى الركوب ،وتسرف فى الرقص ، وتتمادى فى الكلام ، فلا بد أن يكون المرء أعمى وأصم وأخرس كى لا يلتفت اليها . ولست أعنى أن بهرجتها كانت صارخة أو سوقية ، ولكنها كانت مسرفة فى حريتها ..»

وتمهلت تسترجع أنفاسها وتضع فى فمها قرصا من النعنع ، وتخيلتها ميراندا واقفة على المنبر تخطب الناس ، وقد توقفت لتتعاطى النعنع ، ولكن لماذا تكره العمة آمى هذه الكراهية ، مع أن العمة آمى ماتت ، وهى على قيد الحياة ؟ أليس فى الحياة الكفاية ؟

وقالت ايفا : « ولم يكن داؤها جذابا مستلطفا أيضا . مع أنهم يزعمونها ذوت كما تذوى الزنبقة ، والواقع أنها كانت تسعل دما ، ان كان هذا ما يسمونه جذابا مستلطفا . ولو أنهم حملوها على العناية الواجبة بنفسها ومرضوها تمريضا معقولا ، لكانت اليوم على قيد الحياة .ولكن كلا . انهم لم يفعلوا من هذا

شيئا ، وانما كانت تضطجع متدثرة بأوشحة جميلة فوق أريكة ، وقد حفت بها الازاهير ، تأكل على هواها أولا تأكل ، وتنهض فى أعقاب النزف فتخرج لركوب الجياد أو للرقص ، وتنام والنوافذ مغلقة ، والخلق الكثيرون يدخلون ويخرجون ضاحكين متحدثين اليها فى كل وقت ، وآمى جالسة كى لا يفسد تمويج شعرها . فلماذا لا يقتل هذا النمط شخصا سليما على طول المدى ؟ لقد أشرفت على الموت مرتين فى عمرى . وفى كل مرة كنت أوجه الى المستشفى كما يجب ، وأترك هناك الى أن أخرج منه ، فكنت أخرج وأعود الى العمل » ...

وهمس فى أذن ميراندا صوت الاخلاق متمثلا : « يزول الجمال وتبقى السجية » ! ولكن لم يكن فى هذا المطمح ما يغريها ، فلماذا تشوهت السجية القوية ذلك التشوه ؟ وشعرت ميراندا أنها تريد حقا أن تغدو قوية ، ولكن كيف تواجه القوة ، وهى ترى بعينيها ما فعلته بهذه الماثلة أمامها ؟

وقالت ايفا : لقد كانت لها بشرة بديعة ، صافية تامة الشفافية ، وعلى وجنتيها حمرتان . ولكن كان هذا سلا . وهل يكون المرض جمالا ؟ وهى قد جلبته على نفسها بشرب الليمون والملح كى توقف حيضها اذا ما أرادت أن تذهب للمرقص ، وكان شائعا بين الفتيات ذلك الاعتقاد ، فكن يتوهمن أن الشبان يستطيعون معرفة ما بهن اذا لمسوا أيديهن ، بل اذا تطلعوا اليهن بأعينهم ، كأن لهذا أهمية ؟ ولكنهن كن شديدات التحرج ، مفرطات فى تقدير فطنة الرجال فى تلك الايام ! واعتقادى الخاص أن الرجل لا يستطيع ... ولكن على كل حال ، المسألة كلها عبث أحمق . » فقالت ميراندا شاعرة بعصريتها وسعة مداركها : « رأيى أنهن ينبغى أن يلزمن الدور اذا لم يستطعن المداراة » . فقالت ايفا : « لم تكن لديهن الجسارة ، لان تلك الحفلات والمراقص كانت سوقهن . فلم يكن يسع الفتاة أن تتخلف عنها ، لانه كان هناك على الدوام منافسات متربصات لقطع الطريق عليهن »

ورفعت ايفا رأسها وتقوست ، فكأنها جواد الحرب اذ يتشمم ريح المعمعة ، وقالت : « انك لا يمكن أن تتصورى كيف كانت المنافسة

وقتئذ ! وكيف كانت أولئك الفتيات يعامل بعضهن بعضا ! فكل سلاح مباح ، ولا مبالاة بخسة أو اسفاف ! » ·وجعلت ايفا تعصر يديها وهى تقول فى حنق : « وكانت المسألة كلها قائمة على الجنس · فلم يكن فى اذهانهن شىء سواه ، ولم يكن يدعينه بذلك الاسم ، وانما يموهنه باطلاق ألطف الاسماء عليه ، والواقع أنه ما كان الاللغريزة الجنسية حساب » !

ونظرت من النافذة محدقة فى الظلام ، وقد احتقن خدها الغائر القريب من ميراندا احتقانا شديدا، ثم التفتت وقالت فى افتخار : « لقد اتجهت الى الخطابة فى العراء وفوق أعواد المنابر حينما دعانى داعى الواجب · ودخلت السجن حينما اقتضت الضرورة ذلك ، ولم تكربنى حالتى ، وكنت أدفع وامنع ويعنف بى كأننى فى خير عافية · ولكن كان قوام فلسفتى ألا نجعل لمتاعبنا الجسدية ومشاغلنا البدنية أى أثر فى عملنا · وأنت فاهمة ماذا أعنى » ··· كأنما الموضوع لا يزال طى الغموض ··· « والواقع أن آمى كانت أقدر من الاخريات على المداراة ، ولم يكن يبدو عليها أنها تكافح وتقاوم · بيد أنها فى الواقع كانت مطية للجنس شأن سائرهن · وكنت وكأن ليست لها على وجه الارض منافسة ، وتتصنع أنها لا تدرى أى شىء يكون الزواج · ولكننى لم أخدع فيها · فما من واحدة منهن كان فى ذهنها ، أو كانت ترضى أن يكون فى ذهنها ، أى شىء سوى الجنس ، ولم تكن لهن دراية حقيقية بذلك ، ولهذا كن يتقيحن من الباطن » ·

وألفت ميراندا نفسها ترقب فى امعان موكبا طويلا من الجثث الحية لنساء متقيحات يخطرن الى ضريح مشيد ، وقد ستر تعفنهن تحت المخرمات والزهور ، ووجوههن الميتة مرفوعة باسمة ·· فقالت فى نفسها : « لا شك أن الأمر لم يكن على هذا النحو · وليس فى هذا التصوير من الحقيقة نصيب أكبر مما قيل لى من قبل ، وانما هى تزاويق الخيال فى الصورتين على السواء » ·

وتحقق لديها أنها سئمت بنت عمها ايفا والحاحها ، وباتت تواقة الى النوم ، تواقة الى البيت ، وتمنت لو طلع الغد فترى أباها

وأختها ، ففيهما حيـــاة دافقـة قوية ، وهما قمينان بأن يلاحظا ما بوجههامن غضون ، ثم يسألانهاهل تريد شيئا تأكله ٠

وقالت فى طفولة : « أمى لم تكن كذلك ٠ فقد كانت امرأة سوية تحب الطهو ٠ وقد رأيت جانبـا من حياكتهـا وقرأت يومياتها » ٠ فقالت ايفا بصورةآلية : «لقد كانت أمك قديسة» ٠ فصمتت ميراندا مستنكرة ، وهمت أن تبطش بايفا ، وقالت فى نفسها : « ما كانت أمى شـيئامن هذا القبيل » ! بيد أن ايفا كانت تستجمع الحقـد الى أن تجمع لها ما فاهت به قائلة ، وهى تضم قبضتيها وتهزهمـاقليلا : « لقد كانت آمى تقول لى دائما : أبرزى ذقنك يا ايفـا ،فقـد ظلت الاسرة طول عمـرى تعيرنى بذقنى ٠ وقد أفسد ذلك طفولتى جميعا » ٠ ثم انثنت تسأل فى شراسة لا يبـدو أن هذا العامل وحده كاف لتبريرها: « أيمكنك أن تتصورى أشخاصايزعمون أنفسهم متحضرين وهم يفسدون حيـــاة فتاة صـــغيرة بسبب لمحـة واحدة من ملامحها منكودة ؟ وكان ذلك طبعـا كما تعلمين مموها بالمرح الشـديد ، فكل انسـان كان يمزح بهـــذا الخصـــوص ، فلا يقصد الايذاء طبعا ٠ كلا ! كلا ! لا سوء على الاطلاق ! وهذا هو أفظع ما فى الموضوع ٠ هذا هو مالا يمكن أن أغتفره » ٠ وكانت تصيح وتلوى يديهـا كأنهما خرقتـــان ، ثم استرجعت أنفاسها ، واضطجعت الى الوراء ، وهدأت أساريرها فى النهاية ،وجعلت ترتعد : «الاسرة ٠ آه ! لو أمكن أن يمحى هذا النظام البشع من فوق سطح الارض ٠ فهو أس البلايا الانسانية ٠ » !فمدت ميراندا يدها وتناولت يد ايفا واستبقتها فيها ، فاختلجت اليد ثم استكانت ، وقالت ايفا فى وجوم وهى تتململ فيوسوس صدارها وسوسة شديدة : « انك لايخطر ببالك أدنى فكرة عما عاناه بعضنا ، ولكنى أردت أن تسمعى الجـانب الآخـر من القضية ، وأخشى أن أكون قـد أسهدتك وأنت بحاجة الى النوم لتصونى جمالك! » ٠فاستجمعت ميراندا نفسها وقد شعرت بالحدر ثم وقفت ، فمدت ايفـا يدها وجـذبت ميراندا اليهـا قائلة :« طاب ليـلك أيتها الطفـــلة العـزيزة ٠ من كان يظن أنك كبرت » ! فترددت ميراندا ، ثم

طبعت فجأة على خد ابنة عمها ايفا قبلة ، فالتمعت العينان السوداوان خلال الدمع لحظة ، ثم قالت ايفا بصوتها الدافىء الواضح الخطابى : « غدا نبلغ موطننا . وانى لأتطلع الى ذلك ، أو لست كذلك ؟ طاب ليلك » .

وأدرك ميراندا النعاس وهى تنضو ثيابها . وسرعان ما بزغ الصبح .. وكانت مشغولة باغلاق حقيبتها حين وقف القطار فى المحطة الصغيرة ، فرأت على الافريز أباها ، وقد بدا متعبا قلقا ، وقبعته فوق عينيه ، فنقرت زجاج النافذة لتسترعى انتباهه ، ثم جرت وألقت بنفسها عليه ، فقال : « حسنا . هذه فتاتى الكبيرة » كأنما هى لا تزال فى السابعة من عمرها ، بيد أن يديه اللتين كانتا فوق ذراعيها أوقفتاها بعيدا . وكانت لهجته متكلفة . فلم يكن هناك ترحيب بها ، وكان الامر كذلك منذ هربت ، فلم تستطع أن تقنع نفسها بما حدث ، وأبى ذهنها أن يتقبل ما تحقق لديه بين زيارتين لمسقط رأسها . ونظر والدها من فوق رأسها وقال فى غير دهشة : « أهلا بك يا ايفا . لقد سرنى أن أرسل اليك بعضهم برقية » ، وجوبهت ميراندا بالصد مرة أخرى ، فارتخت ذراعاها ، واستشعرت لذلك فى قلبها وخزة أليمة ، وقالت ايفا وقد أسدلت فوق وجهها خمارا أسود خفيفا كانت تدخره ولا شك لمأتم الاسرة : « لم يحدث أن أرسل الى أى فرد من أسرتى برقية فى عمرى . لقد سمعت النبأ من (كزيه) الصغير الذى عرفه من (جبريل) الصغير . وأظن (جاب) هنا ؟ » فقال الوالد : « الجميع هنا فيما يظهر ، فقد غص البيت » . فقالت ايفا : « سأمضى الى الخان أن أحببت » فقال الوالد : « ويحيى ! كلا ! لم أقصد هذا بل تأتين معنا حيث ينبغى لك » ..

وأقبل سكيد ، التابع ، فحمل الحقائب وانطلق فى شارع القرية الصخرى . وقال الوالد : « لدينا العربة » ، ثم تناول يد ميراندا ، بيد أنه أطلقها ، ومد يده يلتمس مرفق بنت العم ايفا ، فقالت ايفا متراجعة : « اننى بخير عافية ، فشكرا لك » . فقال الوالد : « اذا كنتن بهذا الاستقلال منذ الآن ، فكان الله فى عوننا عندما

تحصلن على حق الانتخاب » !فرفعت ايفا خمارها وابتسمت عن سرور صادق ، فقد كانت تستلطف هارى على الدوام ، فله أن يتحرش بها ما شاء ، ودست ذراعها فى ذراعه وقالت : « اذن انتهى جبريل المسكين وقضى الامر ! » فقال الوالد : « أجل . وقضى الامر ! وسيحين حيننا من بعد عما قريب . أليس كذلك يا ايفا ؟ » فقالت ايفا بغير مبالاة : « لست أدرى ! ولست أبالى ! فانى أستطيب العودة بين الحين والحين يا هارى ، وان لم يكن ذلك الا للمآتم . فانى أشعر بفرح آثم » ! فقال الوالد : « ما كان جبريل ليبالى هذا ، وكان يسره أن يراك مسرورة . فقد كان أمرح من رأيتهم من خلق الله ، وأخفهم للطرب حين كنا أحداثا . فقد كانت الحياة لجبريل رحلة استمتاع متصلة » ! فقالت ايفا : « يا للمسكين » فقال الوالد فى وجوم « يا لجبريل المسكين » !

وكانت ميراندا سائرة بجوار أبيها ، شاعرة بالغربة ، بيد أنها لم تكن آسفة لتلك الغربة . انه لم يغفر لها . وكانت تعلم هذا . ومتى سيغفر لها ؟ لم يكن فى وسعها أن تحدس ، ولكنها شعرت أن ذلك سيحدث من تلقاء نفسه ، بغير كلمات وبغير اعتذار أو اقرار من هذا الجانب او ذاك . وحينما يأتى الاوان لن يكون بأحدهما حاجة لتذكر ما أوقع بينهما الفرقة ، أو ما الذى أضفى على الموضوع كل تلك الاهمية . وقالت لنفسها فى كبريائها وغرورها : ان المسنين لا يمكن يقينا أن يختزنوا أحقادهم الى الابد ، لان الشباب لابد أن يعيشوا كما عاشوا هم ايضا ! فالمفروض أن أقترف أخطائى لأخطاءكم . وما دمت لا يمكننى أن أعتمد عليكم الا الى حد معين ، فلماذا اعتمد عليكم اطلاقا ؟

لقد كان هناك شىء يجب ان يعمل ، ولكن كانت هذه هى الخطوة الاولى . وقد خطتها هى ، سائرة فى صمت بجوار من هم اكبر منها سنا ، وقد أصبحا لا بنت عم ولا أبا ، ماداما قد نسيا محضرها بل اصبحا ايفا وهارى فحسب اللذين يعرف أحدهما الآخر خير معرفة ، وأنس كل منهما الى صاحبه لانهما تربان ندان ، يحتلان بمقتضى حقهما مكانهما فى العالم الذى وصلا اليه فى

تلك السن من طرق مألوفة لكليهما . فلا حاجة بهما للقيام بدور البنت أو الابن ازاء أشخاص لايفهمونها . ولا للقيام بدور الاب او بنت العم العجوز ازاء شباب لايفهمانه . فهما نفساهما وكفى . فصفت عيناهما ، واسترخى صوتاهما ، فارتدا الى طبيعتهما الخالصة ، فلا حاجة بهما لوزن الكلمات وتدبر أثر سلوكهما .

فقالت ميراندا فى نفسها : أناالتى لامكان لها . فأين أترابى وأين زمنى ؟ » وقد تأثرت مشاعرى فى بطء وعمق وصمت لحضر هذين الغريبين اللذين وعظاها وقرعاها ، اللذين أحباها حبا مريرا ، وأنكرا عليها حقها فى النظر الى العالم بعينى راسها ، وطالباها باعتناق نظرتهما الى الحياة ، مع أنهما لايجسران على البوح لها بالحقيقة ولو فى اهون المسائل . فقال لها أعمق ما فى سريرتها فى وضوح : انى اكرههما كليهما . وسأتحرر من كل صلة بهما ، بل سوف لا أتذكرهما ! » .

وجلست فى المقعد الامامى مع سكيد الخادم الزنجى ، فقالت ايفا لها بلهجتها الآمرة الحادة : « تعال معنا يامياندا ، فها هنا متسع » فقالت ميراندا بصوت فاتر حازم « كلاوشكرا لك ، فانى على راحتى هنا ، فلا تقلقى ولا تضايقى نفسك » ولم يتنبه أحدهما للهجتها ومسلكها ، فجلسا على راحتهما وانطلقا يتحدثان فى مودة أسرية عن موتاهما ، ومعاشهما ، وأشغالهما ، وآمالهما ، وذكرياتهما المشتركة . فيقاطع كل منهما صاحبه ، أو « يقفش » له فى بعض المواقف ، ثم يضحكان فى طرب وطلاقة ناضرة ، ماكانت ميراندا تحسبهما قد يزين عليها ، مستعيدين قصصا قديمة ، يجدان فيها مواطن جديدة للاهتمام . ولم يكن فى مقدور ميراندا ان تسمع تلك القصص لضجيج المحرك ، ولكنها أحست أنها تعرفها جميعا جيدا ، أو تعرف ما هو من قبيلها . فما اكثر ما تعرف من ذلك القبيل ، فهى تريد شيئا جديدا خاصا بها . وهذه اللغة التى يتحدثان بها مألوفة لهما ،

ولكنها غير مألوفة لهـا ، أو هى لم تعد كذلك . لقد قال ابوها ان البيت غاص بمن فيه من ابنـاء العم ، وكثيرون منهم غرباء ، فهل سيكون من بينهم أبناء عم شبان يسعها أن تتحدث اليهم عن أشياء تعرفها واياهم ؟ لقد شعرت بشيء من النفور من رؤية أبناء العم ، فهم أكثر مما ينبغى ، ودمها قـد ثار ضـد روابط الدم . فهى قد سئمت أبناء العم حتى الموت ، ولا تريد أن يكون لها بهذا البيت مزيد من الروابط ، لانها أزمعت أن تغادره ، بل أزمعت ألا تعـود الى اسرة زوجها أيضا . انها لا تريد ان يكون لها من بعد صلة تخنقها حبا وكرها . وقد ادركت الآن لماذا هربت لتتزوج ، وادركت انها هاربة ولا شك من الزواج أيضا ، وأنها سوف لا تقيم فى أى مكان مع أى انسان يمكن أن يحول بينها وبين أن تختبر معـارك الحيـاة ، أو أن يقول لها : لا . وتمنت ألا يـكون أحـد قد استولى على حجرتها القـديمة ، فقد احبت ان تنام فيها مرة أخيرة كى تودع الموضع الذى احبت الرقاد فيه يوما ، فنـامت فيـه واستيقظت فى انتظار يوم تشب فيه عن الطوق كى تبدأ الحياة . وتسـاءلت فى جد بالـغ ذلك التساؤل الصبيانى الذى لا جواب عنـه : « ماهى الحيـاة ؟ وماذا أصنع بها ؟ انها شيء املكه ، فماذا أصنع به ؟ » وكانت تتساءل فى حمى من الغيرة المتملكة ، ولم تدر أنها كانت تتساءل على ذلك النحو لان تربيتها الاولى كلهـا اوحت اليها ان الحيـاة شيء أو مـادة تستخدم ، وتتشكل وتوجه كما يريد مالـكها أن تـكون ... فالعيش هو اسـتمرار للاعمال المتصلة المتباينة الصـادرة عن الارادة والموجهة نحو غاية محدودة . ووقع فى روعها أن من الغايات ما هو خبيث وما هو طيب ، فلابد للمرء من الاختيـار . ولكن ما الطيب وما الخبيث ؟

وقالت فى نفسها : « انى اكره الحب » كأنما ذلك جواب سؤالها : « انى أكره أن أحب وأن أحب . أكره هـذا كله » ! وشـعر بالها المضطرب المشوش بالراحة تسرى فيه ، حين تداعى على حين فجأة ذلك البنيان المؤلم العتيق الذى لبناته الاوهام والاخيلـة المشـوهة ، فقالت لنفسها فى وضـوح غير مألوف ، وكأنهـا شخص مسن

يقرع مخلوقا غرا ضل سواء السبيل : « لاعلم لك بشيء من هذا الامر . وعليك أن تكتشفى كنهه » ولكن لم يدفعها فى اعماقها شيء الى العزم ، فلم تقل : « سأفعل هذا الآن ، وسأكون كذا ، وسأمضى فى هذه الوجهة ، واسلك طريقا معينا الى غاية معينة »! فلا بد قبل هذا من أسئلة تسأل، فمن الذى يجيب عنها ؟ لأحد ، والا كانت الاجابات اكثر مما يجب ولم يكن شيء منها صوابا .

وسألت نفسها فى الحاح ، وكأنما السؤال لم يسأله سائل من قبل: « ما الحقيقة ؟ ما الحقيقة؟ ولو فى أتفه المسائل وأهونها ؟ وأين أبدأ النظر والبحث عنهما ؟ »

واعتصم ذهنها مستيئسا لاينسى الماضى ، بل لينسى أسطورة الماضى وذكريات الناس عنه ، تلك الاسطورة التى قضت حياتها متطلعة اليها ، ناظرة فيها فى عجب ، كما ينظر الطفل فى مشاهد الفانوس السحرى . وقالت فى نفسها : « أجل ، ولكن أمامى حياتى أنا التى ستكون ، وحياتى الآن وبعد الآن . فلست أريد وعودا ، ولا مأرب لى فى أمان كذاب ، ولن أموه عن نفسى صور الخيال ، ولا يد لى بالحياة فى عالمهم من بعد » ...

ذلك ماانذرت به نفسها وهى تصغى للاصوات من وراء ظهرها: فليروكل منهما لصاحبه ماشاء من قصصه ، ويبين كيف وقعت الاحداث . فذلك لا يعنينى . فأنا على الاقل أستطيع أن أعرف حقيقة ما يقع لى ...

ذلك ما أكدته لنفسها فى صمت ، عهدا عليها مسئولا ، أملى لها فيه تفاؤلها وغرارتها ..

خمرة الظهيرة

للكاتبة الأمريكية المعاصرة

كاترين آن بورتر

نقلتها إلى العربية

الكاتبة الكبيرة

السيدة صوفي عبد الله

خمرة الظهيرة

الزمان : ما بين عامى ١٨٩٦ و ١٩٠٥

المكان : مزرعة صغيرة فى جنوب ولاية تكساس

كان غلامان صغيران قذران ، ذوا شعر متغير اللون ، يعيشان منقبين بين الحشائش النامية فى فناء الدار الامامى ، فأقعيا معتدلين على عقبيهما ،وقالا « مرحبا » حينما بصرا بذلك الرجل الطويل القامة البارزالعظام ، وقد يمم بوابة دارهما ٠

ولم يقف ذلك الرجل عند تلك البوابة ، فانها كانت مفتوحة منذ أمد طويل نصف فتح ، اذانكسر مفصلها فاستقرت على هذا النحو ، ولم يفكر فى اغلاقهاانسان ٠ بل ان الرجل لم يعر الغلامين نظرة ، بله أن يقرئهماالسلام ٠٠ وقصارى ما كان منه أنه خب بنعليهالكبيرين المثقلين بالتراب ، النعلحذو النعل ، كمن يسير وراء محراث ٠٠ وكأنه يعرفالموضع خير معرفة ، ويعرف وجهته وماذا عساه أن يلقىفيها ٠٠

ودار عن يمين البيت ، واتجهفى ظل صف من شجر التوت الصينى الى حيث كان مستر تومسون جالسا عند السدة الجانبية يهز قربة المخيض دفعاوجذبا ٠

وكان مستر تومسون رجلا مخشوشنا ، لوحته الشمس ،له لمة سوداء ، وقد نمت فى عارضيهلحية سوداء عمرها أسبوع ٠ وكانت فيه أنفة صارخة ، يرتفعرأسه حتى يبدو وجهه فى مستوى مقدم عنقه ، فيتصلعارضاه بشعر رقبته الى ما تحت ياقته المفتوحة فى رقعة واحدةسوداء ٠ وكانت قربة المخيض تقرقر وتوسوس كأنها بطنجواد راكض ٠ فكأن مستر تومسون ساعتئذ يسوق جوادا بيد واحدة ، فهو يرخى له العنان تارة ويستحثه طورا ٠وكان يلتفت بين الفينة والفينة

فيقذف من فيه بصقة هائلة من عصير الطباق فوق درج السلم ، وانها للامعة بنية اللون بما غشيها من عصير الطباق الطرى . فقد غبرت على المستر تومسون ساعة طويلة وهو يخض تلك القربة حتى أدركه الملال .

وكان يستجمع بصقة ليقذف بها حين ظهر أمامه رجل غريب، أزرق العينين زرقة باهتة تكاد تكون بياضا محضا ... وأطلت عليه عيناه من وجهه الطويل الناحل ، ومن تحت حاجبيه الابيضين ، وكأنه ينظر اليه ولا يراه . فأدرك مستر تومسون من استطالة شفته العليا أنه خيال رجل من أبناء ايرلندا ، فقال له فى تأدب ،وهو يهز قربته : « كيف حالك يا سيدى . » ؟ فقال الرجل بلسان مبين على ما فيه من لكنة أجنبية : « أنشد عملا » ... ولم يستطع مستر تومسون تحديد تلك اللكنة ، فلا هى زنجية ولاهى هندية ولا هى هولندية ...

واستطرد الرجل قائلا : أبحاجة أنت الى رجل ؟ » فدفع مستر تومسون القربة دفعة شديدة فمضت تهتز وحدها برهة طويلة ، ثم جلس على الدرج وقذف ببصقته بين الحشائش ، وقال : « اجلس . فربما وصلنا الى اتفاق . فقد كنت أتطلع الى استخدام أحد بعد الزنجيين اللذين كانا عندى وسطوا فى الاسبوع الماضى على منشر الخشب القائم عند النهير ، فقتل أحدهما وأودع الآخر سجن بلدة (كولدسبرنجز) وكانا كلاهما لاخير فيهما والحق يقال ، فلعله ينبغى أن استأجر من يحل محلهما . وأين كنت تعمل ؟ »

فقال الرجل ، وهو يقتعد الطرف الاقصى من الدرج ، قعود المستقر الذى لاينبو به المكان ،لا جلسة مكدود أعنته المسير : « فى شمال داكوتا » .

ولم يرفع الى مستر تومسون بصره قط ، ولكن لم تكن فى نظرته شائبة من مهانة ، فانه لم يكن ينظر الى شىء أو يوجه نظراته غير وجهته ، وانما قرت عيناه فى دماغه ، والاشياء من حوله تمر بهما ، وكأنهما لاتتوقعان أن تريا فيما تقعان عليه ما يستحق النظر .

ولبث مستر تومسون برهة طويلة فى انتظار مزيد يخرج من بين شفتى الرجل ، فالفاه قد استسلم للشرود ، فقال مستر تومسون ، وهو يكد ذهنه لتذكر ذلك الموضع : « شمال داكوتا ؟ انها لمسافة شاسعة فيما يبدولى ... » فقال الرجل : « فى استطاعتى القيام بجميع الاعمال فى المزرعة . وبأجر رخيص .. لحاجتى الى العمل » .. فوطن مستر تومسون نفسه على الجد وقال : « اسمى تومسون : مستر رويال ايرلى تومسون » . فقال الرجل : « وأنا مستر هلتون ، مستر أولاف هلتون » . ولم يتحرك فيه شىء لذلك التعارف . فقال مستر تومسون عندئذ فى نبرة مرحة : « والآن ياصاح ، لندخل فى الموضوع .. »

وكان المستر تومسون اذا أقدم على التعاقد اشتدت بشاشته وحماسته . فلا عيب فيه الا أنه كان يكره أداء الاجور كراهته ابليس ! وكان يبرر ذلك لنفسه قائلا : « انك تقدم لهم المأكل والمسكن ، ثم يطالبونك فوق هذا بأداء الاجور أيضا ! ليس هذا عدلا . . ثم لاتنس مايصيبون به أدواتك من استهلاك يحيل كل شىء من بعدهم الى حطام وأنقاض . »

ولهذا راح تومسون يضحك ويشق طريقه الى التفاهم بالصياح والقهقهة شقا .. فقال وهو يضرب ركبته بيده : « الآن ، أريد ان أعلمكم تنوى أن تبتزمنى » ... وظل على ذلك الوضع هنيهة حتى أحس سخافته فاستخزى واقتطع لنفسه مضغة ، أما مستر هلتون فكان يحدق فى شىء ما بين الحظيرة والبستان ، وهو كالنائم ، وان يكن مفتوح العينين . ثم قال وكأن صوته ينبعث من جوف قبر : « انى عامل حاذق . وأتقاضى دولارا فى اليوم . فوقع ذلك من مستر تومسون موقعا أذهله عن القهقهة بأعلى صوته كما كان ينوى الى أن فات الاوان ، وعندئذ صاح : « هاو ! هاو ! لعمرى انى أوجر نفسى بدولار فى اليوم لو وجدت الى ذلك سبيلا .. وأى ضرب من العمل ذاك الذى كنت تتقاضى عنه دولارا فى اليوم ؟ » . فقال مستر هلتون وليس فى وجهه أثر ابتسام : « فى حقول القمح ، بشمال داكوتا » . فكف مستر تومسون عن الضحك ، وقال كالمعتذر : « ليس ها هنا من حقول القمح شىء ، فهذه مزرعة دواجن . ذلك أن زوجتى أصرت

على أن تكون كذلك ، لانها تحب العمل وسط الابقار والعجول ، فنزلت على رغبتها ، ولكنها كانت غلطة ، فقد وقع على عبء القيام بجميع الاعمال دونها ، اذ هى ليست مكتملة العافية وهى اليوم فى واقع الامر مريضة ، وقد اعتلت صحتها فى الايام القلائل الاخيرة . ونحن نزرع هنا شيئا من الطعام والعلف ، ورقعة صغيرة من الاذرة ، ثم لدينا هذا البستان ، وبضعة خنازير ودجاجات . بيد أن شاغلنا الاساسى هو الابقار . وأصارحك مصارحة رجل لرجل أنه لا طائل وراء كل هذا العناء . فالمال شحيح ، ولا أستطيع أن أعطيك دولارا فى اليوم ، لاننى فعلا لا أصل الى هذا المبلغ من غلة المزرعة كلها ! كلا يا سيدى ، فان محصولنا أقل بكثير من دولار فى اليوم اذا نظرنا الى المتوسط على مدى العام . والحقيقة أننى كنت أدفع سبعة دولارات فى الشهر للزنجيين . ثلاثة ونصفا لكل منهما . عدا المأكل . ولكن اعتقادى أن رجلا أبيض واحدا يعدل حفنة كاملة من الزنج . ولهذا سأعطيك سبعة دولارات وسوف تأكل على المائدة معنا ، وستعامل معاملة البيض كما يقولون . » فقال مستر هلتون : « هو كذلك . قبلت . » ففقز مستر تومسون واقفا كمن تذكر موضوعا مهما ، وقال : « حسنا . أظن أننا اتفقنا . أليس كذلك ؟ والآن تول أمر هذه الحضاضة ، وهزها الى أن أركب الى المدينة لقضاء مسألتين يسيرتين . فانه لم يتح لى أن أغادر مكانى طول الاسبوع . وأحسبك تعرف ماذا تصنع بالزبد بعد أن يتكون . أليس كذلك ؟ » . فأجابه مستر هلتون دون أن يلتفت الى ناحيته : « أعرف . أعرف طريقة صنع الزبد » . وكان يتشدق بمخارج الحروف تشدقا غريبا ، فيتموج صوته تموجا بطيئا فى ارتفاعه وانخفاضه ، ولو كان ما يتفوه به كلمتين اثنتين ! وكان يضغط فى غير مواضع الضغط الصحيحة . فعجب مستر تومسون : الى أى جنسية ينتمى مستر هلتون ، فسأله وكأنه يتوقع أن يناقض نفسه : « والآن أين قلت أنك كنت تعمل قبل حضورك الى هنا ؟ » فقال مستر هلتون : « فى شمال داكوتا » فقال مستر تومسون : « كل مكان يحل فيه المرء يحسن لديه متى ألفه . وأنت أجنبى . أليس كذلك ؟ » فقال مستر هلتون : وقد شرع يهز قربة المخيض : « انى سويدى » فأطلق مستر تومسون ضحكة عريضة كأنه سمع أبدع نكتة فى حياته ، وقال بأعلى صوته : « لعمرى أيها السويدى أنك

ستستوحش فى هذا الموضع فيما أخشى . فما رأيت سويديا قط فى هذه الجهة من الغابات . » فأجابه مستر هلتون وهو يخض القربة، وكأنه سلخ فى مكانه هذا سنوات: « لا بأس . » ! فقال مستر تومسون مستطردا : « الحقيقة بصراحة أنك أول سويدى وقعت عليه عينى فعلا . » ! فكان جواب مستر هلتون فى هذه المرة أيضا : « لا بأس » !

***

ودخل مستر تومسون الحجرة الامامية ، حيث كانت مسز تومسون مضطجعة وقد أسدلت مصاريع النوافذ الخضراء ، وفوق مائدة الى جوارها وعاء به ماء ، وفوق عينيها خرقة مبللة ، فلما سمعت وقع قدمى مستر تومسون رفعت الخرقة عن عينيها وسألته: « ماهذه الضجة ؟ من هذا ؟ » فقال مستر تومسون : « جاءنى انسان يقول انه سويدى يا (الى) ويزعم أنه يعرف صناعة الزبد » فقالت مسز تومسون : « عسى أن يكون صادقا ، ويبدو لى أن دماغى لا أمل فى تحسن حاله . » فقال مستر تومسون : « لا تقلقى ، فانى أراك مهتمة للامر اكثر مما ينبغى . وسأركب أنا الآن الى المدينة كى ابتاع شيئا يسيرا من البقل » فقالت مسز تومسون : « لا تتلكأ اذن يامستر تومسون . ولا تذهب الى الخان » .. وكانت تعنى بالخان الخانة التى يؤجر صاحبها حجرات فى الطابق الذى يعلوها لمن شاء المبيت . فقال مستر تومسون وهو يضحك ضحكا مدويا : « ان هما الا كأسان خفيفان » ، لا ضير منهما على أحد » فقالت مسز تومسون : « أما أنا فلم أذق منهما فى حياتى قطرة ، ولن أذوقها ابدا » ! فقال مستر تومسون : « ماكان حديثى عن النساء ! »

وأسلم صوت الخض المطرد مسز تومسون الى اغفاء لطيف ، ثم الى نعاس عميق أفاقت منه فجأة ، مدركة أن الخض قد توقف منذ امد طويل . فجلست وقد ظللت عينيها الواهنتين لتحميهما من ذلك التبصيص الضئيل الذى ينساب من شمس الاصيل الصائفة ، ما بين قاعدة النافذة ومصراعها المسدل . وها هى بحمد الله على عيد الحياة مطالبة باعداد طعام العشاء ، ولكنها معفاة من خض اللبن . وهذا دماغها لم يكف عن دورانه ، ولكن فى رفق .

ورويدا رويدا تبينت أنها كانت تسمع وهي نائمة صوتا جديدا ، هو صوت عزف على المزمار ، لا من قبيل ذلك العزف المضطرب الصاخب ، وانما هو نغمة حلوة فيها حبور وفيها أسى ...

واخترقت المطبخ ، ثم تجاوزت السدة ، واتجهت صوب المشرق ، وقد ظللت عينيها ، فلما اتضح بصرها واستقر رأت رجلا طويلا أشهب الشعر فى سروال أزرق ، جالسا عند عتبة الكوخ المعد للاجراء ، مستلقيا الى الوراء فوق كرسى من كراسى المطبخ ، وهو ينفخ فى مزماره مغمض العينين ، فوجف قلب مسز تومسون وغاص ... يا الهى ! انه يبدو مكسالا غثا فى صورته هذه ! وقد بليت من قيل بسود زمارين ، وها هو ذا رجل أبيض لا يركن اليه . ومن شيمة مستر تومسون أن يستخدم هذا القبيل من الرجال . وتمنت لو أنه كان أشد اهتماما ورعاية لعمله ، لانها كانت راغبة فى الثقة بزوجها ، وان خذلتها تلك الثقة من قبل مرات ومرات ، وكانت تريد أن يفتح أمامها باب العقيدة فى أن غدا أو بعد غد سيحمل اليها أملا فى تطور معركة الحياة تطورا مواتيا .

ومرت بالكوخ دون أن تتلفت ، فى خطو متزن ، وقد انحنت عند خاصرتها للألم الذى ينتاب جنبها ولا يكاد يفتر عنها ، فمضت الى الينبوع ، وفى نيتها أن تقرع هذا الاجير الجديد ان لم يكن قد قام بعمله .. وكان معمل اللبن عبارة عن كوخ من ألواح لوحتها الشمس ، سمر بعضها الى بعض على عجل منذ سنوات ، لان الحاجة كانت ماسة الى قيام معمل ، وكان المفروض أنه بناء مؤقت ، وقد أضحى الآن مختلط الشكل ، مائلا الى هذا الجانب أو ذاك ، معششا فوق نزر متصل من الماء البارد يتساقط من كهف صغير يكاد يغص بما تراكم فيه من طحالب مصفرة . ولم يكن فى الجوار كله من يملك نظيرا لهذا الينبوع ، فحق لمستر ومسز تومسون أن يغتبطا به ، ولكنهما لم يحسنا الاهتداء الى وجه النفع منه حق النفع ! وفى الرحبة المحيطة بتلك البركة الصغيرة التى تقبع فى مائها البارد دلاء اللبن والزبد طازجة غضة ، رفوف انتشرت حيثما اتفق . وعند ذاك وقفت مسز تومسون ، وقد سندت جنبها الموجع الاعجف باحدى يديها ، وظللت بالاخرى عينيها ، وانثنت

تنظر فى تلك الدلاء : فاذا القشدة وقد مخضت وعزلت ، واذا قدر كبير من الزبد ، وأما القوالب الخشبية والحقاق فكانت مغسولة مجلوة لأول مرة منذ زمن لايدرى أحد مداه، وكان الدن مملوءا بنقاية المخيض الذى يقدم للخنازير ورضعاء العجول ، وأما الارض التى كانت فوقها طبقة صلدة من القذارة ، فقد أصبحت نظيفة مستوية، فانتصبت مسز تومسون وابتسمت فى ترفق ، ولئن كانت قد انتوت أن تعنف به وهو الرجل المسكين ذو الحاجة الذى وفد ليومه ، فلا غرابة ان اختلط عليه أمر العمل فلم يحسنه لأول وهلة ، فما كانت لتستكثر شيئا فى سبيل رفع ذلك الغبن عنه ، وما كان لها الا أن تعرب له عن مبلغ تقديرها لعمله الجيد النظيف ، الذى فرغ منه فى أوجز وقت . فاتجهت صوب باب الكوخ فى خطوها المتزن، ففتح مستر هلتون عينيه وكف عن الزمر ، واعتدل فى جلسته، بيد أنه لم ينظر اليها ولم ينهض واقفا . وكانت هى امرأة ضئيلة قصيرة ذات شعر بنى كثيف يجتمع فى ضفيرة واحدة ، عليلة الفم ، كليلة العينين ، قريبة المدمع ، فجمعت أصابعها لتظلل عينيها ، وقد جعلت ابهاميها فوق عارضيها، وقالت له فى رقة وتأدب : «كيف حالك يا سيدى ؟ انى مسز تومسون ، وقد أحببت أن أقول لك أنك أحسنت حقا عملك فى معمل اللبن ، فقد كان العمل فيه عسيرا على الدوام ؟ فقال بصوت بطىء دون أن يأتى بحركة : « لا بأس » . فتمهلت مسز تومسون لحظة ثم قالت : « انك تعزف نغمة حلوة ، ومعظم الناس لا يحسنون العزف على مثل هذه الآلة » !

وجلس مستر هلتون مقوس الظهر مبسوط الساقين ، ولولا انسياب ابهامه فوق منافذ المزمار لحسبته نائما ، وكان ذلك المزمار كبيرا جديدا براقا . وقد أحصت مسز تومسون حين أجالت بصرها فى الكوخ خمسة مزامير أخر كلها جيد فاخر ، وقد صفت على رف بجوار مرقده . فقالت فى نفسها وقد لاحظت أن الغرفة خالية من كل قنية خلا هذه المزامير : « ينبغى أن يحملها معه أينما ذهب ، فى جيب قميصه » . ثم قالت له : « أراك شغوفا بالموسيقى ، وكان لدينا فيما مضى معزف عتيق كان مستر تومسون يؤدى عليه ألحانا بديعة ، ولكن الغلامين أفسداه » . فنهض مستر هلتون وثبا

واهتز المقعد من تحته ، واعتدلت ركبتاه وأن تعتدل كتفاه ، ونظر الى الارض كمن يصغى محتفيا ، فاستطردت مسز تومسون قائلة: « وأنت تعلم أحوال صغار الغلمان وأطوارهم . فمن الخير أن تضع هذه المزامير فوق رف عال خشية أن يصلا اليها ، ففيهما ولع بالعبث بكل ما تصل اليه أيديهما . وكم اجتهدت فى تهذيبهما ، ولكن فى غير كبير طائل » .

وبوثبة واحدة من ذراعيه الطويلين ضم مستر هلتون مزاميره الى صدره ، ثم صفها فوق النتوء الذى تجتمع لديه أخشاب السقف بالجدار ، ثم دفعها الى الداخل حتى اختفت عن النظر أو كادت . فقالت مسز تومسون : « هذا أحسن » . ثم دارت بنظرها وقد أكرهت عند مواجهة الغروب على اغماض عينيها ، وقالت : « وانى الآن لأعجب أين هذان الضفدعان ، فانى لا أقدر على ملاحقتهما » وكانت تتحدث عن وليديها دواما وكأنهما من ذوى القربى المضجرين وقد استطال مقامهما حتى أملها . فقال مستر هلتون بصوته الاجوف: « انهما عند شاطىء النهير » . فأدركت مسز تومسون بعد شىء من الريب أن هذا جواب ما سألته ، وقد وقف فى سكون الصابر ، لا وقفة من ينتظر انصرافها حتما ، ولكن وقفة من لا ينتظر سوى ذلك ، وكانت مسز تومسون متعودة أن تلقى فى الرجال صنوفا من البدوات والشذوذ . فكان همها أن تتعرف مبلغ اختلاف بدوات مستر هلتون عن بدوات غيره من الرجال ، ثم تروض نفسها عليها كى يطمئن الى مقامه عندها ، وقد كان أبوها من قبل من أهل البدوات وكذلك اخوتها وعمومتها ، وما كان فيهم على كثرتهم أشباه فى الأهواء . وكل أجير أيضا كانت له نزعة اختص بها ، وها هو ذا الآن مستر هلتون ، ذلك السويدى ، لا يميل الى الكلام ، وله بعزف هذه المزامير هوى . فقالت مسز تومسون فى شىء من التودد: « سرعان ما سيطلبان طعاما . ولست أدرى أى شىء أصنع للعشاء؟ فماذا تحب أن تأكل يا مستر هلتون ؟ ان لدينا على الدوام كفايتنا من الزبد الجيد واللبن والقشدة . وانها لنعمة جزيلة . ويرى مستر تومسون أن نبيعها كلها ، بيد أنى أصر على أن أهل البيت لهم المقام الاول ! وكان وجهها الصغير متقلصا بما ارتسم

فوقه من ابتسام يشوبه الألم ، فقال مستر هلتون بصوته المتموج : «آكل أيما شيء»، فقالت مسز تومسون في نفسها أن الرجل لا يعرف الكلام ، وعيب أن ننساق في التحدث اليه وهو لا يحسن اللغة . وخطت مبتعدة عن الكوخ خطوة ، ثم انثنت تنظر اليه من فوق كتفها قائلة : «خبزنا من الذرة الا يوم الاحد ، ولا أظن أن موطنك يعرف الجيد من خبز الذرة » ، فلم يجبها مستر هلتون بشيء ، ورأته من جانب عينها وقد جلس مائلا بمقعده الى الوراء ، وراح يحدق في مزماره ، فتمنت لو تذكر أن وقت الحلب قد حان ، بيد أنه شرع يعزف نغمته الاولى اذ هي عائدة الى البيت !!

***

حل وقت الحلب ثم انقضى . وأبصرت مسز تومسون المستر هلتون رائحا وغاديا بين حظيرة الابقار ومعمل اللبن ، يخطر في مشيته بخطوات واسعة خفيفة ، حانى الكتفين ، مطأطىء الرأس ، والدلوان الكبيران كأنهما في تأرجحهما وتدليهما من ذراعيه الطويلتين كفتا ميزان .

وعاد مستر تومسون راكبا من المدينة أشد انتصابا وأعدل قامة ، ووراء سرجه خرج مزدوج حافل بالمؤن . فلما ألم بالحظيرة دخل المطبخ وقد ملأه البشر ، فطبع على وجنة مسز تومسون قبلة مدوية بعد أن كنسها بشعر عارضه الطويل . فقد كان واضحا أنه مر بالحان ... ثم هتف بها : « لقد طوفت بأنحاء الدار يا « الى » .. وما من شك أن هذا السويدي يطحن العمل طحنا . ولكنه أصمت من رأيت من خلق الله في حياتي فما . وكأني به يخشى أن يتحطم فكه ان هو فتحه » .

وكانت مسز تومسون ترب ماعونا كبيرا من دقيق الذرة في اللبن الرائب ، فقالت له بكل وقار : « ان رائحة الخمر تفوح منك يا مستر تومسون . وليتك تكلف أحد الغلامين ان يأتيني بمزيد من حطب الوقود ، فقد انتويت ان اخبز غدا خبزة جديدة » .. فنفذت على الفور رائحة انفاس مستر تومسون الى أنفه ، فتسلل خارجا بعد هذا التقريع الحق وأحضر الحطب بنفسه . أما آرثر وهربرت فأقبلا يتصايحان في طلب العشاء

وقد غمرتهما الاقذار من قمة الرأس الى اخمص القدم ، ومن الدثار الى اديم البدن ، فقالت لهما مسز تومسون قولها المعاد المعتاد : «اذهبا فاغسلا وجهيكما ومشطا شعركما » . . فتقهقر الاثنان الى السدة الخارجية ، ووضع كل منهما يده تحت مضخة الماء ثم بلل مقدمة رأسه ، فمشطها بأصابعه ، وعادا على عجل الى المطبخ الذى تركزت فيه كل مطامع حياتهما . . واضافت مسز تومسون صحفة الى الصحاف الاربع ، ثم امرت آرثر ، أكبر ولديها الذى يناهز الثامنة ، أن يدعو مستر هلتون الى العشاء . فلم يبرح آرثر موضعه ، بل راح يخور خوار الثور : « اســـما ا ا ا ع ! ياهلتو و و و ن ! العشـــا ا ا ا ء حاضـ . . . ر ! » ثم اردف بصوت خفيض : «يأيها السويدى الطويل » . . فقالت له مسز تومسون : « اصغ الى . ما هكذا ينبغى لك .. فاذهب الآن اليه وسله الحضور فى أدب ، والا جعلت أباك يضربك علقة مليحة ! »

ولاح مستر هلتون عند الباب بقامته الطويلة وسحنته الواجمة ، فقال له مستر تومسون مرحبا ، وهو يشير بذراعه الى مقعد : « اجلس هاهنا » . فقطع مستر هلتون المطبخ بحذاءيه المربعين فى خطوتين اثنتين ، ثم حط فوق المقعد واستقر فيه . وكان مستر تومسون يشغل رأس المائدة ، أما الصبيان فقد تشعبطا فوق مقعدين مواجهين لمقعد مستر هلتون ، وجلست مسز تومسون عند الطرف الآخر من المائدة قريبا من الموقد .

وشبكت مسز تومسون راحتيها ثم حنت رأسها وقالت بصوت عال وفى سرعة ظاهرة :« يا الهى نقدم اليك الشكر على هذه النعمة وعلى عطاياك الاخرى أيضا باسم يسوع المسيح آمين » وكانت تجتهد ان تفرغ من صلاتها هذه القصيرة قبل ان تتسلل كف هربرت الصغير القذر الى اقرب طبق من أطباق الطعام . ولو أنه تمكن من ذلك قبل أن تفرغ من الصلاة لتعين عليها أن تبعده عن المائدة مطرودا ، والاطفال الصغار النامون بحاجة ماسة الى الغذاء . وكان مستر تومسون وآرثر ينتظران نهاية

الصلاة دائما ، أما هربرت الذى لم يجاوز السادسة فكان أصغر من أن يلتزم الحدود المرعية !

وحاول مستر ومسز تومسون أن يستدرجا مستر هلتون الى الحديث ، بيد أنهما باءا بالفشل . وقد جربا أول الامر الكلام عن الجو ، ثم عن الحاصلات ، ثم عن الابقار . ولكن مستر هلتون كان لا يخرج عن صمته فى جميع هذه الاحوال . فأنشأ مستر تومسون عندئذ يروى نادرة شهدها بنفسه فى المدينة . وكانت هذه النادرة عبارة عن اقدام نفر من أصدقائه الزراع فى الخان على تجريع عنزة مقدارا من الجعة ، وما كان بعد ذلك من امر العنزة ومسلكها الفكه . وكأنما لم يسمع هلتون من تلك القصة شيئا ، فضحكت مسز تومسون قياما بالواجب ، وان لم تر فى القصة طرفا من الفكاهة ذا بال ، فهى قد سمعتها مرارا من قبل ، وان كان مستر تومسون يزعم كلما رواها أنها وقعت ذلك النهار بالذات . فلابد انها ، ان كانت قد وقعت فذلك منذ سنوات مضت . ثم ان مسز تومسون ما كانت لترى انها مما يليق سرده فى مجلس مختلط يجمع بين الجنسين . فلا شك أن المسؤول عن ذلك هو ما يجنح اليه مستر تومسون من تزيد فى الشراب بين الحين والحين .. مع أنه يعطى صوته دائما فى جانب التحريم كلما اجرى الانتخاب .

وقدمت مسز تومسون الالوان الى مستر هلتون ، فكان يتناول من سائرها بلا استثناء ، ولكن بمقدار لا يقيم اود مثله على أكمل وجه ، اذا كان ينتوى أن يستمر فى العمل على النهج الذى بدأه . !

وفى الختام التقم من فطيرة الذرة قطعة كبيرة فمسح بها طبقه حتى غدا نظيفا كأنما لعقه كلب بلسانه ، ثم حشا بها فمه حتى اكتظ ، وغادر مقعده وهولا يزال يمضغها ، مستقبلا الباب فقالت مسز تومسون « طاب ليلك يامستر هلتون » وتلقف الآخرون تلك الجملة فرددوها تباعا : « طاب ليلك يامستر هلتون » ، فأتاهم صوت مستر هلتون المتموج مزمجرا من جوف الظلام : « طاب ليلكم » .

وراح الغلامان يقلدان لهجته الغريبة ويتضاحكان ، فصاحت بهما مسز تومسون : « كفا عن هذا . فلا ذنب له فى لهجته . وينبغى أن تخجلا كلاكما من السخرية برجل غريب مسكين على هذا النحو ، أم هل يحب أحدكما أن يكون غريبا فى ديار غريبة » ؟ فقال آرثر : « أحب ذلك ، وأحسبه يكون شيئا مسليا لطيفا » فقال مستر تومسون : « انهما كلاهما زنديقان يا الى . وجاهلان جهولان » ثم حول وجهه نحو صغيريه فى غضب أبوى كاشر وقال : « ستذهبان كلاكما الى المدرسة فى العام القادم . وسيردكما ذلك الى شىء من العقل ، » فقال هربرت : « أما أنا فسيدخلوننى الاصلاحية متى بلغت السن » فسألته مسز تومسون : « أحقا ؟ ومن قال هذا ؟ »

فقال هربرت متباهيا : « معلم مدرسة الاحد » ، فقال مستر تومسون محملقا فى زوجته : « أرأيت ؟ ألم أقل لك ؟ » وانقلب الى أعصار من الغضب ، وأخذ يزأر حتى انتفضت عروق رقبته وهو يصيح : « اذهبا كلاكما الى الفراش حالا قبل أن أسلخ جلدكما » فانطلقا ، وسرعان ما صدرت من خزانة نومهما المقتطعة من السقف المنحدر أصوات العراك والدغدغة والضحك والعواء ، فملأت البيت واهتز لها سقف المطبخ ، فقالت مسز تومسون متشجعة ولكن فى صوت تعوزه الثقة : « لا طائل وراء تشديد النكير عليهما فى هذه السن الغضة ، فلا طاقة لى بذلك » . فقال مستر تومسون : « عجبا يا الى ! ينبغى أن نحسن تربيتهما فلا نتركهما يشبان على الفطرة كما تشب الخنازير » ! فطرقت موضوعا آخر قائلة : « يبدو أن مستر هلتون هذا لا بأس به وان لم تفلح الحيلة فى حمله على الكلام . وانى لأعجب ما الذى طوحه على كل هذا البعد من موطنه ؟ » فقال مستر تومسون : « انه ليس من أهل الثرثرة كما قلت . ولكن لا شك أنه ذو دراية بالعمل ، وهذا فيما أعتقد هو المهم . فالمنطقة غاصة بالمتسولين الذين ينشدون عملا » .

وكانت مسز تومسون تجمع الصحاف ، فتناولت طبق مستر تومسون من تحت ذقنه ، وقالت : « الحق الصراح أقول لك

اننى أفضل كثيرا أن يكون فى الدار رجل يحسن العمل ويحسن الصمت ، فان ذلك يعنى أنه سيكون بمنأى عن شئوننا . وان لم يكن من شئوننا مانكتمه، الا أن هذا أفضل » . فقال مستر تومسون وهو يضج بالضحك فجأة : « انه لحق . هاء هاء ! ومعنى ذلك انك ستنفردين بالكلام . أليس كذلك؟» فاستطردت مسز تومسون فيما كانت بسبيله قائلة : « والمأخذ الوحيد عليه أنه لايقبل على الاكل اقبالا يرضينى ، فانى أحب أن أرى الرجل يجلس الى طعامه جلسة المستطيب . وقد كانت جدتى تقول انه لا وجه للاعتماد على رجل لا يأتى على عشائه . وعسى رأيها لايصدق هذه المرة . » فقال مستر تومسون، وقد أخذ ينظف أسنانه بالشوكة ، وهو مائل الى الوراء على خير ما يكون من انشراح الصدر : « لك أقول الحق يا الى ، لقد كان رأيى فى جدتك دائما انها عجوز خرفة، ينطق لسانها بأول خاطر يطوف برأسها، ثم تزعمه الهاما الهيا» فأجابته مسز تومسون على الفور : « لم تكن جدتى خرفة على الاطلاق ، وكانت فى تسعة أعشار الاحوال تفقه ما تقول. ثم ان رأيى أن أول مايتبادر الى ذهنك هو خير مايمكن أن ينطق به لسانك » . فقال مستر تومسون وقد اندمج فى صيحة جديدة : « لابأس .. ومادمت حساسة جدا من جهة قصة العنزة .. فهلا جربت الكلام مرة فى مجلس مختلط ؟ فما قولك اذن على هذا الاساس اذا كان أول ماتبادر الى ذهنك ما يكون بين الدجاجة والديك ؟ لا اخالك الا مزعجة حياء الواعظ الفاضل » . ثم قرص عجيزتها العجفاء قرصة قوية وقال بهيام : « انك لاتحملين من اللحم أكثر مما يحمل الارنب، وانى لأحب الارانب السمان » ، فحملقت مسز تومسون فى وجهه واحمر وجهها ، وكانت على الرؤية فى ضوء المصابيح أقدر ، وقالت : «عجبا يامستر تومسون.. انى أخالك فى بعض الاحيان من أشد خلق الله أسفافا فى التفكير . » ثم جمعت يدها على قبضة من شعر رأسه وشدتها شدا بطيئا شديدا وهى تقول

فى لطف : « هذا لتذوق طعم القرص الشديد وأنت تتصنع الدعابة » .!!

***

وعلى ما بلغه مستر تومسون فى الحياة من نجح ، لم يفارقه الاعتقاد الجازم أن ادارة مزرعة اللبن وملاحقة الدجاج من عمل النساء . وكان كلفا بترديد مقدرته على الحرث ، وحصار الشوفان ، ودرس القمح ، وسوق العربات تجرها الخيل ؛ وبناء صوامع الغلال ، فلا يبزه فى ذلك رجل .. وكذلك البيع والشراء من أعمال الرجال . فكان يسوق عزبة اللبن مرتين فى الاسبوع الى السوق ، محملة بالزبد الطازج وشىء من البيض ، والفاكهة فى ابانها ، فيبيع ذلك ويقبض الثمن فيحتجز لنفسه الكسور لينفقها كيفما يحلو له ، حريصا على ألا يمد يده الى مخصصات مسز تومسون .. أما البقرات فكان يضيق بها من بداية الامر ، فلابد من حلبها مرتين يوميا بانتظام ، فتقف هناك وعلى معالم وجهها الانثوى مسحة عتاب . وكذلك كان يضيق بالعجول ، فهى لا تفتأ تقاوم الرسن (حبل الدابة) فتخنق بذلك نفسها حتى تجحظ عيونها محاولة الوصول الى الضرع المحلوب . وكان كبح العجول يجور على رجولته كما يجور عليها اشتغاله بتبديل لفة طفل وليد ، وكذلك أيضا كان يضيق باللبن ، فهو تارة يذعق ، وتارة أخرى يجف ، أو يخثر كما كان يضيق بالدجاجات التى تصيح قق قق ، وتفقس فراخها على غير أهبة منه ، ثم تقود صغارها الى الحظيرة حيث تتعرض لوطء الخيل ، كما انها تموت بمرض الخناق أو بتصلب العنق أو طاعون الدجاج ، وتنثر بيضها فوق أرض الله بما رحبت ، فيفسد نصفه قبل أن تعثر به اليد ، متغاضية عن صف من الاعشاش أعدته مسز تومسون لتبيض فيه الدجاجات فى حجرة العلف .!! ألا ان الدجاج طامة هائلة حقا !..

وأما تطيين الخنازير فهو فى رأى مستر تومسون من أعمال الأجراء . ولئن كان ذبحها من عمل السيد ، الا أن سلخها

وجزرها اربا من عمل الاجير أيضا . وأماعمل المرأة فهوتنبيل اللحم وتدخينه وتمليحه واستخراج الشحم وعمل السجق .

وكان هذا التحديد الدقيق لميادين نشاط مستر تومسون راجعا الى اهتمامه بمظاهر الاشياء ،وبمظهره الخاص فى نظر الله والناس . فحجته القصوى فى رفض القيام بأى عمل لارغبة له فى القيام به « أنه لايبدو لائقا » . فكل اهتمامه بكرامته وسمعته، ولهذا قلما كان يرى عملا من الاعمال كفؤا لرجولته فينجزه بيديه . وهذه مسز تومسون التى كانت أكثر الاعمال مقبولة لديها ، قد أصبحت كلا عليه منذ زمن طويل ، فسرعان ماتبين مبلغ قصر نظره اذ علق على مسز ترومسون الكثير من الآمال . وكان قد افتتن بخصرها الدقيق وثيابها المحلاة بالمخرمات (الدنتلة) وعينيها الكبيرتين الزرقاوين . ولم تلبث هذه المفاتن أن تلاشت ، فصار يدعوها « الى » بعد أن بعد مابينها وبين عهد كانت تسمى فيه الآنسة الن بردجن المعلمة المشهورة فى مدرسة الاحد التابعة لكنيسة المعمدان بمدينة الجبل . فهى الآن زوجته العزيزة ، (الى) ذات الصحة المعتلة . فهو محروم من العون الاكبر فى الحياة الذى يحق للرجل أن يتوقعه من الزواج وقد أذعن على غير وعى منه لذلك الفشل . وان مستر تومسون ليعلم وان كان لايفصح عن ذلك الذى يعلم ، انه وان كان عالى الرأس، سباقا الى أداء الضرائب والاكتتاب سنويا فى راتب الواعظ ، وان كان من ملاك الاراضى ، ورب أسرة ، ومخدوما ،ونديما بشوشا فى مجالس الرجال ، الا أنه ماض على سطح حياته فى طريق النزول!

يا الهى ! ما أحوج المكان الى كف رجل تقبض على المعول بين الحين والحين ، فتنظف المكان من ذلك الحطام الذى تزدحم به الحظيرة ودرجات المطبخ . أماظلة العربة فكانت حافلة بالآلات المحطمة والسروج البالية والعجلات العتيقة ودلاء اللبن المخروقة والاخشاب النخرة ، حتى ضاقت عن دخول العربة وخروجها أو كادت ، ومامن أحد يمد الى ذلك كله يده . وأماهو فحسبه عمله العادى . وانه ليجلس أحيانا فى موسم الكساد ساعات يعمل فكره فى ذلك، وينثر الطباق على الاعشاب النامية حول كومة الاخشاب ،

متعجبا متسائلا : ماذا يستطيع المرء ازاء ذلك ، وهو المثقل الكاهل . وكان يتطلع الى يوم يشب فيه ولداه عما قريب ، فيطحنهما فى العمل الشاق كما طحنه والده حين كان غلاما من قبل . وليعلمهما كيف يتوليان زمام المكان ويديرانه كما ينبغى . أجل انه سوف لا يرهقهما من أمرهما عسرا ، ولكنه سيطالبهما بما ينهض بقوتهما أو ليكونن له معهما شأن ؟ فانهما لمكسالان كبيران، لاهم لهما الا ازجاء الفراغ! وكان مستر تومسون يثور أحيانا فيعنف بهما حين يتخيل مستقبل أيامهما وقد نما عودهما ، ولاهم لهما الا التسكع أو صيد السمك . ويعزم أن يضع لهذا حدا ، وفى أقرب وقت مستطاع .

ولما توالت الفصول ، واتسعت دائرة نشاط مستر هلتون شيئا فشيئا ، أخذ بال مستر تومسون فى الهدوء رويدا رويدا فما من شىء يبدو أن ذلك الفتى يعجز عنه ، فهو يقوم بكل شىء بصورة طبيعية كما لو كان من شأن عمله أن يكون كذلك ولا زيادة . فينهض فى الساعة الخامسة كل صباح ، فيعد قهوته ، ويطهو افطاره ، ثم يمضى الى حظيرة الابقار قبل أن يشرع مستر تومسون فى التثاؤب بوقت طويل ، أو يشرع فى التمطى والتأوه والزئير وتلمس سرواله ! حتى اذا حلب البقرات ونهض بنظافة معمل اللبن وادارته ، وخض الزبد ، طاف بالدجاجات وأفلح فى اقناعها بصورة خافية أن تبيض فى الاعشاش المعدة لها ، لا تحت البيت أو وراء أكداس الدريس . وكان يطعم الدجاجات بانتظام ، فكثر فقسها حتى لم تدع موضعا لقدم . ورويدا رويدا تلاشت أكوام الاقذار التى كانت حول الحظائر والدار . وكان يحمل اللبن الرائب والذرة الى الخنازير ، ويستخرج القراد من معرفات الجياد . وكانت فيه للعجول رقة وان كانت فيه للابقار والدجاج جهامة . ولئن دل مسلكه على شىء ، فعلى أن مستر هلتون لم يسمع قط بفرق بين أعمال الرجال وأعمال النساء فى المزارع .

وفى العام التالى أطلع مستر تومسون على صورة آلة لكبس الجبن كانت فى مصور تجارى حمله البريد اليه وقال له : «انها شىء طيب ، فاشترها أصنع لك الجبن » . وجاءت الآلة وصنع

مستر هلتون بهـا جبنا ، وبيع الجبن مع الـكميات المتزايدة من الزبد وأقفاص البيض .

وكان مسـتر تومسون يشعر في بعض الاحيان بالزراية لسلوك مستر هلتون وأحواله . فقد كان من المشين في نظره لقدر الرجل أن يتسـقط بضـعة ضئيلة من السنابل أسـقطتها العربة في طريقها من الحقل . أو يتسـقط الثمار التي أسـقطها الشـجر معطوبة أو فجة كي يطعمها الخنازير ، أو يختزن المسامير القديمة والاجزاء الفائضة من الآلات العتيقة ، أو ينفق وقتا ثمينا في ختم الزبد برسم ابتكره قبل أن يبعث بهـا الى السوق . فكان مستر تومسون يفكر في ذلك كله وهو متربع في مكانه المرتفع فوق العربة ، التي أثقلتها الزبد المزركشة في وعاء ضخم سعته خمسة جالونات ملفوف بخرق مبللة . وهو في طريقه الى المدينة يستحث الجوادين ويطرقع فوق ظهريهما بالاعنة . ولكنه لم يكن يفصـح عن شـعوره ذلك بالزراية ، الا أنه أمرؤ يقدر نعمة الله قدرها ، فالحـق أن الخنـازير كانت عـلى يديه أكبر حجمـا وأغـلى عند البيع ثمنا . والحق أيضا أن مستر تومسون لم يعد يشترى لهـا علفا ، لأن مستـر هلتـون كان يحـذق تدبـير المحصولات ، بل انه ابان موسم ذبح الثيران والخنازير كان يعرف كيف يدخر البقايا التي ينبـذها مسـتر تومسـون ، ثم لا يربأ بنفسـه عن تنظيف المصـارين وحشوها بطريقة خاصة به . فلا سـبيل لمستر تومسـون الى الشكوى من شيء .

وفي العام الثالث رفع أجـر مستر هلتون دون طلبـه ، وفي العام الرابع ألفى مستر تومسون نفسه وقد سـدد ديونه . ليس هذا فحسب ، بل صار لديه أيضا رصيد صغير في المصرف ، فرفع أجر مستر هلتون مـرة أخرى ، وكانت الزيادة في كل مرة بمقدار دولارين ونصف دولار في الشهر . وقال مستر تومسون في معرض تبرير هذا التبذير : « ان الرجل أهل لهذا يا « الى » ، فقد ربح المحل عـلى يديه وأريده أن يعلـم أنني مقدر له هذا الصنيع »

ومع الزمن ألف آل تومسون كل الألفـة لياذ مسـتر هلتون بالصمت ، وبيـاض حاجبيـه وشعره ، واستطالة فكه المتجهم ، وتأبى عينيه أن تريا الاشيـاء ، حتى ما تحت يديه من العمـل ،

وكانت مسز تومسون تشكو شيئا من ذلك فى مبدأ الأمر فتقول : « لكأنى أجلس الى المائدة مع روح من الارواح بغير جسد ، وان خطر لك أنه ربما وجد شيئا يقوله عاجلا أو آجلا» فيجيبها مستر تومسون « دعيه وشأنه ، فانه متى رغب فى الكلام تكلم » ..

ومرت السنوات ، ولم تساور مستر هلتون الرغبة فى الكلام ! فانه ما ان يفرغ من عمل يومه حتى يقبل من جهة الحظيرة أو معمل اللبن أو بناء المطبخ ، مطوحا فانوسه فى يده ، وحذاؤه الضخم يدق الأرض الصلبة بمثل وقع حوافر الجياد . أما هم فجلوس فى المطبخ اذا كان الوقت شتاء ، أو لدى السدة الخلفية اذا كان الوقت صيفا ، فيسمعونه وهو يجر مقعده الخشبى ثم يسمعونه وهو يميل به الى الخلف فيصر صريرا ، ثم ينطلق فى عزف نغمته الفريدة على مزمار من مزاميره . ومزاميره ذات طبقات فى الصوت شتى ، بعضها أهدأ وأعذب من بعض . وكان يخالف بينها ليلة وراء ليلة ، وربما فى العصر أيضا حينما يجلس لالتقاط أنفاسه .

وكان آل تومسون يستعذبون تلك النغمة فى أول الامر كثيرا ويستحبون سماعها . ثم جاء وقت بلغ بهم الملل منها غاية مداه ، فكانوا يتنادون فيما بينهم أن ليته يتعلم نغمة جديدة . ثم انتهى بهم الأمر الى عدم ورودها على سمعهم ، لا لأنه انقطع عن عزفها ، بل لأنها غدت شيئا مألوفا لديهم كصوت الريح اذ تهب عند المساء ، او كخوار البقر ، أو كأصواتهم أنفسهم حين يتكلمون .

واهتمت مسز تومسون بين الفينة والفينة بما يكون من روح مستر هلتون ، فما كان حلف كنائس ، ولا أخا صلاة . فاذا كان يوم الاحد من كل اسبوع مضى على سيرته فى العمل لا يلوى على شىء ، كأنما يوم الاحد وسائر أيام الاسبوع سواء ، فقالت لمستر تومسون : « أخالنى ينبغى أن أدعوه لسماع الدكتور مارتن . فليس من شيم النصرانية فى كثير ألا ندعوه الى ذلك . فهو ليس من ذلك الضرب المقحام من الرجال وليس بمقدم حتى نسأله » ! فقال

لها مستر تومسون : « دعيه وشأنه . فالرأى عندى أن ديانة المرء من خاص أمره ، ثم ان الرجل لا يملك من ملبوس يوم الاحد شيئا ، وليس يليق أن يمضى الى الكنيسة فى سرواله وقميصه المهودين . ولست أدرى ماذا يصنع بمانه ، ولكنه ولاشك لاينفقه سفها »

ومع ذلك فما تسربت تلك الفكرة الى دماغ مسز تومسون حتى استبدت بها ، فلم تدع لها راحة ، الى أن دعت مستر هلتون للذهاب مع الاسرة الى الكنيسة يوم الاحد التالى . وكان هو منهمكا فى تكديس الدريس أكواما مرتبة صغيرة فى الحقل الواقع وراء البستان . فلبست مسز تومسون منظارها الداكن وقبعتها الواقية من الشمس ، وقطعت تلك المسافة بأكملها الى حيث كان واقفا كى تخاطبه فى الامر . فكف عن العمل واتكأ على المدراه وأصغى لمقالها ، ثم ألم بمسز تومسون شىء من الذعر لمرآه ، فقد حملقت عيناه الباهتتان كأنما تخترقان شخصها ، وقطب حاجبيه ، وتصلب فكه الطويل ، وقال فى فظاظة : « لدى عمل » . ثم رفع المدراه واستدبرها وراح يكوم الدريس . فعادت مسز تومسون أدراجها كسيرة الخاطر ، وهى تحدث نفسها انه كان ينبغى بعد تلك المعاشرة الطويلة أن تكون قد ألفت سلوك مستر هلتون . ومع هذا فما من شك أنه يخلق بالرجل ، وان كان أجنبيا ، أن يكون على شىء من التهذيب مع من يدعونه بدعوة المسيح ، ! وقالت فى ذلك الصدد لمستر تومسون « انه ليس من أهل التهذيب ! وذلك هو المأخذ الوحيد الذى آخذه عليه ، وأحسبه يعجز عن سلوك مسالك سائر الناس . وانك لتحسبه يضمر على الدنيا ضغنا ، وكثيرا ما يحيرنى أمره »!!

حدث فى العام الثانى أمر أثار لدى مسز تومسون شيئا من الريب ، ولم يكن ذلك الامر مما تستطيع الحكاية عنه بالكلام ، بل تكاد لا تستطيع الحكاية عنه بصورة من صور الأفكار . ولو أنها أرادت ان تبينه لمستر تومسون لكان بيانها أسوأ من الواقع أو أخف منه وقعا ، فقد كان الذى حدث من ذلك

القبيل الغريب الذى يشبه أن يكـــون نذيرا ، ولكن يغلب ألا يسفر ذلك النذير عن شيء !!

ففى ذات يوم حارغشاه السكون من أيام الربيع ، خرجت مسز تومسون الى حديقة الخضر لتأتى بشيء من الجزر الغض والبصـل الاخضر واللوبيا الخضراء لتعد منها طعام العشاء . وفيما هى تجمع تلك الثمار وقد خفضت قبعـــة الشمس فوق عينيها ، وتضع كل صنف من الخضر فى كومة مستقلة بسلتها ، راقها ما لفت نظرها من اتقـان زراعة مستر هلتون ، ونقائها من الاعشاب ، وما أحدثه من غنى وخصوبة فى التربة ، فقد بسط الـكثير من السـماد الذى يستخرجه من الحظائر ، وجعل ذلك التسميد فى ابانه ، فانبثقت الخضر يانعة مزدهرة . ثم عادت متوخية ظلال أشجار التين الصغيرة التى تكاد أفرعها وقد أعفيت من التقليم أن تمس الثرى ، فكأن أوراقها العريضة ستار ظليل رطيب . . وكانت مسز تومسون تنشد الظل دائما حرصا على عينيها ، واذهى تنظر فيما حولها على غير هدى رأت خلال ذلك الستـــار منظرا وقع منهـــا موقع الغرابة الشديدة . ولو كان ذلك المنظر ناطقا صاخبا لما كان فيه للغرابة موضع ، ولكن الصمت هو الذى راعها : فقد كان مستر هلتون يهز آرثر من كتفيه هزا عنيفـــا وحشيا ، وقد تصلب وجهـــه واكفهر الى أقصى حد ، وكان رأس آرثر يتطوح الى الوراء والامام وهو لايبـــدى مقاومة بالتصلب كما يبديها حين تهم مسز تومسون أن تهزه ، وكان يبدو فى عينيه فزع ، بيد أن الدهشة ربما كانت أوضح فيهما من الفزع . وأما هربرت فوقف عن كثب يرقب ما يحدث فى استســـلام . فأطلق مستر هلتون آرثر وقبض على هربرت فهزه على ذلك المنوال الوحشى ، ووجهه ينطق بما كان ينطق به من كراهية . وتغضن فم هربرت كأنه يهم بالبكاء ، بيد أنه لم ينبس بنأمة . ثم أطلقه مستر هلتون ودار على عقبيه فدخـل كوخه ، وجرى الغلامان كمن يطلبان النجاة بحياتيهما ، ولكن بغير كلام ، الى أن اختفيا وراء زاوية البيت عند واجهته .

وتمهلت مسز تومسون ريثما وضعت سلتهـــا فوق مائدة المطبخ ثم دفعت قبعتها المظللة الى الوراء ، بيد انها لم تلبث أن ردتها سيرتها الاولى ، ثم اقتفت أثر ولديها ، فاذا همـــا

جالسان القرفصاء معا تحت أجمة من شجر التوت الصينى فى مواجهة نافذة مخدعها ، وكأن هذا الموضع مأمن وقعا عليه . فسألتهما مسز تومسون : « ماذا تصنعان ؟ » فنظرا من تحت جبينهما نظرة المذلة ، وغمغم آرثر قائلا : «لاشىء»، فقالت مسز تومسون محتدة : « تعنى لا شىء الآن ، حسنا، عندى لكما شغل كثير ، فادخلا فى هذه اللحظة وساعدانى فى اعداد الخضر » . فنهضا وبادرا بالامتثال فى أعقابها. واجتهدت مسز تومسون أن تتصور مابدر منهما ، بيد أنها لم تحب من مستر هلتون على كل حال أن يأخذ على عاتقه أمر تأديب ولديها الصغيرين . ولكنها خشيت أن تسألهما بيانا ، فقد يكذبانها ، فيتعين عليها عندئذ أن تجلدهما بالسوط جزاء وفاقا، أو تتظاهر بتصديقهما فيشبان على عادة الكذب ، أو لعلهما يصدقانها ، وتكون المسألة مما تجب فيه عقوبة الجلد . فكان التفكير فى حد ذاته مجلبة للصداع، فخطر لها أن تسأل مستر هلتون. ولكن وجدت أن قيامها بسؤاله لايليق ، فمن الخير أن تنتظر حتى تطلع مستر تومسون على الامر فيستجليه . وفيما كانت تقلب المسألة فى ذهنها ، جعلت تشغل الغلامين حتى لم يقر لهما قرار : « اقطع شواشى الجزر خيرا من هذا يا هربرت فانك مهمل . وانت يا آرثر لا تقطع اللوبيا قطعا صغيرة هكذا، فانها صغيرة بطبيعتها . اذهب يا هربرت فأت بحمل من الخشب . خذ يا آرثر هذه البصلات فاغسلها تحت المضخة. قم ياهربرت بعد أن تفرغ مما بيدك فخذ المقشة واكنس هذا المطبخ. وأنت يا آرثر هات جاروفا وارفع هذا الرماد . لا تعث فى أنفك ياهربرت . كم مرة ينبغى أن أكرر عليك هذا الأمر ؟ اذهب يا آرثر وافتح الدرج الأعلى من الجهة اليمنى فى صوانى ، وهات لى حق الفازلين لأدهن أنف هربرت . اقترب منى يا هربرت ... » فكان الغلامان يسرعان من مهمة الى مهمة ، فنشطت دماؤهما وأورثهما ذلك مرحا وحيوية ، فسرعان ماخرجا الى الفناء الامامى مرة أخرى واشتبكا فى مباراة مصارعة . فجعلا يتمرغان ، ويتضاربان، ويحبوان، ويتماسكان وينهضان ليسقطا صارخين بغير هدف وفى ضجة متواترة ، كأنهما جروان ، وكانا يقلدان صوفا من

الحيوان شتى ، ولكن لم يصدرعنهما صـــوت أنسى واحد . أما وجهاهما القذران فكانا يتصببان عرقا ، وجلست مسز تومسون في نافذتها ترقبهما باعتزاز وحنان فانهما كانا على عافيـة ونضرة ، فكان نموهما سريعا ، ولكن تلك المراقبـة لم تكن تخلو من مشقة أيضا ، تدل عليها هذه الابتسامة المكدودة وهذه الدموع التي تنساب من أجفانها المتقلصة تحت وطأة ضوء الشمس ، وأهمها أن تراهما على ما بهما من كسل واهمال ، كأنهما لا يستقبلان من دنياهما غدا ولا يرعيان نفسا لهما خالدة ، فأي شيء يا ترى أقدما عليه فحملا مستر هلتون على أن يهزهما هزة ذاك العنيف وفي وجهـه للخطر نذير أي نذير ؟

فلما كان المساء ، قبيل العشاء ، لم تقل لمستر تومسون شيئا عن المخـاوف التي أثارها ذلك المشهد في نفسها ، بيد أنها قالت له ان مستر هلتون قد هز الغلامين لسبب ما ، فتوجه الى الكوخ وتحدث الى مستر هلتون ، ولم يلبث الا خمس دقائق حتى عاد فحملق في صغيريه صائحا : « لقد قال ان هذين الوغدين عاثا بمزاميره فسادا يا « الى » ، فنفخا فيهـا حتى امتلأت بالأوسـاخ والبصاق ففسدت وفسد عزفها » ! فقالت مسز تومسون : « هل قال ذلك كله ؟ لا أرى هذا ممكنا ! » فقال مستر تومسون : « هذا ما عناه على كل حال ، وان لم يفصـح عنه على هذا النحو المبين ، ولكنه ثائر النفس جدا لهذه الفعلة » . فقالت مسز تومسون : « يالله العار ! وأي عار ! لا بد من عمـل شيء يذكرهما أنه لا يحل لهما العبث بأشياء مستر هلتون » . فقال مستر تومسون : « سأدبغ جلدهما ، وسأربطهمـا برسن العجل ، اذا لم يقلعا عن ذلك » . فقالت مسز تومسون : « لعل من الخير أن تترك عملية الجلد ، فان يدك ليسـت على شيء من الخفة ، وهما طفلان » . فصـاح مستر تومسون : « وهـذا هو بيت الداء وسبب بلائهما ، فقد أفسـدهما التدليل ، وهـذه طريقتـك معهمـا ! فلا بد من ردعهما ردعا كافيـا ، والا انتهى الامر بهما الى الاصلاحية . لقد كان أبي يطـرحني أرضـا بضربات عكازته أو بعصـا من خشب الحريق أو بأي شيء اتفق وقوعه تحت يده » ! فقـالت مسـز تومسون : « ولـكن ليس معنى هذا أنه صواب ، فلست أقر هذه الطريقة في تنشئة الاطفـال ، فهي تدفعهم الى الفرار من البيت

، وما أكثر ما رأيت من هـذا القبيل » . فقال مستر تومسون وقد هدأ شيئا ما : « سأهشم عظامهما عظمة عظمة اذا لم يطيعاك فيحسنا الطاعة ولم يكفا عما لجا فيه من العناد » . فالتفتت مسز تومسون الى الغلامين وأمرتهما على الفور : « أتركا المائدة واغسلا وجهيكما وأيديكما » ، فانفلتا الى المضخة ، ثم عادا يتسللان متضائلين ، فقد علما منذ أمد طويل أن أمهما تطلب اليهما الاغتسال دواما حينما ينتظرهما سوء العذاب ، وشخصا الى صحفتيهما ببصرهما ، فانفجر مستر تومسون فيهما قائلا : « والآن ما قولكما فيما فعلتماه اذ دخلتما كوخ مستر هلتون وأفسدتما مزاميره »؟ فتداعى الغلامان وبدا على وجهيهما ما يبدو على وجوه الاطفال من حزن ويأس حين يصطدمون بعدالة الكبار الرهيبة العمياء ، وتبادلا بالنظرات برقيات الذعر : « لا مفر من علقة مليحة نأكلها ! » وفى قنوط أسقطت أيديهما خبز الذرة المدهون بالزبد فى صحفتيهما ، ثم استقرت أيديهما على حرف المائدة ، فقال مستر تومسون : « ينبغى أن أحطم ضلوعكما ، وهذا ما تستحقان » ، فهمس آرثر بصوت ضعيف : « نعم ياسيدى » . وقال هربرت بشفة مرتعدة : « نعم ياسيدى » . فقالت مسز تومسون بلهجة النذير والتحذير : « وبعد حذار أيها الاب ! » ولكن الطفلين لم ينظرا اليها ، فلم تكن لهما ثقة بحسن نيتها ، فهى التى وشت بهما أصلا ، فلا وجه للثقة بها ، فربما أنقذتهما وربما لم تنقذهما ، فلا خير فى الركون اليها ، واستطرد الأب : «انكما تستحقان علقة مليحة ، ألست تستحقها يا آرثر ؟ » فرفع آرثر رأسه وقال : « بلى ياسيدى ! » ، فقال الأب : « واذا ضبطت أحدكما فى المرة القادمة يحوم حول كوخ مستر هلتون ، فسأسلخ جلديكما كليكما ، أسامع أنت يا هربرت ؟ » ، فغمغم هربرت بصوت متحشرج وقد سقط منه رغيفه : « نعم يا سيدى » فقال مستر تومسون وهو يمد يده الى طعامه : «والآن أجلسا وتناولا عشاءكما ، واياكما أن أسمع لكما صوتا ! » فانتعش الغلامان الصغيران شيئا ما ، وشرعا يمضغان ، ولكن كلما تلفتا وجدا أنظار والديهما شاخصة اليهما ، فلم يدريا متى يشغلان عنهما بشىء آخر ، فصارا

يأكلان استراقا ، وهما يجتهدان أن يتواريا عن السمع والبصر ، فكان خبز الذرة يعترض زوريهما ، واللبن الرائب يقرقر في اللهاة ، ... وبعد برهة قالت مسز تومسون : « وثمة شيء آخر يا مستر تومسون ، قل لمستر هلتون أن يأتي الينا فورا اذا ضايقاه ، ولا يكلف نفسه هز هما بيديه ، وأخبره أننا سنتولى تأديبهما بأنفسنا » . فأجابها مستر تومسون وهو يحملق فيهما : « أنهما غاية في الوضاعة ، واني لأعجب كيف لم يقتلهما فينتهي من أمرهما » ولكن كان في نبرة صوته ما طمأن آرثر وهربرت أن الازمة قد مرت هذه المرة ، فصعدا أنفاسا حرى ، ونشطا في جلستهما ومداديهما الى أدنى الطعام منهما ، وفجأة قالت مسز تومسون : « اسمعا » ، فكف الصغيران عن الاكل ، واستطردت : « ان مستر هلتون لم يأت لتناول العشاء ، فاذهب يا آرثر وقل له انه تأخر عن موعد العشاء ، وتلطف معه في القول » .. !

فانفلت آرثر محزونا محسورا ويمم صوب الباب ، دون أن ينطق بكلمة .

***

أنى لمزرعة ألبان صغيرة أن تجرى فيها معجزة من معجزات الثراء ، لهذا لم يبلغ آل تومسون مبلغ الثراء ، وانما قصاراهم أنهم أفلتوا من الوقوع في ملاجيء الفقراء ـ كما يحلو لمستر تومسون أن يكنى عن الفاقة والمسغبة ـ فقد صار مركزه مستقرا على الرغم من ضعف صحة « الى » ، وعلى الرغم من تقلبات الطقس والهبوط الغريب في أسعار السوق ، وعلى الرغم أيضا من متاعبه الخفية التي كانت تثقل كاهله » .

وقد صار مستر هلتون عماد الاسرة وموضع رجائها ، وتعلق به آل تومسون أجمعون ، هم على الاقل قد كفوا عن النظر اليه نظرة الاستيحاش والاستغراب ، وانما هم الآن على ما يشعرون بينهم وبينه من فجوة لا سبيل الى اجتيازها ، يرونه رجلا طيبا وصديقا يعول عليه ، فهو ماض في سبيله ، قائم بعمله ، عازف نغمته المعهودة .

ومرت سنوات تسع ، وكبر الغلامان وتعودا العمل، ولم يعودا يذكران زمنا لم يكن فيه «العجوز هلتون» هناك ، وقد يدعوانه « الجهم الكاشر » ،أو « أخا العظام » ، أو « مستر هلتون اللبانة» أو « السويدى الطويل » ،ولو أنه سمعهما لساءه بعض هذا، ولكنه لم يسمع ، ثم هما أيضا ، ماكانا يقصدان به الاساءة أو على الاقل لم تكن الاساءة تتجاوز اطلاق هذه التسميات ، فقد كانا يكنيان عن أبيهما بقولهما : « العجوز » و « ذكر الاوز » ، ولكن لا فى وجهه طبعا .

وتجاوز الفتيان مراحل النمو الوعرة المتعرجة بفضل قوتهما، فخرجا سالمين من مزالقها ، ان كانت السلامة من ذلك مما يتاح لبشر ... فرأى فيهما أبواهما فتيين قويين ، على طيبة فى القلب ، وان كانت فى مظهرهما فظاظة . وأثلج صدر مستر تومسون أن يرى نفسه وقد أفلح فى تربيتهما على غير الكسل والتبطل ، وان كان لايدرى كيف كتب له ذلك الفلاح ، بل ان صلاحهما أدخل فى روع مستر تومسون أنهما هكذا خلقا ، وانه لم يخاشنهما يوما من أيام حياتهما لاعوجاج بدا منهما ، بله أن يكون قد ضربهما فأوجعهما ... فما كان آثر وهربرت ليعصيا له أمرا أو يناقشان له رأيا .

***

كان شعر مستر هلتون المندى بالعرق ملتصقا بجبينه المتصبب، كما التصق بضلوعه قميصه الذى اختلطت فيه الزرقة الفاتحة بالزرقة القاتمة .. وهو منهمك فى تكسير الخشب للوقود .. بيد انه كان يعمل بفأسه فى أناة، ويرتب الخشب أكواما منسقة. ثم اختفى وراء البيت فى داخل كوخه الذى كان يشارك كومة الخشب ظلا ظليلا يبسطه صف من الشجر الوارف . أما مستر تومسون فكان يتأرجح فى كرسى هزاز عند السدة الامامية، وهى موضع لم يحببه يوما ، ولكن الكرسى كان جديدا ، فقررت مسز تومسون أن يحتل السدة الامامية ،مع أن السدة الجانبية كانت أولى به وأوفق ، لانها أرطب وأطرى . ولما كان مستر تومسون راغبا فى الجلوس فى ذلك الكرسى ، فلم تكن له حيلة الا أن يكون حيث أريد للكرسى أن يكون ... حتى اذا ماخلقت

جدة الكرسى ،وتخلت « الى » عن المباهاة به ، تسنى له أن ينقله حيث يشاء، عند السدة الجانبية ...

وكانت حرارة شهر اغسطس تكاد لاتطاق ، والهواء من غلظته يسعك أن تنقبه فينتقب ،وقد غطى التراب كل شيء بطبقة كثيفة ... مع أن مستر هلتون كان يرش الفناء كله رشا منتظما فى كل ليلة . بل انه كان يرفع الخرطوم فيغسل بالماء أعالى الشجر وسقف البيت . وكانوا قد زودوا المطبخ بأنابيب المياه ،وجعلوا فى خارجه صنبورا .

ويظهر أن مستر تومسون كان قد أغفى ،ذلك أنه فتح عينيه واغلق فمه فى آخر لحظة ، قبل أن ينكشف حاله لرجل غريب كان قد بلغ بمركبته البوابة الامامية . ونهض مستر تومسون فلبس قبعته ، ورفع ماتهدل من سرواله ، وجعل يرقب ذلك الغريب وهو يعقل الى المربط جواديه المشدودين الى عربة خفيفة .. وقد عرف فيهما جوادى اسطبل فى بلدة بودا .

وفيما كان الغريب يفتح البوابة ، وهى بوابة متينة انشأها مستر هلتون وسواها على قواعد ثابتة منذ سنوات خلت ، هبط مستر تومسون المشى كى يستقبله ، ويستطلع ماذا عسى أن يكون قد جاء به فى مثل تلك الساعة من النهار ، فى ذلك الجو المثقل بالعرق والتراب .

ولم يكن الغريب بدينا بمعنى الكلمة . وانما هو برجل هزل بعد بدانة أشبه ، فجلده متهدل وثيابه فضفاضة ... فكل مافيه يدل على امتلاء أتت عليه علة . ولم يدر مستر تومسون لماذا لم يرتح الى منظره .

أما الغريب فخلع قبعته وقال بصوت هاش مرتفع : « أأنت مستر تومسون ، مستر رويال ايرل تومسون ؟ » فأجابه مستر تومسون فى شبه فتور : «هذا هو اسمى » فقد أخذ بما أبداه الغريب من رفع للكلفة . فقال الغريب : « اسمى هاتش . مستر هومرت . هاتش ، وقد جئتك للمفاوضة فى شراء حصان » . فقال مستر تومسون :«أحسبك قد غرر بك ، فليس عندى حصان يباع . ومن عادتى حينما يكون عندى من هذا القبيل

مايباع ان انبىء جيرانى وأعلق لافتة فوق البوابة » . ففغر الرجل البدين فمه وقهقه مسرورا كاشفا عن أسنان معوجة بنية اللون كأنها جلد حذاء . ولم يرمستر تومسون فى الامر مايدعو للضحك ،وصاح الغريب : «هذه نكتة لى مأثورة ! ثم تناول باحدى يديه يده الاخرى وصافح نفسه بحرارة وهو يقول : «فانى أقول دائما شيئا من هذا القبيل حينما أقدم على زيارة غريب. ذلك أنى لاحظت ان المرء اذا زعم انه جاء لشراء شىء لم يستثر ريبة . أفهمت ؟ هاو ! هاو ! هاو ! » فأثار ذلك الضحك أعصاب مستر تومسون ، لان النظرة التى أطلت من عينيه لم تكن مما يتفق ورنة قهقهته .. ومع ذلك فقد جاراه مستر تومسون بشىء من القهقهة على سبيل المجاملة ، وان لم يفهم النكتة ، ثم قال : « لالزوم لشىء من ذلك معى ، لاننى لاأرتاب فى انسان حتى يستوجب الريبة بقول أو فعل . أما قبل ذلك ، فالناس جميعا عندى سواسية» فثاب الغريب فورا الى الاتزان والوقار، ثم قال : « حسنا لم آت اذن لبيع أو شراء . والواقع اننى زرتك فى أمر يهمنا كلينا . أجل ياسيدى ، أود أن أتحدث اليك ، ولن يكلفك ذلك فلسا » ! فقال له مستر تومسون على مضض : « هذا عدل .. فتعال وراء البيت ،فهناك شىء من الظل » ..

وذهبا خلف البيت ، حيث جلسا فوق جذعين تحت شجرة توت صينى . وعندئذ قال الغريب : « أجل ياسيدى ، هومرت هاتش اسمى، وأمريكا وطنى ،وأخالك قد عرفت الاسم ؟ فقد كان لى ابن عم اسمه جيمسون هاتش كان يعيش فى هذه الجهة » . فقال مستر تومسون: « لاأظننى أعرف هذا الاسم .. وان كان هناك من يحملونه فى منطقة مدينة الجبل » ، فصاح الرجل فى تأثر عميق ، وكأنه يشفق على مستر تومسون من جهله : « كيف هذا ؟ لقد هبطنا من جورجيا منذ خمسين سنة فهل لك هنا زمن طويل ؟ » فأجابه مستر تومسون وقد بدأ يشعر باللدد : « قضيت هنا عمرى كله .وكذلك أبى وجدى من قبل . نعم ياسيدى . لقد سلخنا هنا أعمارنا كلها . وكل من شاء ان ينشد فردا من آل تومسون يعرف أين يلفيه . فقد

هاجر جدى سنة ١٨٣٦ » فقال الغريب : « من ايرلنـــدا فيما أظن ؟» فقال مستر تومسون: « من بنسلفانيا. وما الذى دعاك الى الظن أننا جئنا من ايرلندا؟» ففغر الغريب فمه وراح يصيح من فرط السرور ، ثم صـــافح نفسه كأنه لم يقابل نفسه منذ زمان طويل وقال : « المســألة اننى أعتقد ان الشخص لابد ان يأتى من مكان ما . أليس كذلك»

وفى أثناء الكلام لبث مستر تومسون يرمق الوجه الماثل أمامه ، ولاشك انه أذكره شخصا ما ،أو لعله كان قد رأى الرجل نفسه فى مكان ما من قبل . ولكنه لم يستطع التحديد. وأخيرا استقر رأى مستر تومســون على ان ذوى الاســنان المعوجة جميعا أشباه .

وأقره مستر تومســون على رأيه فى شىء من الضيق : « هذا صحيح . ولكن عقيدتى ان آل تومسون سلخوا هناردحا طويلا جدا ،فلم يبق موضع للتساؤل من أين جاءوا . والآن . . نحن طبعا فى فصل الركود ، وكلنـــا لديه شىء من الفراغ يستلقى فيه قليلا . ولكن لدينـــا جميعا مع هذا مايشغلنا من الاعمال العادية ولست استعجلك، ولكن اذا كنت قد أتيتنى لصفقة ، فلعله من الخير أن نخوض فيها ؟» فقال الرجل البدين : « المسألة كما قلت لك صفقة ، وليست صفقة . فانى أنشد رجلا اسمه هلتون ،مستر أولاف اريك هلتون ، من شمال داكوتا . وقد قيل لى فى هذه المنطقة أننى قد أجده هنا . ولامانع عندى من أن أتحدث اليه ، . . كلا ياسيدى لامانع عندى مطلقا، اذا لم تمانع . .» فقال مستر تومسون : «لم أعرف يوما اسمه الوسيط . ولكن مستر هلتون هنا على كل حال. وله هنا تسع سنوات ، فهو رجل مستقيم ، ولك ان تخبر من شئت ان هذا رأيى » فقال مستر هومرت . هاتش : « يسرنى ان أســـمع هذا ، لانه يسرنى أن اسمع ان انسانا قد قوم سبله ، واستقر على قرار . أما حين عرفت انا مستر هلتون ، فـكان طائشا !نعم ياسيدى ،هذه كانت صفته ، وكان لايعى مايفعـــل . وانه ليسرنى أعظم السرور الآن أن ألقى هذا الصديق القديم وقد استقر وحسن حاله » . . . فقال مستر تومسون : «كلنا مر بنزق الشـــباب ، فهو كالحصبة اذ

تصيبك ، فتضيق بنفسك ويضيق الناس بك كافة . ولكنها لاتلبث أن تنجلى ، وقلما تعقب أثرا مذموما » ! وسره أن يدلى بهذا الرأى ، حتى لقد نسى نفسه فانطلق يقهقه . فعقد الغريب ذراعيه فوق بطنه ، واخذته نوبة من الضحك ، فجعل يقهقه الى أن أغرورقت عيناه بالدموع .. فكف مستر تومسون عن الضحك ، وراح يرمق الغريب فى توجس . فقد كان يحب الضحك كما يحبه أى انسان ، ولكن لكل شىء حدا من الاعتدال لاينبغى أن يعدوه . أما هذا الشخص ، فيضحك ضحكا جنونيا والحق يقال . وهو ليس بالذى يضحك لانه يجد فى الاشياء مايدعو الى الضحك حقا ، وانما هو يضحك لسبب فى نفسه .

وصمت مستر تومسون وقد وجم ، وانتظر حتى ثاب مستر هاتش الى شىء من الهدوء . وأخرج مستر هاتش بعدئذ منديلا على جانب من القذارة عظيم ، أزرق اللون ، فمسح به عينيه ، وقال كالمعتذر : « كادت هذه النكتة أن تزهق روحى . وليتنى يخطر على بالى شىء فكه كهذا لارويه للناس . فتلك موهبة .. » فقال مستر تومسون وقد تحرك كمن يهم بالقيام : « ان كنت تريد محادثة مستر هلتون ، فسأذهب لابعث به اليك . فقد يكون فى معمل اللبن وقد يكون مستلقيا فى كوخه فى هذه الساعة من النهار ، والكوخ قريب من هنا » .. وكانت الساعة قد ناهزت الخامسة . فقال مستر هاتش : « لاداعى للعجلة . فقد مضى على وقت طويل وانا متشوق لمحادثته ، فلا بأس من بضع دقائق اخرى أنتظرها . فمعظم همى أن أعرف مكان اقامته فحسب » .. فكف مستر تومسون عما كان قد هم به من القيام ، وفك زرا آخر من أزرار قميصه ، ثم قال : « انه هنا ، وهو من ذلك الطراز من الرجال الذى ان كانت لك لديه حاجة أحب منك أن تتمها فورا ، فهو ليس من أهل التلكؤ . وتلك مزية فيه » .. فبدأ على مستر هاتش شىء من الاستياء لهذه الكلمات ، ومسح وجهه بمنديله وفتح فمه ليتكلم ، واذا بصوت مزمار مستر هلتون يأتيهما من وراء البيت ، فرفع مستر تومسون سبابته وقال : « هذا هو . وهذه فرصتك » . فوجه مستر

هاتش احدى أذنيه الى جهة المشرق من البيت ، وأصغى بضع ثوان ، فارتسم على وجهه تعبير عجيب ! فقال مستر تومسون : « انى أعرف هذه النغمة كما أعرف راحة يدى . ولكنى لم أسمع مستر هلتون يوما يقول عنها شيئا » ! فقال مسترهاتش : « انها أغنية اسكندنافية وكثيرا ماينشدونها فى الموضع الذى أتيت منه . ينشدونها فى شمال داكوتا . وهى تدور حول النهوض فى الصباح بصدر منشرح ، فلا تستطيع أن تطيق انشراحك ، فتقبل على احتساء خمرك كلها قبل الظهر . خمرتك كلها ، تلك التى كنت تدخرها لساعة المقيل ! وليس فى الكلمات ذاتها شىء ذو بال . ولكن النغمة حلوة . فهى أغنية من أغانى الشراب » .. وجلس مسترخيا ، فلم يحبب مستر تومسون سيماه ، فقد كانت تدل على الاغتباط ، بيد انها كانت أشبه بغبطة القط وهو ينظر الى عصفور الكنار ! فقال مستر تومسون : « مبلغ علمى أنه لم يمس قطرة منذ حل بهذا المكان ، وهو سيتم فى سبتمبر المقبل سنته التاسعة هنا . أجل ياسيدى ، تسعة أعوام مبلغ علمى انه لم يرشف فيها رشفة » ، وأضاف فى شىء من الزهو الحيى : « وذلك شىء لاأستطيع ان أدعيه لنفسى ! » فقال مستر هاتش : « نعم هذه أغنية شراب . وكنت وانا فى سن الشباب أعزف لحنا من هذا القبيل اسمه الابريق الصغير ، أما هلتون فيكتفى بالعزف ويجلس فى خلوته اليه . » فقال مستر تومسون : « لقد لبث يعزف هذه النغمة فى هذا المكان تسعة أعوام » فقال مستر هاتش : « وكان أيضا يغنيها قبل ذلك خمس عشرة سنة فى شمال داكوتا . فكان من عادته أن يجلس فى قميص الكتان ، حينما كان فى المارستان ... » فقال مستر تومسون : « ماهذا الذى تقول؟ ماهذا ؟ » فقال مستر هاتش وقد أسبل جفنيه فى أسف مموه : « ويحى لم أكن اقصد أن أخبرك ، ويحى ! لقد أفلتت الكلمة منى ، مع أننى كنت قد حزمت امرى ألا أبوح بكلمة ، كى لاأثير ضجة . واعتقادى أنه مادام الشخص قد عاش مأمون الجانب هادئا تسع سنوات ، فلا بأس يكونه مجنونا ، أليس كذلك ؟ مادام يلتزم الهدوء ولايؤذى أحدا .. » فقال مستر تومسون فى توجس : « أتعنى

انه كان يلبس قميص الكتان فى مارستان المجانين ؟» فقال مستر هاتش : « يقينا . فقد كان مقره هناك بين الحين والحين » فقال مستر تومسون : « لقد اعتقلوا عمتى ايدا فى مارستان الولاية ، فهاجت ، فأدخلوها فى ذلك القميص الطويل الكمين ، وربطوها الى حلقة من الحديد فى الجدار ، فاشتد هياج عمتى ايدا حتى انفجر أحد شرايينها ، فلما أدركوها كانت قد ماتت!» فقال مستر هاتش : « لقد كان من عادة مستر هلتون أن يترنم بأغنية شرابه هذه وهو فى قميص الكتان . ولم يكن يثيره شىء مطلقا الاحينما تحاول حمله على الكلام ، فعندئذ يثور ويهتاج مثل عمتك ايدا . فاذا ثار وهاج وضعوه فى قميص الكتان ومضوا عنه ، فيستلقى حيث تركوه ناعم البال مترنما بأغنيته . وذات ليلة اختفى . فر . ولم يعرف أحد عنه خبرا بعد ذلك أو يقع له على أثر . وها آنذا آتى فأجده هنا مستقرا يعزف أغنيته بعينها » ! فقال مستر تومسون : «لم يبدر منه مايدل على الجنون ، بل كان فى نظرى يسلك دواما مسلك العقلاء . فهو اولا لم يتزوج ، ثم انه يعمل كالحصان . وأراهنك انه مازال يحتفظ بأول فلس نقدته اياه حين حل هنا ، وهو لايشرب الخمر ولا ينطق بكلمة ، وناهيك بالسباب ، ولا يضيع وقته فى اللهو والتسكع فى أمسيات الآحاد . . فان كان هذا هو الجنون ، فما أشوقنى أن أجن !» فقال مستر هاتش : « هاو هاو هيه ! هذه مليحة ! هاهاها ! لم يخطر الامر ببالى على هذه الصورة . هيا نجن ونتخلص من زوجاتنا ونكتنز أموالنا ، أليس كذلك ؟» وابتسم ابتسامة كالحة كشفت عن أسنانه الصغيرة المعوجة ، فشعر مستر تومسون أنه قد أسىء فهم مراده ، فدار على عقبيه وأشار الى النافذة المفتوحة من وراء عريشة الكرم ، وقال : « هيا بنا نتمشى هناك قليلا . وكان ينبغى أن أفكر فى هذا من قبل »!

***

كان الزائر ثقيل الوقع على نفس مستر تومسون . فقد كانت له طريقة خاصة فى تلقف الكلمات من فم مستر تومسون فيحورها ويخلط بينها الى أن يعجز مستر تومسون نفسه عن معرفة ماقاله .

وقال مستر تومسون : «ليست زوجتي على شيء من قوة البنية . فهي تكاد تكون مقعدة منذ نحو أربعة عشر عاما ، ومن الثقيل على نفس رجل فقير ان يكون أحد من اهل بيته عليلا » ثم استطرد في مباهاة : « لقد أجريت لها أربع جراحات ، الواحدة بعد الاخرى ، ولكن بغير طائل ، وقد أنفقت كل درهم كسبته على الاطباء ، فهي امرأة هشة دقيقة التكوين » . فقال مستر هومرت ، هاتش : « أما امرأتي فكان لها ظهر بغلة ، نعم يا سيدي كان في وسع هذه المرأة أن تحرك الحظيرة بيديها المجردتين ، لو أن ذلك خطر لها ، وكنت أقول في نفسي انه من رحمة الله أنها لا تعرف مدى قوتها ، وقد ماتت مع ذلك ، فان ذلك الصنف القوي يبلى أسرع مما تبلى الضعيفات ، وليس لامرأة دائمة التشكي منفعة عندي ، فاني خليق أن أتخلص منها بأسرع ما أستطيع ، نعم يا سيدي بأسرع ما أستطيع ، فقد صدقت في قولك انها لخسارة كبرى أن ينفق الانسان على مريضة من هذا الطراز » . ولم يكن هذا ما سمع مستر تومسون نفسه يقوله ، فهو كان يريد أن يبين أن الزوجة الباهظة التكاليف كزوجته شهادة طيبة لزوجها ! فقال مستر تومسون وقد استشعر الحيرة : « انها امرأة جد رزينة ، ولكن لست أدري ماذا عساها تقول أو تصنع اذا اكتشفت أنه كان في البيت طول هذا الوقت رجل مجنون ؟ » .

وكانا قد ابتعدا عن النافذة ، فقاد مستر تومسون مستر هاتش الى الجهة الامامية ، لان المرور من الجهة الخلفية سيفضي بهما الى كوخ مستر هلتون ، ولسبب ما لم يكن يريد أن يرى ذلك الغريب مستر هلتون أو يكلمه ، وذلك أمر عجيب ، ولكن كذلك كان شعور مستر تومسون .

وعاد مستر تومسون الى الجلوس فوق الجذع المكسور ، ودعا ضيفه الى جذع آخر وقال : « كان من الممكن فيما مضى أن أنزعج لشيء من هذا القبيل . أما الآن فاني أتحدى شيئا أن يقيمني ويقعدني » . ثم اقتطع لنفسه مضغة ضخمة من الطباق بمديته ذات المقبض المصنوع من القرن ، ثم قدم الطباق الى مستر هاتش ، فأخرج مستر هاتش طباقه الخاص ، ثم أخرج مديته الهائلة

المعقوقة ، وبحدها الطويل المشحوا قتطع كتلة كبيرة فالتقمها . ثم قارنا بين طباقيهما ، وأظهر كلاهما الدهشة لمدى اختلاف آراء الناس فى طباق المضغ الجيدة ،وقال مستر هاتش : « طباقى مثلا فاتح اللون . وذلك لانه خال من أى نوع من أنواع العسل . فأنا أحبه جافا ، على طبيعته الاصلية ، متوسط القوة » فقال مستر تومسون : « ان العسل الخفيف ليس منه ضرر فى نظرى، ولكن بشرط أن يكون خفيفا جدا . أما أنا فهواى فى ورقة الطباق القوية ، الحريفة النكهة كما يقولون . وانى أعرف رجلا من الجيران اسمه وليمز ، مسترجون مورجان وليمز ، يمضغ طباقا ، نعم ياسيدى ، يمضغ طباقا فى مثل سواد قبعتك ، ولكنه ناعم كأنه النطرون الذائب، فهو يقطر عسلا ، عسلا صرفا ، ويمضغ كالعرق سوس . ولكنى لا أسمى هذا طباقا جيد المضغ»! فقال مستر هاتش : « طعام أقوام قد يكون سم أقوام سواهم . ان مثل هذه المضغة قمينة أن أغص بها . وليس يسعنى أن أضعها فى فمى . » ! فقال مستر تومسون وفى صوته رنة اعتذار : « الواقع اننى تذوقتها مجرد التذوق بنفسى . فالتقمت قطعة صغيرة منها ثم لفظتها على الفور» . فقال مستر هاتش : « أنا موقن تمام اليقين اننى لا أقدر أن أبلغ هذا الحد ، فانى أحب المضغة الطبيعية الجافة التى لا يداخلها أى نوع من أنواع المحسنات أو المشهيات الصناعية » . فبدأ مستر تومسون يشعر أن مستر هاتش يريد أن يظهر انه صاحب الرأى الاعلى فى الطباق ، وانه قد عزم على اللجاج فى المناقشة الى أن يقيم البرهان على ذلك ، فبدأ ضيقه بالرجل البدين يتخذ صورة جدية . فمن هو بعد كل حساب ، ومن أين أتى ؟ من هو حتى يطوف بالناس يعلمهم أى نوع من الطباق يمضغون ؟

واستطرد مستر هاتش فى اصرار : « المشهيات الصناعية انما توضع لاخفاء وتمويه الورق الرخيص ، فيظن المشترى انه حصل على شىء أفضل من الواقع . فالتعسيل الخفيف مهما كان خفيفا علامة على رخص ورق الطباق ورداءة صنفه . ولك أن تقيد كلماتى هذه » . فقال مستر تومسون بجفاء : « لقد كنت دائما أدفع ثمنا طيبا فى مضغتى ،ولست ثريا ،ولا أنا بالذى يتظاهر

بالشراء . ولكننى أزعم بحق أنه متى تعلق الامر بالطباق وما اليه ، فانى أشترى أفضل مافى السوق» ، فقال مستر هاتش وهو يتلمظ ويبصق عصارة الطباق فوق شجيرة ورد يابسة كانت تعانى الامرين من قيظ الشمس ومن جفاف الارض التى تضرب فيها جذورها : « التعسيل ، مهما قلت كمينه ، علامة على أن ... » فقال مستر تومسون فى حزم : « والآن ، فيما يتعلق بمستر هلتون ، لست أرى داعيا للتمسك بأن رجل خرج عن طوره مرة فى عمره أو مرتين . ولهذا ليس فى نيتى أن أتخذ فى المسألة اجراء أيا كان . فليس عندى ضده شىء . وكانت معاملته لى على الدوام مرضية . وان من الدنيا ومن الناس من يخرجون عن طوره . فان أعجب فعجبى ألا يكون فى أقصة الكتان أكثر ممن فيها ، والناس كما نعهد فى هذا الزمان » . فقال مستر هاتش على الفور ، وكأنه يقلب مقصود مستر تومسون ويرده عليه : « هذا حق .. لقد انتزعت الكلمات من فمى ، فقد كنت أريد أن أقول ان أقمصة الكتان ليس فيها كل من ينبغى أن يكونوا فيها . ها . ها . صدقت أيما صدق . لقد أدركت مرادى » . فقر مستر تومسون فى مجلسه صامتا يمضغ بامعان ، وقد شخص ببصره الى نقطة فى الارض تبعد نحو ستة أقدام عن موضعه ، وقد أحس بنفور بطىء يصعد فى دخيلته من أعماق نفسه ، فينتشر فى كيانه كله . الام يرمى هذا الشخص ؟ ماذا يريد أن يقول ؟ ليست كلماته أسوأ ما فيه ، وانما هى نظراته وطريقة كلامه : ففى عينه نظرة استدراج ومخاتلة ، وفى لهجته نبرة تناوش مستر تومسون وتضنيه . ولم يكن مستر تومسون يستريح الى ذلك ، وان كان لايدرى كنهه . وساورته الرغبة أن ينهض فيلقى بالرجل عن الجذع الذى يقتعده ، ولكن ذلك لم يكن ليبدو أمرا معقولا . ولنفرض أنه وقع لذلك المخلوق مكروه وهو يسقط من فوق الجذع ، كأن يقع مثلا على الفأس فيجرح ، وعندئذ قد يسأل مستر تومسون لماذا ألقى به أو دفعه ، فماذا عساه يقول ؟ لاشك أنه من السخف الشديد ومن الغرابة بمكان أن يقول اننى وهو اختلفنا على أنواع طباق المضغ .

وخطر له أن يدفعه بأى شكل ، ثم يقول للناس انه كان رجلا

لدينا لم يتعود الحرارة الشديدة.ففيما كان يتكلم أخذته سنة
لوقع ، أو يقول شيئا من هذاالقبيل . وليس قول من هذه
لاقوال بصدة ، فلا الحرارة هى السبب ، ولا الطباق .

وصمم مستر تومسون على أن يخرج هذا المخلوق من المكان
بأسرع وقت ،ودون أن يبدو عليه القلق والتوجس ، ثم يرقبه
بامعان حتى يغيب عن النظر .فليس من المأمون أن يرفع
لانسان الكلفة مع غرباء عن الديار ، فمثلهم ينطوون دواما على
خبايا غير مستحبة ، والا لبقوا فى ديارهم حيث كانوا .

وقال مستر هاتش : « من الناس من يستوى عندهم أن يكون
فى بيتهم العاقل والمجنون . فلافرق عندهم بين هذين ! واعتقادى
نه اذا كان هذا رأى انسان فيمن يعاشرهم ، فهذا شأنه وليس من
شأنى ، ولا حاجة بى الى التدخل فى الامر . أما فى موطننا بشمال
داكوتا ، فالمسألة بخلاف ذلك ،فلست أرى أحدا هناك يستأجر
مجنونا ، ولا سيما بعد الذى وقع منه » . فقال مستر تومسون :
« لم أفهم منك أن موطنك شمال داكوتا .. وأخالك قلت انه
جورجيا » . فقال مستر هاتش : « لى شقيقة متزوجة فى شمال
داكوتا ، متزوجة من سويدى ،بيد أنه رجل أبيض ، كأشد
مايكون البيض بياضا . فاذا قلت موطننا ، فذلك لاننا مرتبطون
بمصالح مشتركة هناك . وتكادشمال داكوتا أن تكون وطنى
حقا » . فسأله مستر تومسون وقد عاوده القلق الشديد :
« وماذا وقع منه ؟ » فقال مستر هاتش مبتهجا : « لم يقع منه
شىء ذو بال ، كل ماهناك أنه هاج ذات يوم فى الحقل فدفع
بالمدراة فاخترق بها جسد أخيه ،وهما يعملان معا . وكاد ينفذ
فيه حكم الاعدام ، لولا أنه اتضح أن الفتى أصابه الخبال من شدة
الحر ، كما يقولون ، فوضعوه فى المارستان . وهذا كل ما وقع
منه . فهو ليس مما يؤبه له ..ها ها ها ! » . ثم استل مديته
الحادة ، وشرع يقتطع مضغة من الطباق فى عناية فائقة ، كأنه
يقتطع من كعكة ، فقال مستر تومسون : « لست أنكر خطورة
النبأ ، نعم ياسيدى . ولكنى مع هذا أعتقد أن شيئا لابد قد دفعه
الى فعل ما فعل . فمن الناس من يشعرك بمجرد نظره اليك كأنه
يقتلك قتلا ، وربما كان أخوه وغدا دنيئا من ذلك الطراز » .

فقال مستر هاتش : «ان أخاه كان على أهبة الزواج . فكان من عادته أن يذهب فى المساء للتودد الى فتاته . فاقترض مزمار مستر هلتون ليشنف سمعها به ذات ليلة فأضاعه . وكان مزمار جديدا ». فقال مستر تومسون : « انه شديد الاعتزاز بمزاميره فلا ينفق شيئا من المال مطلقا الا فى شراء مزمار جديد بين الحين والحين . ولا بد أنه يملك فى هذا الكوخ أكثر من عشرة منها من جميع الانواع والاحجام » . فقال مستر هاتش : « ورفض الاخ أن يشترى له مزمارا جديدا . فهاج مستر هلتون كما قلت واخترق بالمدراه جسد أخيه . ولا أظنك الآن الا قد أدركت أنه كان مخبولا ولا شك اذ هاج وماج بسبب شىء تافه كهذا » . فقال مستر تومسون على مضض من موافقة هذا المخلوق الكريم الفضولى على رأى له أيا كان : « يبدو أن الامر كذلك » ! وقد فى نفسه أنه لم يكره فى حياته أحدا لاول نظرة كما كره هذا الرجل . فقال مستر هاتش : « يبدو لى أنه قد أعياك سماع هذه النغمة بعينها عاما فى أثر عام » . فقال مستر تومسون : « الواقع أنه يطوف بذهنى أحيانا أن ليته يتعلم نغمة جديدة ، ولكنه لم يفعل ، فلم تكن لى فى الامر حيلة ، وانها لنغمة مليحة على كل حال » ! فقال مستر هاتش : « أخبرنى سكندنافى بمعناها وهكذا عرفته . وأهم مافيها ذلك الجزء الذى يتحدث عن الطرب وقد تملكك ، فتنطلق تجرع الخمر الذى بين يديك كله قبل أن يحين الظهر ، ويظهر أنه من عادة أهل بلاد السويد أن يحمل الرجل منهم زجاجة الخمر أينما حل وارتحل ، أو هذا على الاقل مبلغ فهمى . فهؤلاء الناس يمكن أن يصدر عنهم أى شىء ، ومع ذلك ... » ثم قطع عبارته وبصق ..

وكانت فكرة احتساء أى نوع من أنواع الخمر فى هذا الحر الشديد كافية لادارة رأس مستر تومسون ، بل ان فكرة شعور أى شخص بالطرب والانتعاش فى يوم كهذا اليوم ، كانت كافية لارهاقه . فقد كان يشعر أن الحريضنيه حقا . أما الرجل البدين فكان يبدو وكأنه قد أمسى وجذع الشجرة شيئا واحدا . فهو مستقر فوقها بثيابه القاتمة الرطبة الفضفاضة ، وبطنه المتكور فى سرواله ، وقد أزاح قبعته الواسعة السوداء عن جبهته الضيقة الحمراء التى ألهبتها الحرارة . وخطر لمستر تومسو

ن زجاجة من البيرة الجيدة الباردة يكون لها أطيب الاثر فى هذا الاوان ، فقد تذكر الزجاجات الاربع المستقرة فى قاع البركة ، فى معمل اللبن ، فاختلج لسانه الجاف فى داخل فمه ٠ ولكنه ما كان ليبرَّ هذا الرجل بشىء ،حتى ولو بقطرة ماء ! بل انه لن يمضغ معه شيئا من الطباق بعد ٠ ثم تفل ماكان فى فمه ، ومسح شفتيه بظاهر يده ، وجعل يتفحص رأس محدثه مليا ٠ انه رجل لاخير فيه ، وليس حضوره ها هنا لخير ! ولكن ماذا وراءه ؟

وقر رأى مستر تومسون على أن يفسح له فى الوقت ليفصح عن مكنونه ، أيا كان ، وعن مراده من مستر هلتون ٠ فاذا لم ينصرف بعد ذلك بالحسنى طرده طردا !

وكأنما استشعر مستر هاتش شيئا مما طاف بذهن مستر تومسون ، فحول اليه عينيه فى خباثة خنزيرية ، وقال كمن قر رأيه على قرار : « الحقيقة أننى قد أحتاج الى معونتك فى هذه المهمة الملقاة على عاتقى ، ولكنها لن تثقل عليك ٠ فمستر هلتون هذا كما قلت لك مخبول خطر هارب ٠ والواقع اننى قمت فى الاثنتى عشرة سنة الاخيرة أو نحو ذلك بالقبض على زهاء عشرين مخبولا هاربا ، فضلا عن اثنين من المجرمين الفارين عثرت عليهما بطريق المصادفة ٠ ولست أتخذ منها حرفة ، ولكن اذا كانت هناك مكافأة فانى أتقاضاها بطبيعة الحال ٠٠ ويصل المجموع على طول المدى الى مبلغ لابأس به ، وان لم يكن هذا هو بيت القصيد ٠

فالحقيقة أننى ظهير القانون والنظام ، ولا يروقنى أن أرى العابثين بالقانون والمجانين طلقاء ٠ فليس فضاء الله مكانهم الحق ٠ ولا أخالك الا نازلا على رأيى فى هذا الصدد ٠ أليس كذلك ؟ »

قال مستر تومسون : « كل شىء رهن بظروفه ، كما يقولون ٠٠ المبلغ علمى بمستر هلتون أنه لاخطر منه كما قلت لك » ٠ وبدا لمستر تومسون أن أمرا جديدا يوشك أن يقع ، بيد أنه لم يستطرد فى التفكير فى ذلك ، ورأى أن يدع ذلك الشخص يخرج مافى جرابه ثم ينظر بعدئذ فيما يرتبه على ذلك ٠ وبغير تفكير أخرج فهدينه وطباقه وشرع يقتطع لنفسه مضغة ، ثم ثاب الى نفسه وردهما الى جيبه ٠

وقال مستر هاتش : « ان القانون يؤيدنى تأييدا متينا ٠

ومستر هلتون هذا كان من أصعب مهامى ، فهو الحالة الوحيدة التى
ثلمت كمال نجاحى . وقد عرفته قبل أن يجن ، وأعرف أسرته
ولهذا آليت أن أساعد فى القبض عليه . ولكنه راغ منا واختفى
حتى حسبناه جميعا مات منذ زمن طويل . ولعلنا لم نكن لنعثر على
أثر له مطلقا ، ولكن أتدرى ماذا كان منه ؟ .. اعلم ياسيدى أنه
منذ أسبوعين وصلت والدته العجوز رسالة منه . وما
تحسبها ألفت فى هذه الرسالة ؟.. حوالة على ذلك المصرف الصغير
فى المدينة بمبلغ ثمانمائة وخمسين دولارا . وليس فى الخطاب نفسه
شىء ذو بال ، عدا أنه يرسل اليها مدخراته اليسيرة ، فقد تكون فى
حاجة الى شىء ... ولكن كان الخطاب يحمل الاسم ، وخاتم
البريد ، والتاريخ ، وكل شىء . فطار عقل العجوز من الفرح .
وارتدت الى طور الطفولة ، وكأنما أنسيت أن ابنها الوحيد الباقى
لها قد قتل أخاه ومسه الجنون .. وذكر مستر هلتون أيضا أنه قد
طاب له العيش ، وأوصاها ألا تخبر بأمره أحدا .. ولكنها لم
تستطع بطبيعة الحال أن تكتم الخبر ، فهناك هذه الحوالة
المصرفية التى لابد من قبض قيمتها ، وما الى ذلك .. وكذلك
بلغنى النبأ . ».. ثم غلبه شعوره فقال : « فكان مفاجأة كبرى لى »
ثم صافح نفسه فى حرارة واشتياق ، وجعل يهتز بضحكات
تصدر عن حلقه .

وشعر مستر تومسون عندئذ أن زاويتى فمه تتوتران توتر
هيوطيا . ان هذا الكلب المنحط يتلصص ويتجسس على أحوال
الناس بهذه الصورة الوضيعة . ان هذا الا جمع أثمان دماء ..

ثم قال مستر تومسون وهو يغالب انفعاله حتى لا يبدو منه
فى صوته أثر : « لابد أنها كانت مفاجأة حقا .. » فقال مستر
هاتش : « والحق أننى كلما أنعمت التفكير فى المسألة ، اتضح
لى أنه ينبغى أن أبحث الموضوع عن كثب ، فتحدثت الى العجوز
وهى الآن امرأة مقعدة نصف عمياء ، ولكنها كانت مصرة على
ركوب اول قطار لترى ولدها . فواجهتها بالواقع بوضوح تام
وكيف أنها لا تحتمل الرحلة لضعفها ، وما الى ذلك . وانى
اكراما لها لن أتقاضاها الا المصروفات الضرورية للحضور
بنفسى لمقابلة مستر هلتون ، ثم آتيها بجميع أخباره . فأعطتنى

قميصا جديدا صنعته بيدها ،وكعكة سويدية كبيرة ، كى أحملهما اليه . ولكن يظهر أننى أضعتهما فى الطريق ! ولكن ليس من هذا بأس ، فما أحسبه خلى البال لمثل هذه الطرائف » .

فاعتدل مستر تومسون فى جلسته فوق جذع الشجرة ، والتفت الى مستر هاتش فسأله بأهدأ لهجة استطاعها : « والآن ماالذى تهدف اليه ؟ هذه هى المسألة » . فنهض مستر هاتش قائما على قدميه ناشطا ثم قال :« لقد حضرت على أهبة للمخاشنة، وأتيت بالاصفاد ، ولكنى راغب عن العنف ما استطعت . ولهذا لم أذع الامر فى الجوار حتى لاتقوم القائمة ، وتوقعت أن فى كلينا كفاءة للتغلب عليه » . ثم دس يده فى جيبه الداخلى وأخرج الاصفاد . فحمى غضب مستر تومسون ، فهذا شخص يبرز فجأة ذات عصر وادع لاقلاق الرجل ، واثارة المتاعب ، وهاهو يستخرج من جيبه أصفادا فى حمى أسرة فاضلة ، وكأنه يقوم بالعادى المألوف من أمور الحياة .

ونهض مستر تومسون على قدميه أيضا وقد طنت رأسه وقال له فى غير مواربة : « اسمع .. أود أن أقول لك بئس العمل ما نهضت له . ولا بد أنك فى حاجة ماسة الى ماتقوم به . والآن اليك نصيحة خالصة : اطرح من ذهنك أنك مستطيع أن تشغب هنا على مستر هلتون . وكلما أسرعت بصرف عربتك المكتراة هذه عن بابى كان ذلك أدعى لارتياحى » . فوضع مستر هاتش أحد الصفدين فى جيبه الخارجى ،وترك الصفد الآخر مدلى يتأرجح ، ثم جذب قبعته فوق عينيه ،فأذكر مستر تومسون عمدة رآه فى مكان ما . ولم يبد عليه شىء من ثورة الاعصاب ، ولم تؤثر فيه كلمات مستر تومسون، بل قال :« والآن اصغ لما سأقوله لك دقيقة واحدة : ليس من الحكمة أن يقف رجل مثلك حائلا دون القبض على مجنون هارب لاعادته الى المارستان حيث ينبغى أن يقيم . وانى مقدر أنه مما يثيرك طبعا أن أفاجئك على هذا النحو ، ولكنى قدرت أيضا أنك رجل محترم قمين أن تساعدنى فى انفاذ العدالة . أما اذا أبيت مساعدتى، فأنى سأنشد بطبيعة الحال العون من مصادر أخرى . ولن يروق لجيرانك كثيرا أنك كنت

تؤوى مجنونا هاربا قتل شقيقه، ثم رفضت بعد ذلك أن تسلمه.. وستكون أضحوكة الناس » !

وكان مستر تومسون يعلم قبل أن يسمع ما سمع أنها ستكون أضحوكة لاريب فيها ، وسيلحقه من ذلك حرج شديد .. فقال : « ولكنى ما برحت أعيد عليك القول ان الرجل لم يعد مجنونا الآن . وانه سلخ تسع سنين لم يبدر منه فيها ما يضير . انه .. انه ..» ولم يدر مستر تومسون كيف يصف مستر هلتون . . فقال : « واعجبا ! لقد أضحى كأنه فرد من أفراد الاسرة . وهو أوفى معين يظفر به الانسان»

وراح مستر تومسون يتلمس لنفسه مخرجا، فالحقيقة أن مستر هلتون قد ينقلب مجنونا فى أى لحظة ، ثم اذا انطلق هذا الشخص يذيع النبأ فى الجوار ، نال مستر تومسون من ذلك حرج. فالموقف عسير لا يجد منه مخرجا .

وهدر مستر تومسون فجأة :« أنت مخبول! أنت المخبول هنا، بل لانت أشد خبالا مما كان هو فى أى وقت مضى ! أخرج من هذا المكان ، والا قيدتك أنت بالاصفاد وسلمتك لسلطان القانون ، فقد تعديت على حرمة مسكنى . » وجعل يصيح بأعلى صوته : « أخرج من هنا والاصرعتك . »

وخطا نحو الرجل البدين خطوة فتراجع وقال له :

« حاول . حاول . أقدم ! »ثم حدث شىء اجتهد مستر تومسون بعد ذلك أيما اجتهاد أن يجمع شتاته فى ذهنه ، فلم يجد الى ذلك سبيلا : لقد بصر بالرجل البدين وقد شهر فى يده مديته المعقوفة، وبصر بمستر هلتون يجرى مقبلا من وراء البيت وقد سقط فكه المستطيل وذراعاه يطيحان فى الهواء ، وتوهجت عيناه ، ثم وقف بينهما وقد جمع قبضتيه، ثم جمد فى وقفته وحملق فى الرجل البدين وكأنما تهاوى هيكله الكبير ،فأخذير تعد كجواد مجفل، وعندئذ هجم البدين عليه ، والمدية فى احدى يديه ، والاصفاد فى الاخرى . وبصر مستر تومسون بالمحذور :بصر بالنصل يغوص فى بطن مستر هلتون .ودرى بالفأس فى متناول يديه ، ثم ارتفعت ذراعاه فوق

رأسه وهبطتا بالفأس على أم رأس مستر هاتش كأنه يقصم جزورا من البقر ...

ولبثت مسز تومسون مدة تصغى فى قلق من موضعها بالبيت لاصوات الحديث ، وكان أحد الصوتين غريبا عليها . بيد أنها كانت متعبة جدا فلم تستطع النهوض أول الامر لتستجلى الخبر . فلما ثار ذلك الصياح فجأة اندفعت واقفة وخرجت من السدة الامامية بغير خفيها ، وقد تشعث شعرها . فلما ظللت عينيها بيدها ، رأت أولا مستر هلتون يجرى ملهوفا فى البستان ، وكأن فى أعقابه كلاب الصيد تطارده . ثم رأت مستر تومسون متكئا على مقبض الفأس ، وقد انحنى فوق رجل لم تره مسز تومسون من قبل ، وأخذ يهز منكبيه . . والرجل مكوم فوق الارض مشجوج الرأس ، والدم يتدفق منه بغزارة . وقال مستر تومسون بصوت غليظ دون أن يرفع يده عن عاتق الرجل :

« لقد قتل مستر هلتون . قتله! رأيته يقتله ، فلم أجد بدا من صرعه . »

فصرخت مسز تومسون صرخة خافتة وقالت :

« وى ! ها مستر هلتون يجرى هناك » . وأشارت بيدها ، فانتصب مستر تومسون واقفا ونظر حيث أشارت . أما مسز تومسون فهوت جالسة مستندة الى جدار البيت ، وجعلت تدلك وجهها بيديها ، فقد شعرت كأنها مشفية على الغرق ، ولا تستطيع الطفو الى السطح . وكل ما خطر لها هو حمد الله على أن الغلامين غير حاضرين ، لانهما ذهبا للصيد فى هاليفاكس . أجل الحمد لله انهما غير موجودين !

***

وصل مستر ومسز تومسون الى حظيرتهما بالعربة قرب غروب الشمس ، فأعطى مستر تومسون الاعنة لزوجته ، ثم ترجل ليفتح الباب الكبير ، وقادت مسز تومسون جيم العجوز الى الداخل . وكان الجواد قد اغبر من التراب والسن . كذلك كان وجه مسز تومسون مغبرا من التراب والاعياء . وأيضا كان وجه مستر تومسون ، وهو واقف عند رأس الجواد يهم بخلع اللجام عنه ، مغبرا كله فيما عدا

ندفة داكنة تعلو فكه الحليق حديثا وذقنه . لقد كان وجهه مغبرا وأزرق وضامرا فى تجلد كأنه وجه رجل ميت .

وهبطت مسز تومسون الى أرض الحظيرة التى تعلوها طبقة صلدة من السماء ، ونفضت ثوبها الخفيف المشجر وكانت تحمل نظارتها القاتمة وقبعتها العريضة المظللة المزركشة بالاحمر والازرق، فكانت تحجب جبينها الذى ارتسم عليه القنوط .

ورفع الحصان رأسه ثم صعد آهة عميقة وثنى قوائمه المتصلبة . وصدرت من مستر تومسون كلمات فى صوت أجش أجوف ، فقال وهو يتنحنح : « ياللمسكين جيم العجوز : لقد برزت ضلوعه وأخاله قد شقى كثيرا بهذا الاسبوع » ثم رفع السرج دفعة واحدة وألقاه بعيدا ، فتحرك جيم متحررا، واستطرد مستر تومسون متحدثا الى جيم : « ولكن هذه آخر مرة . ولك الآن أن تستمتع بالراحة » .

وأغمضت مسز تومسون عينيها وراء منظارها القاتم . انها المرة الاخيرة ، وآن لها أن تكون كذلك بل ما كان لهما أن يذهبا أصلا . لم تعد بها حاجة الى النظارة القاتمة بعد أن هبط الظلام مرة أخرى . بيد أن الدمع يفيض من عينيها فيضا متصلا مع انها لم تكن باكية، فالنظارة أعون على راحتها ، ثم انها تحمى عينيها وتخفيهما .

وأخرجت منديلها بيديها المرتعشتين ، تلك الرعشة التى لم تفارقهما منذ « ذلك اليوم » وتمخطت ثم قالت : « أرى الغلامين قد أوقدا المصابيح . وأرجو أن يكونا قد أشعلا الفرن أيضا » .

ومشت فوق الممر الوعر رافعة فضل ثوبها الرقيق ووشاحها ، متلمسة طريقها بين الاحجار الصغيرة الحادة ، تاركة وراءها الحظيرة لانها لا تكاد تحتمل قرب مستر تومسون ، متجهة نحو البيت فى بطء لانها تكره الذهاب اليه ، فالحياة كلها كريهة ، ووجوه جيرانها وولديها وزوجها ، ووجوه الناس أجمعين ، وسحنة بيتها فى الظلام بل رائحة العشب والاشجار .. كلها كانت فظيعة الوقع لديها، فما من مكان تستريح اليه، وليس أمامها الا شىء واحد ، أن تحتمل بأى كيفية ـ ولكن كيف ؟

طالما سألت نفسها ذلك السؤال · كيف تراها مستطيعة أن تمضى فى الحياة الآن؟ ولماذا عاشت على الاطلاق ؟ لكم تمنت الآن لو أنها ماتت ذات مرة من تلك المرات التى انتابتها فيها العلة المضنية ولم تعش حتى ترى ما رأت ·

كان الغلامان فى المطبخ ، فهربرت يتفرج على الصور الفكاهية فى عدد يوم الأحد الفائت من صحيفة ، وقد جعل ذقنه فى يديه ومرفقيه على المائدة · وكان يقرأ وينظر فى التصاوير حقا ، بيد أن وجهه كان فياضا بالشقاء · أما آرثر فكان يشعل النار فى الفرن ، فيضيف الحطب عودا عودا ، ويرقبه والنار تدب فيه فيشتعل · وكان وجهه أشد من وجه هربرت كآبة وانقباضا ، ولكنه كان بطبيعته من أهل الوجوم ، فهو فى اعتقاد مسز تومسون يأخذ كل شىء مأخذ الجد والغم ·

وقال آرثر : « مرحى يا أماه » ثم انصرف الى ما كان فيه من عمل ، أما هربرت فنحى الصحف عنه وتململ فى مقعده · وكان الغلامان قد كبرا ، فصار عمراهما خمس عشرة وسبع عشرة سنة · وصار آرثر فى مثل طول أبيه ·

وجلست مسز تومسون الى جوار هربرت ، فخلعت قبعتها ثم قالت : « أظنكما جائعين · وقد تأخرنا اليوم ، فقد سلكنا طريق لوج هولو وهو أوعر مما عهدتاه » · ثم أطبقت فمها اطباقة أحدثت أخدودين محزونين على جانبيه · فقال هربرت : « أظنكما زرتما آل مانتج » ، فأجابت : « نعم وآل فيرجيسون وآل ألبرايت ، وتلك الاسرة الجديدة ، أسرة ماك كليلان » فقال هربرت : « وهل قال أحد شيئا ؟ » فقالت : « لا شىء يستحق الذكر · فأنت تعلم كيف كان الموقف على طول الخط ، ففريق منهم ظل يقول نعم ، فهم يعلمون أن القضية واضحة ، وأن المحاكمة كانت عادلة ، ثم يقولون انه قد سرهم كثيرا أن يخرج أبوكما برىء الساحة وما الى ذلك · هذا قول فريق منهم · ولكن من هؤلاء من لا يبدو عليه أنه فى صفه حقا ، وقد كدت أقضى اعياء » وجعلت الدموع تنساب من تحت نظارتها القاتمة وهى تقول : « ولست

أدرى ماجدوى ذلك . ولكن أباكمالا يستريح فيما يظهر الا اذا قال كيف وقع الحادث . أما أنا فلا أدرى ماالفائدة » !فقال آرثر وهو يبتعد عن الفرن : « لا أظن هناك فائدة على الاطلاق . بل ان ذلك من شأنه أن يثير الموضوع باستمرار فى أذهان الناس . فكل واحد منهم سيطوف بالناس مرددا ماسمعه ، فيزداد الامر فى الاذهان اختلاطا فوق اختلاط ، وذلك من شأنه أن يزيد الامر سوءا . وليتك تفلحين فى حمل أبى على الكف عن الطواف بالجوار خائضا فى هذا الحديث على هذا النحو » !فقالت مسز تومسون : « أبو كما أعلم بما ينبغى . وليس لكما أن تنتقداه . فحسبه ما يلقاه من دون هذا » . ولم يقل آرثر شيئا ولكن فكه تقلص ، ودخل مستر تومسون وقد غارت عيناه فبانتا كعينى الموتى ، أما يداه الغليظتان فكانت عليهما غبرة الشحوب ، وطرأ عليهما بياض من كثرة ماكان يغسلهما كل يوم قبل الركوب لزيارة جيرانه كى يخبرهم حديث قصته من وجهة نظره . وكان مرتديا ملابس الأحد ، وهى عبارة عن حلة سميكة فى لون الملح والفلفل ، وربطة عنق سوداء .

ونهضت مسز تومسون واقفة ورأسها يدور ، فقالت : «أخرجوا من المطبخ جميعا ، فالحرارة شديدة هنا ، وأنا بحاجة الى متسع من المكان . وسوف أعد لقمة للعشاء اذا خرجتم وأتحتم لى الفرصة » .

فخرج الثلاثة ، وكأنهم فرحوا بالانطلاق . فذهب الغلامان الى الخارج ، وذهب مستر تومسون الى مخدعه ، وسمعته يتأوه وهو يخلع حذاءيه ، ثم سمعت فراشه يصر حين استلقى فوقه . ففتحت مسز تومسون الثلاجة وشعرت بالبرودة المستعذبة تشع منها . ولم تكن تأمل يوما أن تكون لديها ثلاجة ، ومن باب أولى لم تكن تأمل أن تقدر على تزويدها بالثلج باستمرار . ولكن ها هو ذا الطعام باردا نظيفا لاينقصه الا التسخين . وما كانت لتقتنى هذه الثلاجة لو لم يهبط عليهم مستر هلتون ذات يوم بقدر من مقادير الحظ العجيبة . . وانشغل ذهنها بتصور هلتون فى اقتصاده وتدبيره وطيبته ، فخفق قلبها خفقانا شديدا ، حتى لقد خشيت أن يعاودها الاغماء وهى واقفة أمام الثلاجة معتمدة برأسها فوق بابها المفتوح . فهى

لم تكن لتطيق تذكر مستر هلتون بوجهه الطويل الحزين ، وصمته وهدوئه وبعده عن الايذاء ، وهو الذى كان يعمل بجد ويقدم لمستر تومسون أعظم العون ، وقد أخذ يجرى فى الحقول والغابات فى حمارة القيظ ، مطاردا كأنه كلب مسعور ، وقد انطلق وراءه كل الناس وفى أيديهم الحبال والبنادق والعصى كى يدركوه ويوثقوه !! وتنهدت مسز تومسون فى أنة طويلة حارقة ، واستعاذت بالله وهى تركع أمام الثلاجة وتتلمس فى داخلها الأطباق . ومع أنهم فرشوا أرض الزنزانة بالحشايا ، وبسطوا حشيات أخرى حول جدرانها ، وجعلوا معه خمسة رجال ليحولوا بينه وبين المضى فى ايذاء نفسه ، الا أنه كان قد أوذى من قبل أشد الايذاء ، فما كان ليعيش بعدها وقد حدثها مستر باربى العمدة بكل ما كان ، فقال لها انهم ما كانوا يرمون الى ايذائه ، ولكن كان عليهم أن يقبضوا عليه ، فقد كان هائجا هياج المجانين ، فكان يمسك الحجارة الكبيرة ويحاول أن يحطم دماغ كل من دنا منه . وكان فى جيب قميصه مزمار ان سقطا منه عند الالتحام ، فانحنى ليستردهما فكانت هذه فرصة مطارديه فى التغلب عليه : « ولم يكن مناص من العنف يامسز تومسون ، فقد كان يقاتل قتال القطط الوحشية » ، وفى مرارة اعترفت مسز تومسون بينها وبين نفسها أنه لم يكن مناص من العنف طبعا ، فالعنف دأبهم على الدوام . فهذا مستر تومسون لا يستطيع أن يجادل رجلا ويخرجه من بيته بوسيلة سلمية .

وأغلقت الثلاجة وهى تردد بينها وبين نفسها ناهضة على قدميها : « كلا . لم يكن مناص من أن يقتل . ولم يكن مناص من أن يغدو قاتلا فيقضى على حياة ولديه ويتسبب فى قتل مستر هلتون كما يقتل الكلب المسعور » !!

وتوقف تيار أفكارها وقد تفجر انفعالها تفجرا صامتا ، ثم اتضح واسترسل ، أن ما بقى من مزامير مستر هلتون ما يزال فى كوخه ، وما زالت نغمته تطن فى رأس مسز تومسون فى أويقات من النهار . وكم افتقدتها فى ساعات المساء . وعجبت أنها لم تعرف يوما اسم تلك الاغنية أو معناها الا بعد ما قضى مستر هلتون .

وشعرت برعدة فى ركبتيها فشربت جرعة من الماء ، ثم صبت اللوبيا الحمراء فى ماعون الطبخ،وشرعت تقلب قطع الدجاج فى الدقيق كى تقليها . وقالت لنفسها: مضى وقت كنت أعتقد فيه أن لى جيرانا وأصدقاء ! ومضى وقت كنا نستطيع فيه أن نرفع رؤوسنا ! ومضى وقت لم يكن زوجى فيه قاتلا ! وكنت أنا امرأة كلامها الصدق لكل انسان وفى كل موضوع .

***

استقر مستر تومسون وهو يتقلب فى فراشه على أنه قد بذل غاية جهده ، وليس أمامه من بعد الا أن يترك الموضوع ناضا يده منه . وقد قال له محاميه مستر بيرلى منذ البداية : « عليك الآن أن تلزم الهدوء والاستجمام . فالقضية ناجحة مع أنه ليس لديك شهود . وستمثل زوجتك أمام المحكمة ، وسيكون لذلك وقع على المحلفين . وعليك أن تقول انى غير مذنب ، وسأقوم أنا بالباقى . وسوف لا تكون المحاكمة الا مسألة شكلية ، ولا داعى للقلق مطلقا ، فانك سوف تخرج منها برىء الساحة قبل أن تدرى . »

ثم عزز مستر بيرلى أقواله بما رواه عن كل من يعرف من الرجال فى هذه المنطقة ممن حملتهم الظروف لهذا السبب أو ذاك على أن يقتلوا دفاعا عن النفس فى جميع الاحوال ، فلم يلحق بهم من جراء ذلك فى . . بل انه حدثه عن والده وكيف أطلق الرصاص فى الزمن الحالى فقتل رجلا لا لشىء الا لانه وضع قدمه داخل بوابته بعد أن نهاه عن ذلك ، ثم قال والد مستر بيرلى بعد ذلك للمحكمة : « يقينا اننى قتلت هذا الوغد دفاعا عن النفس . فقد قلت له اننى سأقتله بالرصاص ان هو وضع قدمه فى فنائى . وقد فعل ، ففعلت ! » وأكد له مستر بيرلى أنه كانت بين الرجلين ملاحاة قديمة . فجعل والده يتربص زمنا طويلا الى أن تحين فرصة خطأ عدوه ، فاستغلها الى أقصى حدود الاستغلال . وعندئذ قال مستر تومسون : « ولكن مستر هاتش كما قلت لك هجم على مستر هلتون بمديته المعقوفة ، ولهذا تدخلت . » فقال مستر بيرلى : « وهذا أفضل . فلم

يكن لذلك الغريب أدنى حق فى الحضور الى بيتك فى هذه المهمة. فليس ما اقترفت جريمة قتل . فانصرف الى أعمالك ولا تفه بكلمة واحدة حتى آذن لك . »

لم يكن ما اقترف جريمة قتل ، لقد كان على مستر تومسون أن يغطى مستر هاتش بقطعة من غطاء العربة ، ثم ركب الى المدينة ليخبر العمدة . وكان وقع الحادث على « الى » هائلا . فعندما عاد ومعه العمدة والنائبان والمحقق الجنائى ، وجدوها جالسة بجانب الطريق فوق قنطرة منخفضة على بعد قرابة نصف ميل من المكان ، فأردفها وراءه وأعادها الى البيت . وكان قد أخبر العمدة قبل ذلك أن زوجته شهدت الحادثة بأكملها ، فانفسح أمامه الوقت وهو يدخلها حجرتها ويرقدها فى فراشها بأن يخبرها ماذا تقول اذا سألوها عن أى شىء . وقد أخفى الجزء الخاص بخبال مستر هلتون كل الاخفاء ، ولكن الحقيقة افتضحت أثناء المحاكمة ! وبمقتضى نصيحة مستر بيرلى ادعى مستر تومسون أنه كان يجهل هذه المسألة تمام الجهل ، وان مستر هاتش لم يذكر له حرفا منها . وزعم مستر تومسون انه انما اعتقد أن مستر هاتش لم يحضر للبحث عن مستر هلتون الا لتسوية حزازات قديمة . وكذلك لم يظفر قريبا مستر هاتش اللذان حضرا لمحاولة ادانة مستر تومسون بطائل . وبفضل جهود مستر بيرلى لم تستغرق المحاكمة طويلا ، وقد طلب مقابل ذلك أتعابا معقولة أداها له مستر تومسون شاكرا .

ولكن ما ان انتهت القضية حتى بدا على مستر بيرلى عدم الارتياح لرؤيته حينما خطر له أن يلم بالمكتب للافضاء بما فى صدره من أمور ندت عن ذاكرته فى البداية ، وليبين له مبلغ ما انطوى عليه مستر هاتش من سفالة وانحطاط . والظاهر أن مستر بيرلى كان قد فقد كل اهتمام بالموضوع ، فانه كان يقطب ويتجهم حين يرى مستر تومسون واقفا بالباب .

وظل مستر تومسون يقول لنفسه انه قد أفلت فعلا كما توقع مستر بيرلى ، بيد أن عقله لم يستطع التخلص من تلك العقدة التى استولت عليه : فهو قد قتل مستر هاتش ، فهو اذن قاتل . فهذه

هى حقيقته التى لم يستطع هضمها أو ادراكها ، حتى وهو ينبىء بها نفسه . عجبا ! انه لم يفكر مرة واحدة من قبل فى قتل أى انسان ، فضلا عن ان يكون هذا الانسان مستر هاتش . ولو أن مستر هلتون لم يقبل فى تلك اللحظة على غير انتظار عندما سمع الشجار ، اذن ـ اذن ، ولكن مستر هلتون أقبل يجرى لنجدته . أما مالم يستطع فهمه فهو ماوقع بعد ذلك ، فقد أبصر مستر هاتش يهجم على مستر هلتون بالسكين ، وأبصر سنها ونصلها يدخلان معدة مستر هلتون فتشق كما يشق الخنزير . ولكن عندما قبضوا آخر الامر على مستر هلتون لم يجدوا فيه أثرا لخدش سكين ، ودرى مستر تومسون أن الفأس كان فى يديه ، وشعر بنفسه وهو يرفعه . ولكنه لايذكر انه ضرب به مستر هاتش . انه لايذكر ذلك . ولا قبل له بتذكره ، فكل مايذكره أنه كان مصمما على الحيلولة بين مستر هاتش وطعن مستر هلتون ، ولو أتيحت له الفرصة لاستطاع أن يجلو المسألة كلها ، ولكنهم فى المحاكمة لم يتركوا له حرية الكلام ، فقد كانوا يسألونه ، وكان يجيب بنعم أولا ، فلم يكونوا ليصلوا الى بواطن الامور . ومنذ انتهت المحاكمة حتى الآن قضى أسبوعا كاملا يغتسل فيه كل يوم ، ويحلق ذقنه ، ويلبس خير ملابسه ويصطحب « الى » ، كى يخبر كل جار من جيرانه أنه لم يقتل مستر هاتش عن عمد ، ولكن ماذا جنى من وراء ذلك ؟ لم يصدقه أحد ، وحينما كان يلتفت الى « الى » قائلا : « لقد كنت حاضرة ورأيت كل شىء ، أليس كذلك : « كانت تقول : « بلى . هذه هى الحقيقة . لقد كان مستر تومسون يحاول انقاذ حياة مستر هلتون . » وعندئذ يقول هو : « وان لم تصدقونى ، فأسألوا زوجتى ، فانها لاتعرف الكذب . » فكان يرى عندئذ فى وجوههم جميعا شيئا يخيب أمله ويشعره بالفراغ والاعياء . فما كانوا ليصدقوا أنه ليس قاتلا .

وهذه « الى » لم تقل مطلقا شيئا تسرى به عنه . وكان يأمل أن تقول أخيرا : « لقد تذكرت الآن يامستر تومسون . فقد

برزت من وراء زاوية البيت فى اللحظة المناسبة ، ورأيت كل شيء . انك لم تكذب يامستر تومسون ، فهون عليك » . ولكن كانا يركبان معا فى صمت ، والنهار لا يزال قائظا جافا قبل الأصيل . وتوالت الايام على هذا المنوال ، والحصان يخب بهما بين الاحجار ، دون أن تقول شيئا من هذا القبيل . فصارا يستعيذان من رؤية أى بيت أو رؤية ساكنيه ، اذ أصبحت البيوت كلها الآن سواء . وجميع الناس من جيران قدماء ومحدثين ترتسم على وجوههم مسحة واحدة حينما يذكر لهم مستر تومسون سبب حضوره ثم يشرع فى سرد قصته .

لقد كانت عيونهم وكأن أحداقها من الخلف ، فهى زائغة خابية الضوء . ومنهم فريق كان يجلس وعلى شفتيه ابتسامة مغتصبة ، فيحاول أن يظهر المودة قائلا : «أجل يامستر تومسون . نحن نعلم حقيقة شعورك ، فلا شك أن الامر هائل لديك « انى أكاد أصل شخصيا الى الاعتقاد بوجود شيء يسمونه القتل دفاعا عن النفس . ونحن طبعا نصدقك يامستر تومسون ، ولم لا ؟ ألم تقدم لمحاكمة عادلة علنية ؟ فنحن طبعا يا مستر تومسون نعتقد أنك كنت على حق » . وكان مستر تومسون مقتنعا بأنهم لا يعتقدون ذلك . وكان الهواء فيما حوله يزدحم فى بعض الاحيان بلومهم ، فكان يكافح ويدفع بقبضته ، ويتصبب العرق من جسمه كله ، وهو يروى قصته صائحا بصوت أفسده ما غشى حلقه من التراب الى أن يصيح فى النهاية : «هذه زوجتى ، وأنتم تعرفونها ، وقد كانت حاضرة ورأت وسمعت كل شيء . فان كنتم لا تصدقوننى فاسألوها . فما كانت لتكذب !» فتشبك مستر تومسون يديه المكدودتين ، ولا تخطىء أن تقول وذقنها ترتعد : « نعم هذا صحيح ، هذه هى الحقيقة » !

ولكن القشة التى قصمت ظهر البعير كانت فى ذلك اليوم ، فان توم البرايث ، وهو معجب قديم بالى ، بل انه ظل يلاحقها فيما مضى صيفا كاملا ، خرج اليوم للقائهما حين وصلا بالعربة ، ووقف

أمامهما عارى الرأس ، فمنعهما بذلك من النزول ، وكان ينظر الى ما وراءهما وعلى وجهه قطوب الضيق ، قائلا لهما ان شقيقة زوجته فى الدار ومعها حفنة من أولادها ، فاكتظ بهم البيت واضطرب نظام كل شىء فيه ، ولولا ذلك لدعاهما للدخول ، وأردف : « لقد كنا نفكر فى الذهاب اليكما يوما ما » ، ثم أخذ يتحرك كمن يريد أن يظهر الانشغال ، واستطرد : « ولكننا كنا مرهقين بالعمل فى المدة الاخيرة » . فقال مستر تومسون « لقد كنا مارين من هنا ففكرنا فى التحية » . ثم انطلقا . وقالت مسز تومسون « ان آل البرايت كانوا دائما من اخوان الصفاء » ، فأجابها مستر تومسون : « انهم لايقبلون الا على من أقبلت عليه الدنيا » ، ولكن كان هذا عزاء فاترا لكليهما !

واخيرا قالت مسز تومسون : « فلنرجع الى البيت . فقد تعب جيم العجوز وعطش . وقد ابتعدنا كثيرا » . فقال مستر تومسون : « ما دمنا فى هذه الناحية فلننتهز الفرصة للمرور ببيت آل ماك كليلان » وتوجها اليه ، ثم سألا غلاما صغيرا قطنى الشعر : هل أمه وأبوه فى البيت ، فان مستر تومسون يريد مقابلتهما ، فوقف الغلام الصغير يحملق فيهما وقد فغر فمه ، ثم انطلق يعدو الى داخل البيت وهو يصيح : « أمى . أبى . تعاليا . فان الرجل الذى قتل مستر هاتش قد جاء لزيارتكما ! » فخرج الرجل لابسا جوربه ، واحدى فردتى حذائه الطويل ، أما الفردة الأخرى فلم يتم لبسها . وقال : « انزل يامستر تومسون وادخل . ان امرأتى تغتسل ، ولكنها ستحضر حالا » . فتلمست مسز تومسون طريقها ، ونزلت فجلست فى مقعد مكسور من النوع الهزاز فوق السدة التى كانت تهتز تحت قدميها . أما ربة البيت فخرجت حافية وجلست على طرف السدة وقد نضح وجهها البدين بالفضول . وبدأ مستر تومسون الكلام فقال : « اخالكما تعلمان أنه وقعت لى منذ مدة وجيزة طائفة من المتاعب الغريبة ، من نوع لايحدث للانسان كما يقولون فى كل يوم من أيام السنة . وهناك جملة

أشياء لا أحب أن يساء فهمها فى أذهان جيرانى ، ولهذا .. » ثم وقف وتعثر ، وبدت على المستمعين أمارات الازدراء والطمع والخسة ، وكأنها تنطق بلسان واضح وضوح النهار : « عجبا ، لابد أنك انسان مسكين حقا ، حتى تجشم نفسك عناء الاهتمام بما عسى أن نظن نحن ، ونحن نعلم أنك ما كنت لتأتى الى هنا لو أنك وجدت أحدا تتجه اليه سوانا . فانى شخصيا ما كنت لاهبط بنفسى الى هذا الدرك » ، فخجل مستر تومسون من نفسه ، واستولى عليه الغضب ، وتمنى لو دق راسيهما القذرين بعضهما ببعض ، فانهما لدنيئان قذران . بيد أنه كبح جماح نفسه ومضى فى قصته حتى نهايتها . ثم قال « وستخبركما زوجتى » ، فكان ذلك أصعب مافى الموضوع . لأن « الى » كانت تتصلب من غير أن تتحرك فيها عضلة واحدة ، كأن أحدا يتهددها بالضرب . فلما قال : « اسألا زوجتى . فما كانت لتكذب » ، قالت : « هى الحقيقة . فقد رأيتها » ! فقال الرجل فى جفاء وهو يهرش ضلوعه من داخل قميصه : « هذا يقينا مؤسف جدا . ولكنى لا أرى مع ذلك أى شأن لناهنا بهذا الموضوع . ولا أرى أى داع للتدخل فى مسائل القتل . وأيا كانت وجهة نظرك ، فانها ليست من شأنى . وان كان لطيفا منكما جدا أن تأتيا لاطلاعنا على جلية الخبر ، لاننا فى الواقع سمعنا روايات غريبة عن الموضوع . روايات من الغرابة بحيث لا نعرف لها رأسا من ذنب » ! فقالت المرأة : « ان كل انسان أصبح الآن يقتل أخاه ، أما نحن فلا نقر القتل ، فالتوراة تقول .. » فقال الرجل : « أغلقى فمك والا أقفلته لك !! ان المسألة تبدو فى نظرى .. »

وعندئذ باعدت مسز تومسون بين كفيها وقالت : « لانستطيع أن نتأخر أكثر مما تأخرنا حتى الآن ، فقد تقدمت الساعة ، والمسافة طويلة » ، فأدرك مستر تومسون مرادها من هذا التلميح ، وتبعها فى النهوض ، ووقف الرجل والمرأة مستندين الى أعمدة سدتهما المتداعية ، يرقبان انصرافهما .

والآن وقد استلقى فى فراشه،أدرك مستر تومسون أن النهاية قد حانت . فالآن ، فى هذه الدقيقة ، وهو مستلق فى الفراش الذى طالما اضطجع فيه مع «الى»طيلة ثمانى عشرة سنة ، وتحت هذا السقف الذى وضع عروقه بنفسه وهو يستعد لاتمام زواجه، وقد أخذ فى رقدته هذه يتحسس بأصابعه ذقنه البارزة العظام ، وعارضيه وقد أخذ شعرهما ينبت بعد أن حلقه صباح هذا اليوم ، شعر مستر تومسون أنه رجل ميت . فهو ميت بالنسبة لحياته تلك التى انقضت . فهو قد بلغ نهاية شىء ما دون أن يدرى لماذا ؟ وعليه أن يبدأ من بعد بداية جديدة ، وان كان لا يدرى كيف ؟.. ان شيئا جديدا سوف يبتدىء ، ولكنه لايدرى ماهو ، بيد أنه شعر أن ذلك ليس من شأنه على نحو ما، لانه سوف لايكون له فيه دخل يذكر .

ونهض من رقدته مكدودا خائرا ، فتوجه الى المطبخ حيث كانت مسز تومسون تعد العشاء فوق المائدة فقالت له : « ناد الغلامين » وكانا قد ذهبا الى الحظيرة ، فأطفأ آرثر الفانوس قبل أن يعلقه على المسمار بالقرب من الباب . ولم يسترح مستر تومسون الى صمتهما . فأنهما لم يكادا يقولان له كلمة عن أى شىء منذ ذلك اليوم. وكان ظاهرا أنهما يتحاشيانه . وكانا يتوليان كل شىء معا كأنه غير موجود ،ويقومان بكل عمل لايسألانه نصحا ولا رأيا . فقال لهما مصطنعا البشر : « ما ذا كنتما تصنعان ياولدى ؟ هل كنتما تتمان أعمالكما ؟ » فقال آرثر : « كلا ياسيدى . لم يكن هناك عمل ذو بال ، فقد كنا نقوم بتشحيم محاور العجلات » .. أما هربرت فلم يقل شيئا .

وحنت مسز تومسون رأسها وهمست بصوت ضعيف : « نشكرك على هذه النعم وعلى أنعمك الاخرى .. آمين » ، وجلس آل تومسون هناك ،غضيضة أبصارهم ، محزونة وجوههم ، كأنهم جلوس فى مأتم ..!

***

كلما أغمض مستر تومسون عينيه لعله يغفى ، تنبه ذهنه

ونشط للجرى كأنما هو أرنب ،قافزا من موضوع الى موضوع، باحثا عن أثر يعينه على توضيح سياق ماحدث ذلك اليوم الذى قتل فيه مستر هاتش ، وجاهداما اجتهد فى ذلك السبيل عقل مستر تومسون ، فما كان ليصل الى شىء لم يكن قد وصل اليه من قبل ، أو ليرى شيئا لم يره من قبل .. ومع هذا فقد كان واثقا أن هذا ليس هو الصواب. فما لم يصدقه نظره فى المرة الاولى ، فكل شىء اذن يتصل بقتله مستر هاتش كان خطأ من أوله الى آخره ، ولاحيلة له فيه، وخير له أن ينفض يده منه. ولكن ما زال يبدو له أنه ان لم يكن قد أصاب فيما فعل ، فهو قد فعل كل ما استطاع فى ذلك اليوم .. ولكن ، أهذا صحيح ؟ ألم يكن مناص من قتل مستر هاتش ؟ أنه لم ير فى حياته رجلا وكرهه أشد مما كرهه منذ وقت عليه عيناه ، فقد علم فى قرارة نفسه أنه أتى لمكروه . والذى يبدو له الآن غاية فى السخف هو هذا : لماذا لم يأمر مستر هاتش بالانصراف قبل أن يدخل أصلا؟

وكانت مسز تومسون راقدة بجواره ، وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها ، وقد سكنت أوصالها تماما، بيد انها كانت يقظى فيما يبدو .. فهمس قائلا :

ـ « أنائمة أنت يا الى ؟ » ...

لقد كان ممكنا على كل حال أن يتخلص منه بوسيلة سلمية ، أو ربما اضطر الى التغلب عليه ووضع هذه الاصفاد فى يديه ثم يسلمه الى العمدة بتهمة تكدير الامن .. وكان أقصى مايصل اليه الامر أن يحبسوا مستر هاتش حتى يهدأ بضعة أيام ، أو يغرمونه غرامة يسيرة .. وراح يفكر فيما كان من الممكن أن يقوله لمستر هاتش .. لنر .. ؟ كان يمكننى أن أقول له : « الآن اسمع يامستر هاتش ، فانى أريد أن أخاطبك خطاب رجل لرجل » ... ثم يخونه ذهنه . وماذا كان يمكن أن يقول أو يصنع؟ ولكن لو أنه استطاع أن يصنع أى شىء عدا قتل مستر هاتش ،اذن لما وقع شىء لمستر هلتون .

ولم يكن يفكر فى مستر هلتون على الاطلاق تقريبا : لان عقله كان

يثب متجاوزا اياه لينطلق فى أفكاره ، فلو انه استأنى كى يفكر فى مستر هلتون، اذن لما استطاع وايم الله أن يصل الى شىء . وحاول أن يتصور كيف كان الحال ممكنا أن يكون هذه الليلة عينها ، لو أن مستر هلتون لم يزل ناجيا معافى فى كوخه يعزف نغمته عن الانتعاش فى الصباح، واحتساء جميع الخمر كى يزيد الانتعاش . ولكان مستر هاتش ناجيا فى زنزانة بمكان ما ، ولعله أن يجن جنونه لذلك، ولكنه يكف عن الشر على كل حال، ويتاح له الاصغاء لصوت العقل، والتكفير عن سفالته، هذا الكلب القذر الصفراوى الذى يتعقب رجلا بريئا ، ويهدم صرح أسرة كاملة لم تتعرض له بسوء !

وأحس مستر تومسون أن عروق جبينه قد نفرت ، وان قبضتيه قد تقلصتا كأنه قابض على يد فأس ! وتفصد جسمه عرقا ، ثم قفز من الفراش وفى حلقه غصة معترضة ، فنهضت على أثره «الى» صائحة : «أوه كلا ! لا تفعل ! » فكأنها فى كابوس .. فوقف يرتجف وعظامه تصطك . وهو يصيح بصوت أجش : « أشعلى المصباح ، أشعلى المصباح يا الى » فأطلقت صرخة واهنة متحشرجة، كتلك الصرخة التى سمعها منها حين أقبلت من وراء البيت وهو واقف هناك والفأس فى يده . ولم يستطع رؤيتها فى الظلام ، ولكنها كانت راقدة فى الفراش تتقلب تقلبا عنيفا، فتحسسها مذعورا الى أن عثر بذراعيها ، فاذا بهما مرفوعتان الى أعلى، واذا يداها تجذبان شعر رأسها ، وقد تصلب عنقها الى الوراء، والصرخات المكتومة تكاد تخنقها ، فصاح ينادى آرثر وهربرت ، صارخا بصوت مضعضع : « أمكما » . فأقبل الغلامان يتخبطان وهو ممسك بذراعى مسز تومسون ، وقد رفع آرثر المصباح فوق رأسه، فأبصر مستر تومسون على ضوئه عينى مسز تومسون المفتوحتين وهما تحدقان فيه بكراهية ، والدمع ينهمر منهما . فلما أبصرت الغلامين جلست ومدت نحوهما احدى ذراعيها ، وقد تشنجت كفها فى حركة تنبىء

عن ثورة الاعصاب ، ثم ارتمت على ظهرها فى تراخ وتفكك مفاجئين ، فوضع آرثر المصباح فوق المنضدة، والتفت الى مستر تومسون فقال له : «انها مذعورة . مذعورة ذعر الموت . » وكان وجهه عابسا عبوس الغضب ، وقد تقبضت يداه وهو يواجه أباه كأنما يهم أن يضربه ، فسقط فك مستر تومسون وتراجع مبتعدا عن الفراش من فرط الدهشة ! أما هربرت فاتجه الى الجانب الآخر من الفراش ، ووقف الولدان على جانبى مسز تومسون يرقبان مستر تومسون وكأنه وحش مفترس شديد الخطر . ثم صاح آرثر فى صوت الرجل المكتمل: « ماذا صنعت بها ؟ اياك أن تمسها بعد الآن أو أنتزع قلبك من صدرك !. » وكان هربرت شديد الشحوب ، وخداه ينبضان ، بيد أنه كان فى صف آرثر ، ولا يحجم عن شىء فى سبيل تأييده .

ونضبت طاقة مستر تومسون فى الكفاح ، وتخاذلت ركبتاه وهو واقف ، وتهاوى صدره ، وقال بألفاظ متعثرة وأنفاس متقطعة : « يا آرثر . لقد عادت الى الاغماء . فهات النشادر » فلم يتحرك آرثر ، وأحضر هربرت القارورة وقدمها الى أبيه فى نفور ، فوضعها مستر تومسون تحت أنف مسز تومسون، ثم صب قليلا منها فى راحة يده ودلك جبينها . وأخذ هربرت ينتحب وينشج وهو يقول ويردد يائسا : «أماه . لا تموتى» فقالت مسز تومسون : » انى بخير فلا تقلقا . وأنت ياهربرت لا تفعل هذا ، فانى بخير . » ثم أغمضت عينيها . وشرع مستر تومسون يرتدى خيرة سراويله ، ثم لبس جوربه وحذاءه . وجلس الغلامان على جانبى الفراش يرقبان وجه مسز تومسون . ثم لبس مستر تومسون قميصه وسترته وقال : « سوف أركب لاحضار الطبيب . فليس يبدو لى ذلك الاغماء المنكر علامة خير ، فاسهرا عليها حتى أعود . » وأصغيا لكلامه ولكنهما لم يجيباه بشىء ، فقال : «اياكما وأفكار

السوء . فانى لم أمسس أمكما طوال حياتى بسوء عمدا . »
وابتعد منصرفا ، ثم نظر وراءه فرأى هربرت شاخصا نحوه ببصره من تحت حاجبيه كأنه ينظر الى رجل غريب عنه ، فقال مستر تومسون : «أحسنا رعايتها . »

واخترق مستر تومسون المطبخ. وهناك أشعل الفانوس، ثم أخذ من فوق الرف الذى بضع عليه الولدان كتبهما المدرسية كراسة هزيلة من أوراق المسودات وعقب قلم رصاص . ثم رفع الفانوس ومد يده داخل الدولاب الذى يحفظ فيه بنادقه، فوجد بندقية محشوة على أتم أهبة ، فانه لا يدرى الانسان متى تمسه الحاجة الى بندقية ، ثم خرج من البيت دون أن يلتفت وراءه أو ينظر فيما حوله ، فاخترق الحظيرة دون أن يراها ، ثم اتجه الى أقصى أطراف حقوله التى تمتد نصف ميل الى جهة الشرق .

لقد كثرت الضربات على مستر تومسون ، ومن كل جهة ، فليس فى وسعه أن يتريث ليستبين موضع اصابته. وانطلق يمشى فى الارض المحروثة وفى المرعى المعشوشب ، واخترق فى حذر أسوار الاسلاك الشائكة، فمر منها مقدما بندقيته أمامه، وقد تكشفت لعينيه الاشياء فى الظلام قليلا بعد أن ألفه. وبلغ فى نهاية مسيره الحد الاخير من حدوده ، وهناك جلس وظهره الى عمود من الاعمدة، والفانوس الى جانبه ، والكراسة فوق ركبته ، ثم بلل القلم بريقه وشرع يكتب :

« أمام الله العلى القدير ، قاضى الكل الذى أمامه سأمثل بعد قليل ، أحلف هنا يمينا مغلظة أننى لم أقض على حياة مستر هومرت . هاتش عمدا. بل دفاعا عن مستر هلتون. ولم أرم الى اصابته بالفأس وانما رميت فقط الى الحيلولة بينه وبين مستر هلتون ، لانه كان قد صوب طعنة الى مستر هلتون الذى لم يكن قد فطن اليها. واعتقدت فى ذلك الوقت

أن مستر هاتش سيقضى على حياة مسترهلتون ان لم أتدخل. وقد قلت ذلك كله للقاضى وللمحلفين ، فأطلقوا سراحى . بيد أن أحدا لا يصدق هذه الحقيقة. وهذه وسيلتى الوحيدة للتدليل على أننى لم أقتل عامدا متعمدا كما يعتقد كل انسان فيما يلوح لى . ولو أننى كنت فى مكان مستر هلتون لفعل من أجلى ما فعلته من أجله . وما زلت أعتقد أننى قد فعلت الشىء الوحيد الذى كان أمامى أن أفعله . وزوجتى .. »

وهنا تمهل مستر تومسون وفكر برهة ، ثم بلل سن القلم بطرف لسانه وشطب به هذه الكلمة الاخيرة ، وجعل يسود الموضع الى أن جعل منه بقعة بيضاوية ، ثم بدأ من جديد :

« ان مستر هومرت . هاتش هو الذى حضر ليسىء الى رجل لا أذى منه . فهو الذى تسبب فى كل هذه المتاعب ، فاستوجب الموت . ولكنى آسف أننى أنا الذى كان عليه أن يقتله » !.

وبلل سن قلمه مرة أخرى ثم وقع باسمه الكامل فى عناية، وطوى الورقة ثم وضعها فى جيبه الخارجى . وخلع بعد ذلك حذاءه الايمن وجوربه ، ثم وضع قاعدة البندقية فوق الارض مصوبا فوهتها المزدوجة نحو رأسه، وكانت غير مستقرة، ففكر فى ذلك قليلا ، وهو يميل فيعتمد برأسه فوق فوهة البندقية

كان يرتعد ، وكان رأسه يدق كدقات الطبل حتى صار وكأنه قد ضرب بالصمم والعمى ، وهو يستلقى فوق الارض على جنبه ، ثم جعل الفوهة تحت ذقنه ، ثم تلمس الزناد بابهام قدمه .

أجل ، هكذا يستطيع أن يطلقها ..

انتهى

لا تشغلي بالك ... !
فإذا فقد منك
شئ ثمين يمكنك
الحصول عليه في
ساعات .. إتصلي
بقسم
أخبار الإعلانات
مفتاح الفرص الكبيرة
أخبار الإعلانات
نتائج سريعة - أسعار زهيدة

طبعت بمطابع دار أخبارالیوم

قصة اليوم

فوق جواد أغبر

أبناء الفناء - حمرة الظهيرة

يضم هذا العدد من « قصة اليوم » هذه القصص الرائعة الثلاث ، للكاتبة الامريكية المعاصرة « كاتراين آن بورتر » . وقد تكون هذه المؤلفة جديدة على قراء العربية ، ولكنها فى نظر النقاد الادبيين من خيرة كتاب القصة الطويلة والقصيرة والمقالة على السواء . وقد طبع انتاجها الادبى بطابعين متميزين : البطء الذى هو سمة الرغبة فى التجويد ، والغزارة مع التنوع . والكتابة ليست حرفتها فحسب ، بل هى أيضا هوايتها . وقد عرف عنها قولها أنها لا ترى فى الحياة شيئا يستحق الذكر سوى الكتابة . ولها هواية ثانية هى الفروسية ، ومن هنا نالت قصتها « فوق جواد أغبر » جائزة تكساس الادبية سنة ١٩٥٠ — واذا كانت مؤلفة القصص أديبة أمريكية كبيرة ، فان مترجمتها « السيدة صوفى عبد الله » أديبة مصرية بارعة ، طالما طالع القراء نفحات قلمها فى التأليف والترجمة .

وان دار « أخبار اليوم » بالاشتراك مع « مؤسسة فرانكلين » ليسرها أن تقدم الى قرائها هذا اللون الجديد من القصص العالمى .

٨ قروش

(طبعت بمطابع دار أخبار اليوم)

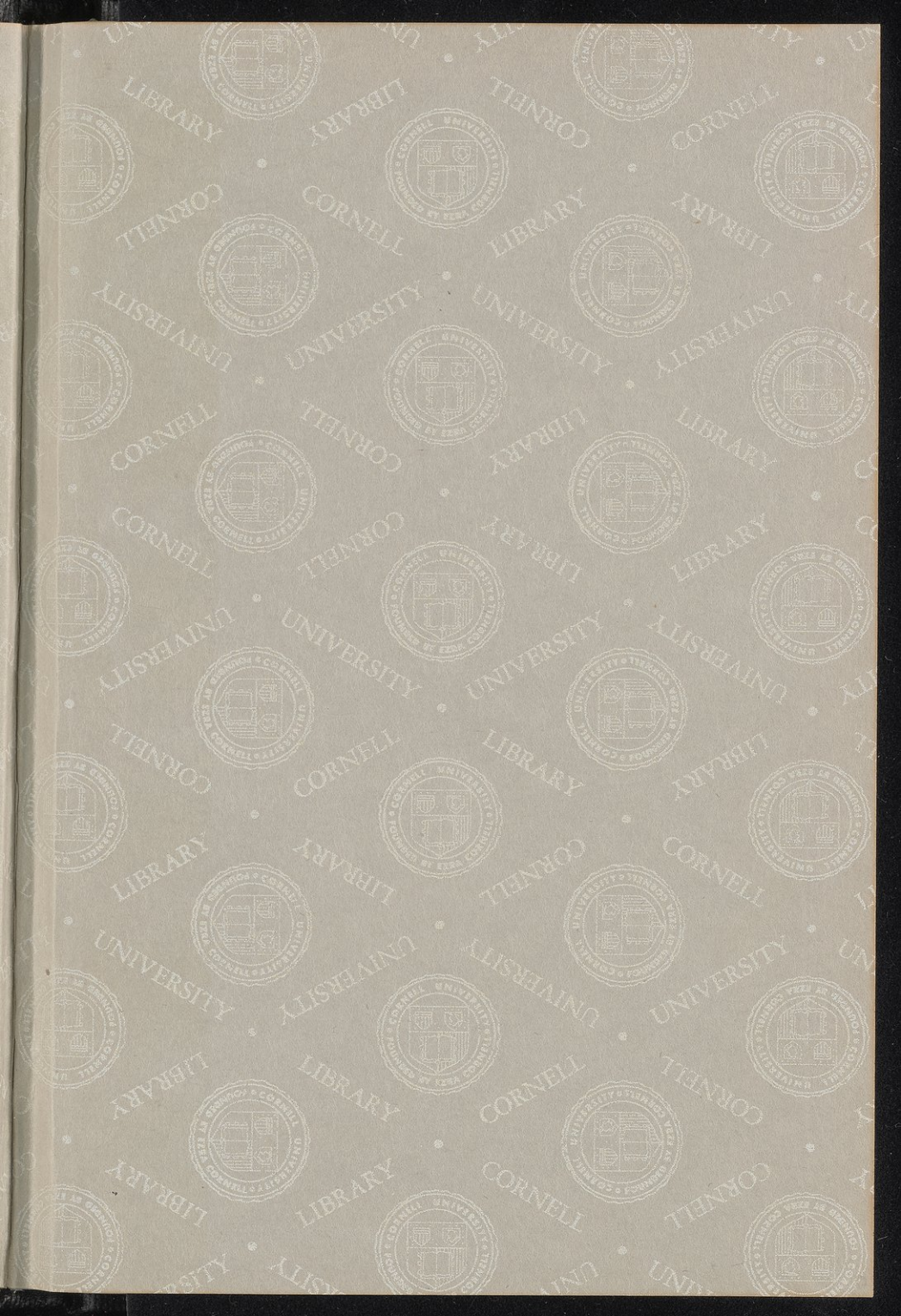
CORNELL
UNIVERSITY
LIBRARY

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY

OLIN
PS
3531
.O752
P312
1954